عبد اللطيف ولد عبد الله

التَّبَرُّجُ

رِوَايـَة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

التَّبَرُّج



طبع في لبنان

عبد اللطيف ولد عبد الله

ABDELATIF OULDABDALLAH



رواية



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1440 هـ – 2018 م

ردمك 978-614-02-1686-0

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

إهداء

إلى..

أمي وأبي. أحبكما.

إلى..

التي صبرت على غيابي بين أوراقي و كتبي.. زوجتي آسيا.

إلى..

مودود علجة شكرا لأنك آمنت بالعمل منذ البداية.

قبل ثلاثة أيام

ارتخت يداهُ وتقوّست كتفاه نحو الأمام، أضْحى جسدا يتداعى تحت وطأة الألم والتعب، استهلك العالم كامل طاقته و لم يَعُد يرغب في أكثر من أن يختفي وراءه في العدم، كان يُحِسُّ به من قريب، نعم لقد أحَسّ بأصابع الموت تنساب إليه من بعيد بعد أن تخلى عنه القدر.. هذا القدر الذي ذاق معه مرارة المعاناة والألم، تركه يُسَّلِم يديه نحو السماء.. كيف له أن يعيش بعد كل ما حدث؟ كيف له أن يُبْصِر النور وهو الذي لم يَعُدْ يقوى على رفع أجفانه ليشاهد العالم من حوله؟ كيف له أن يحيا إنْ كانت الحياة هي التخلي عن إنسانيته. ها هو الآن قدره يقوده نحو النهاية، لا.. بل يُرافقه كما يُرافق الجّلاد المحكوم بالإعدام إلى المقصلة؛ خاضع، مُسْتسلم، مُقيّد بخيط وهمي إلى فنائه.. إنّه القدر الذي على كل إنسان أن يخضع لمشيئته.. إنه السّهم الذي يفقأ العيْن إذا عاندته. "استسلم له وستكون نهايتك رحيمة.. إنْ لم يكن الآن فغدا." هذا ما فكر فيه طويلا.. الموتُ قبل الأوان لم يكن مِنْ بين خُططِه أبدا، أراد أن يستمر، أنْ يعيش ليُكافح منْ أجل بصيص أمل، ولكن ها هو الأملُ يغدو ألما، وها هو الموت يُحدّق إليه من تحت النافذة راغبا في ابتلاعه. صّمامُ الأمان هو الموت، هناك حيث تختفي الحقيقة الأبدية، هناك تتوقف الحركة حيثُ يَنْسَى الجميعُ من نكون، هناك لن تكون دموع ولا ألم، هناك يتوقف الزمن

وتُمْحى الذكريات. كل شيء يتكفلُ به الزمن مهما كان مؤلمـا أو جارحا.. الزمن يشفي كل شيء، الزمن قلْبُ العالم وهـو إكسـيرُ الحياة. لم يَعُد يعرف الأمل منذ مدة، وليس له حاجة به بعـد الآن، المعجزة هي كل ما يحتاجه الآن، ولكن هيهات.. فالمعجزات تليـق بالأنبياء وهو المُدَنّس بجبالٍ من الخطايا. يعرف أنّ أمثاله مِنَ البشر لم تَعُد تصْلح لهم الحياة، ولا رجاءِ لمن انتهى من الماضي ويـئِسَ مـنَ المستقبل. نهض منْ مكانه بهدوء يَجُرّ خُطواتِه المُنهكـة، منكـوس الرأس، مكسور الخاطر، يكادُ ذقنه يُلامس صدره مُتّجها نحو النهاية. كان الرِّواق خاليا في تلك الدقيقة. نزع إبرة المصْل من ذراعه وتركها تسقط على الأرضية، وكأنّه يتطَهّرُ من أرْدان هذا العالم. فتح النافذة المُطِلة على الحديقة، تاركا رِيّاحَ الخريفِ تُدغدِغُ الإنسـانَ الـذي بداخله.. الإنسان الذي لم يَعُد يشعُر بشيء. هواءٌ بـارد ورطـب مُضْمَّخٌ برائحة الشجر. برز نصفُ جسمه الأعلى خـارج النافـذة مُسْتنشقا الهواء العليل، ومالئًا رئتيه منه، شاعرا بسكينة لم يسـبق أنْ عاشها من قبل، أيكون هو الموت إذن؟ تدفّق الدمُ في عروقه بقـوة وأغمض عينيْه تاركا جِسْمَه يهوي في الظّلام.

الجزء الأول

-1-

أين أنا؟ لا أستطيع أنْ أرى شيئا مُحددا في هذا المكان، كل ما أحِسُّ به الآن هو الألم لا غير. هل أنا حي أم...؟ لا.. لا.. الأموات لا يُحِسُّون بالألم، الحياة فقط من تحمل معها الألم؛ حيث وُجِدَ الألم هناك حياة، وحيث كانت الحياة هناك ألم. كم من الوقت مضى على تواجدي هنا؟ ألا يزال الوقت جاريا؟ الموتى لا يشعُرون كذلك بمرور الوقت.. آدم وحواء.. الشجرة.. إبليس.. تلك القصة أعرفها جيدا.. نعم، نحن على الأرض.. كيف ورطانا في ذلك؟ ما ذنبي أنا إن أخطأ هو؟ آه.. آدم هبط على الأرض وأنا لا أعلم أهبطت أم صعدت! أبين السماء والأرض.. معلق هناك؟ ههه.. لا.. لا.. أصبحت غبيا بما فيه الكفاية.. الجاذبية هي منْ أسقطت تلك التفاحة، هل نسيت؟ فقط.. فقط، آه.. ما هذا الألم؟! إنه فظيع جدا، هل كان آدم يعرف معنى الألم قبل أن يُقْدِم على أكل التفاحة؟ آه.. الألم ثانية إنّه حقا فظيع جدا. ما يزال جسدي بيولوجيا مما يجعل حركتي مستحيلة في هذا المكان المغلق والصامت، كيف لي أن أُبْصِر وسط هذا الظّلام، كيف لي أن أفتح جفنيّ المُثقلين بالتعب لأرى الفراغ والظلمة فقط؟ آه لو لمْ أكُن ابن آدم لكنت أفضل بكثير.. أخخخ.. أنا أتألم. هذا الظلام اللعين ابتلع كل شيء حولي، حتى صرخاتي تتوه سُدىً بين طياته، أرغي وأزبد في الفراغ بدون جدوى، أمُّد ذراعي بيأس إلى نهايةٍ تبدو

بعيدة ومستحيلة.. إنها هناك وأكاد أُبْصِرُها.. يقولــون أنّ النــور يَعقُب الظلام دائما، فأيُّ نورٍ هذا الذي ينتظر الإنســان في نهايــة حياته؟ نتعذب طوال حياتنا بالخوف والإحساس بالــذنب والآلام، خائفين في الأخير من نهاية مجهولة. تلك النهاية المُشرقة تلــوح في الأفقِ أكادُ أُبْصِرُها.. أيُمكن أن تكون تلك هي المحطة الأخــيرة؟ هل يمكن العبور إلى هناك؟ إنه يزداد سُــطوعا وإشــراقا.. نــورٌ خاطفٌ يوشك على ابتلاعي.. إنّه يقترب.. سأخرجُ منَ الظلام.. إنّي أتقدم نحو النهاية.. لا أعلم كيف ولكني.. لابد أنّي في حلم.. إنه حُلمٌ داخل حُلمْ.. كيف سأستيقظ من كل هذا؟ أزحف علــى بطني متألما وأقترب من المكان المُضيء.. آه.. إنّــه الألم مُجــددا.. أنهض واقفا على قدمي، أتعثّر.. أُعاوِد الوقوف.. تنزاح الظُلمــة شيئا فشيئا كستار مُخمليٍّ داكن، وتزداد الأنوار سُطوعا وإشراقا، ولكن ألمي يتعاظمُ مع كل خطوة أضعها نحو الأمام. ها هي نهايــة الظلام وشيكة.. غريزتي هي من تقودني إلى ذلك المكان.. أيمكــن أن أثق فيها كما وثق آدم في غريزته حين أقبل علــى الشــجرة؟ دعك من آدم الآن، عليك أن تنجو بنفسك. هناك حيث تطفو في الأُفُق حُمْرَةٌ صافية تُلَوِّنُ السّماء بلوْنٍ تــدريجي مــن البرتقــالي والنُحاسي، وينعكس كل ذلك على الســطح الأملــس للبحــر، والذي يبدو لي كفضة متلألئة تحت هذه السماء العجيبة، تتفــرقُ سُحُبٌ بيضاء على أديمها النقي، الخالي من الذنوب، سُحُبٌ بيضاء تشبه حلوى سكر عبث بها صبيٌ في سنته الثالثة. هل أنــا أبكــي حقا؟ هل يُمكن؟ ها أنا أخيرا خارج الظلام؟ ها أنــا أرى بعــيني مجددا.. أمُدّ يدي في الهواء وأنتصبُ على حافة الجرف، هل هــذا

حقيقي؟ لا.. لا، مازلت أحلم.. يجب أن أستيقظ أوّلا.. لابّــد أنْ أُنهي هذا الحلم.. آهٍ لهذا الهدوء.. تُداعب وجهي نسمات رقيقــة ويتمَرّغُ جسدي العفِن في الهواء النقي. ها أنا أرفع رأســي نحــو السماء.. أُحِسُ وكأنني غطسْتُ في شلال من الأشعة البرتقاليــة. آه.. هل أنا أتجه نحو الهاوية؟ أنا أسقط.. نهايتي وشيكة.. أســقط وأسقط.. ومازلت أسقط.. آه.. أين هذه النهاية؟ مكانٌ سحيق لا قرار له، أصْرُخ ولا أحد يسمع، أبكي ولا قلب يَرِقْ.. كــلّ مــا أمامي الآن هو الموت بصمْتِه وظلامه. هناك في القاع يظهر نــورٌ خافت، أرى وجوها كثيرة بحيث لا أستطيع تمييزهــا.. مازلــت أهوي.. يتواصل سُقوطي الحر.. إنه السُقوط نحو الأبدية.. سُقوطٌ نحو شقاء.. تلك الوجوه تُكشِّر عنْ ابتسامات خبيثة مَرِحَة مُرَحِّبة بقدومي بينها. ضحكات طائشة هستيرية مُخيفة.. تنْفرِجُ أفواهها كمداخل كهوف مُظلمة تنتظر فُرصــة ابتلاعــي. آه.. مازلــت أهوي.. فقط لو أخرجُ من هذا النفق.. أين أنا؟ ها هــي النهايــة أخيرا، إنها وشيكة وسريعة.. هل أغلق عيني لكي لا أرى المــوت؟ لن أصرخ.. لن أصرخ مجددا.. لن أستســلم للخــوف.. لا.. لا أستطيع، قلبــي يخفق بعنف داخل صدري، وها أنا أهتــز رعبــا وألما. آه.. لن أحتمل أكثر من هذا.. فاق ألمي كل خيال.. ما هذا الصوت؟ أرى صورا مشوشة.. نورٌ باهر يصدر من مصباح مُضِيء على السقف يوخِز عيني كإبرة. أمامي يقفُ شبح شخص غريــب يُلقي عليّ بظلاله الثقيلة.. تمتد يده نحوي فأرى خمس أصابع غليظة متفرقة، كأنّها أرْجل عنكبوت تتجه نحوي وتكاد تحجُب الرؤيــة، أحاول إبعادها بمشقة ولكن.. شلل غريب يُخدِّر روحي وجسدي

معا.. ما الذي أصابني؟ كيف؟ ترتدُّ اليدُ عائدة إلى مكانها تصْحبها ضِحكة مُستهزئة. يعود الصوت أقوى هذه المرة، الصورة أوضح من السابق.. ولكن من هؤلاء؟ أين أنا؟ أفقد التركيز.. لم أعد أرى شيئا.. ذلك الصوت هناك يبتعد تارة ويقترب طورا.. أين أنا؟ لا أستطيع تمييز شيء.. كل شيء مُشوَّش.. آه.. أكاد ألمحُ شيئا ما هنا.. شفتان حمراوتان، تشققات طفيفة على حوافِهما.. إنهما تتحركان ببطء، تودان قول شيء ما.. لا أسمعك.. ماذا؟ لا أسمعك.. إني أصرخ ولكنها لم تتمكن من سماعي.. أحس بملمس الفراش ناعما تحت جسدي، كأني أطفو في حلم آخر.. هذا مستحيل! لحظات طويلة تمضي ببطء تتخللها ومضاتٌ مُتقطعة.. صوتٌ مُلِح ينطقُ الآن.. صوتٌ بشِع.. يقترب أكثر، لا.. لا.. إنه طنين الألم داخل رأسي.. إنه الألم.. من هذا الشخص؟ لا أستطيع تمييزه.. وجه مُتصّفح وباسِم، ينطقُ بكلمات غريبة.. أكادُ أسْمَعه.. ماذا يقول؟ لا.. لا.. أستطيع متابعة حركة التشققات على الشفتين، لستُ قارئ شِفاه، كما لستُ خبيرا في وضعِ مساحيق التجميل.. يتردّد الصوتُ مجددا، ويرتفع الوجه مبتعدا.. ينادي أحدهم من بعيد.. أو من قريب..

-2-

انتفخَ مِنْخراه الضيّقان بحثا عن الهواء، وضاقَ بؤبؤاه داخل عينيه البُنيّتين تدريجيا لتعتادا على الضوء الباهر الذي كان يتدفّق من أعلى المِصْباح بكثافة، ارتفع صدرُه المُنْهك في حركةٍ بطيئة ومُنتظمة وقد أطبق شفتيه الجافتين ذواتا اللون الأزرق، ودار لسانه في فمه ثقيلا وكأنه علكة طال مضغها، تحركت أجفانه النديّة ليكتشف العالم من حوله. كانت نظرته ضبابية وضئيلة نوعا ما، أطبقهما عدة مرات ليمسح الغشاوة عنهما ولكن دون جدوى. كان كل شيئ مُضطربا حوله.. جُدران وسقف وأشكال مُتحركة جعلته يشعر بالدوار، وأثناء ذلك تناهى إلى سمعه صوت بدا كنداء مكتوم أو كصرخة ضائعة بين التنهدات. مرّر لسانه الثقيل على شفتيه مُزدَرِدا ما تبقى في فمه منْ ريق. وبعد عدة دقائق أخذ الضبابُ ينجلي تدريجيا والصورة تتضح أكثر، لتأخذ الأشياء مكانها الطبيعي في ترتيب منطقي. عاد الصوت مرة أخرى، وقد بدا له هذه المرة كل شيء حقيقيا، لم يكن هذيانا، و لم يكن حُلما، بل أحسّ بوجوده كشخص في هذا العالم، كان الألم هو من يُخبره بذلك.. الألم الذي بدأ يتسرّب من صدره إلى جميع أطراف جسده جعله يُدرِك الحاضر، ثم دارت عيناه في مِحْجَرَيْهِما بحثا عن مصْدر ذلك الصوت. شدّ عظام رقبته ليرفع رأسه ويتطلع إلى المكان من حوله، فكانت النتيجة أن غاص رأسه أكثر داخل الوسادة. بعد ذلك حاول تحريك ذراعيه اللتين ترقدان

على جانبيْ جسده كحبلين أتعبهما الشد، لم يقوَ على رفعهما عن الفراش أكثر من خمس وأربعين درجة، فجسده لم يكن صاحيا عكس دماغه. أنْ تستيقظ فتجد نفسك في مكان غريب فهذا أمرٌ مُربك حقا، ولكن أنْ تجد نفسك في مكان غريب ولا تستطيع التحرك فهذا أمرٌ مُخيف، أمّا أنْ تشعُر بالألم ولا تستطيع فِعل شيءٍ حياله فهذا هو الرُّعبُ الحقيقي.. المرض، الخطر، الحياة والموت.. كل هذه الأشياء تُرَّدُ إلى ذهنِ الإنسان في مثل هذه الحالة. الشعورُ بالخوف ينْجُمُ عن الشعورِ بالخطر، ولكن ممَّ الخوف؟ هذا ما لم يكن يظهر على تقاطيع وجهه في البداية.

أيّةُ غرفةٍ هذه؟ ولماذا لم يظهر أحد حتى الآن؟ آه صدري.. ماذا فعلوا به؟ إنه يلتهب ألما.. أين هو الطبيب؟ الأوغاد لقد تركوني مَنسيا في هذا المكان، مِنَ المفروض أنْ... أخخخ.. الألم.. أحتاج لُمسكِّنات قوية.. أين أنا وأين هم؟ لا أعرف حتى أين أنا، وهم.. من قال لهم أن يضعوني داخل هذا المكعب المتوازي الأضلاع الذي لا تتعدى مساحته خمسة وعشرين مترا مربعا؟ وهذا الطلاء الأبيض باهت أكثر من اللازم، كل شيء مُهْمَل في هذا المكان، كيف لا وقدْ رموني هكذا في السرير دون عِناية؟ أين هم هؤلاء الأوغاد؟ أين هم؟ ألا يدركون حجم الألم؟ آخخخ.. كم الساعة الآن؟ لقد مرّ وقت طويل ولم يظهر أحدٌ بعد.. العملية كانت على الساعة التاسعة صباحا، ولكنها تأجلت إلى العاشرة والنصف بسبب الطبيب الذي تأخر لأن ابنه واجه مشكلة في المدرسة. قال ذلك دون مُواربة وأمامي، وكأنّه مَركز الكون وعَليَّ أن أدور في فلكه بهدوء، وتلك الممرضة التي تميس بقدها الغليظ

بين الأدوات الحادة التي ستكون قريبا داخل صدري.. آه كيف جاز لهم الضحك أمامي.. ظنا أني لم أسمع شيئا مما دار بينهما، أنا الذي كنت مُشرفا على الموت، أنا الذي سلمت له جسدي ليشقه إلى نصفين، أنا القِدِّيسُ وهم الجّلادون.. كنتُ لا أزال بكامل إدراكي، ولكن بعدها حدث كل شيء بسرعة.. أوشك النهار على نهايته. هذا الطلاء كم هو باهت.. كان يمكنهم أن يطلبوا من صديقي يوسف أن يقوم بدهنه، إنه ماهر في عمله.. سأخبرهم بذلك وأدلّهم عليه.. ولكن المشكلة أن يوسف في القبر.. لا بأس، يمكنني التواصل مع الأموات عن طريق الرؤيا أو تحضير الأرواح.. مستشفى لا يطلب منك شيئا سوى أن تغادره ميتا أو حيا، يوسف غادره ميتا وأنا.. إنه يطلب حياتك أيضا يا حسين، يوسف نزل في هذا المستشفى أيضا.. ماذا أنتظر أكثر من ذلك؟ أَوَ تَحْسَبُ أنهم سيقولون لك أكتب لنا مقالا عن الصحة في البلد؟ اِصحَ من نومك ودعك من التخيل.. الألم يزداد كل دقيقة.. ما هذه الغرفة الكئيبة؟! مُضّلع ذو طلاء باهت، ومصباح نِيُونْ يلتصق بالجدار فوق سريري، يُضِيء الغرفة من هذا الجانب.. هذه الفرقعة تصدر منه باستمرار.. آه الألم، إنه يتعاظم.. الجدران مُتصدِّعة، وهذه التشقُقات تُشكل حرف z في السقف تمتد إلى الجدار المقابل، وكأنّها تُهدّد بالنزول إلى الأرضية. رأسي يفور من الألم.. أين هم هؤلاء؟ هل أنا أتعرق؟ أتحرك سنتمترا واحدا وإذا الألم يتدفّق دفعة واحدة.. أعصابي تحترق ولا أحد يبالي.. أين هم هؤلاء؟ أين هم؟ أخخ.. صدري ورأسي.. يجب أن أحافظ على سكوني، لا يجب أن أتحرّك.. الألم سيندفع.. أطرافي ترتعد من الألم.. أنا

أرتجف.. لا.. لا.. جسدي يرتجف.. أنا لا أريد ذلــك، ولكنــه يرتجف جالبا معه الألم.. آه.. يبدو أن صوتي يتلاشى في الهواء.. لا أحد يسمع.. لا أحد يكترث.. أين هم الآن.. أيــن؟ مــا هــذا الصوت، إنه وقع أقدام.. أخيرا. ولكن إلى أين تتجه؟ هــل هــي خطوات مُبتعدة أم تحمل شخصا إلى هذه الغرفة؟ كــلا.. كــلا.. إنّهم يُدْرِكون قدْرَ مُعاناتي.. أخيرا ها هو أمامي.. ها هو الطبيــب يتقدّم نحوي مصحوبا بتلك الممرضة ذات الجسم الممتلــئ. بُــروز صدرها الناهد بذلك الشكل أمامي وهــي تــنحني فــوقي مــن المُسّكنات الفعّالة.. شكلُ ورِكيْها المُنحنييْن يُشبهان وركيْ حصان. تجُرُّ وراءها عربة تقِلُّ فيها سيّدها الطبيب الذي يُرْسِلُ السِّياط على ظهرها لتتوقف عند سريري.. آوووو.. العربة الفولاذيــة تــرتج وتُقلقل معها أدواتها الحادّة. إنّه يتفّحصُ وجهي ويميل فوق صدري دون أن ينْبس بكلمة.. كل هذا الألم ولا أسْتحقُّ كلمةَ إطــراء؟! أتمنّى أن يتألّم مثلي يوما ما ليُدرك معنى أن تشُدَّ عضلات وجهك عندما تنظر إلى شخص محروم من الصحة. يقتــرب مــني كــنبيّ مُخّلِص يضع يديه وراء ظهره، وكأنّ مُستقبل العالم مَنــوطٌ بمــا سيقوله بعد قليل.. رائحةُ الكحول تفوح من تلك العربــة، إنّهــا حادة بالمقارنة مع عِطرها الرخيص، شممتك أنت تقتــربين منّــي لتعديل القسطر.. الحقن.. كم أحب رؤية مظهرها، كم أحبُّ تلك اللحظة التي تسبق الوخز على المؤخرة.. إعدادُ الحقنة فــنٌّ يجــب إتقانه. ها هي بدأت في إعداد الحقنة العزيزة.. سيَخِفّ الألم.. فقط أنقري على الحقنة بالأصبع الأوسط لإفراغها من الهواء، ثم.. لماذا تقومين بإفراغها هناك؟ أنا الذي بحاجة إلى مُسَكِّن وليس القسطر..

أنتم تريدون تعذيب المرضى، تُقطِّرون العلاج قطرة بقطرة ليتـــدلى ببطء السُلحفاة داخل أنبوب ينتهي بإبرة تُغْـــرَزُ بقســـوة داخـــل ذراعي المسكينة. ومتى سيخِف الألم؟

- أشعر بالألم..
- وضعنا لك المُسَكِّن، سَيخف عنك بعد قليل ويمكنـــك أن تنام بعدها بهدوء.

"تكلم معي وكأنّه يخاطب شخصا غـــير مرئـــي.. الأطبـــاء الملاعين.. أنا هنا، اُنظر إليّ وقل لي مـــاذا فعلـــت بـــــي أثنـــاء غيابـــي.. هل وجدت شيئا داخل صدري؟ هـــل رأيـــت رئَـــتيَّ تضُخّان الهواء وقلبـــي ينبض؟ قلبـــي؟! هل رأيت ذلك القلـــب؟ كيف هو؟ قل لي كلمة.. أنا من تعذّب بحمله طوال أربعين سنة ولا أعرف شكله ولا لونه، أنتَ ببساطة شققت صـــدري وعريّـــت قلبـــي.. كل تلك السنوات، كل ذلك الحنين والشوق انكشـــف لك في ساعة من الزمن.. آه لو كنتُ مكانك لتكلمت معه وسألته عن تلك السنوات.. ولعرفتُ مدى عمق تلك الجـــراح.. تلـــك الجِراح التي لا يمكن لها أنْ تُشْفى أبدا.. تلك الجراح التي فُتِحَـــت منذ سنوات، سنواتُ الدموع والألم.. لا.. لا.. ليست هذه المـــرة الأولى التي تسقط فيها يا حسين.. لقد سقطت مـــن قبـــل وكـــم تعددت سقطاتك.. هل صِرْتُ أُكلّمُ نفسي الآن.. هل هذا مفعول الدواء؟ الممرضة غادرت الغرفة تجرُّ معها العربة والطبيب. ليست هذه المرة الأولى التي أجد نفسي في هذا المكان.. نجوتُ من الموت سابقا عندما وجدتُ نفسي في نفس الوضعية، مُلقى على ســـرير مُتحرّك داخل غُرفة فسيحة مُشبعة برائحة البيتـــادين والعـــرق،

كانت تُحيطُ بـــي أمّي وهي تعانق أختي نوال، أمّا أحمـــد فكـــان ناشطا مع جماعة "الفِيس" آنذاك ورغم ذلك أتى، أشكُ أنّه أهـــدر دمعة أو دمعتين على حالتي.. ذلك المنديل الذي حملته أمّي معهـــا أصبح ثقيلا بالدموع والمخاط، كيف مازلت أذكر ذلك المنـــديل؟ يا للغرابة! حتى ذلك المنديل مازال في الذاكرة! ذلك الطبيـــب لم أعد أذكر وجهه.. أشقر وسيم وذو ملامح حـــادّة. مـــاذا قـــال بالضبط.. تكلّم عن صحّتي.. تفَحَّـــصَ رِجلـــي.. آه يـــا لتلـــك الرِجْل.. إنّها مُخدَّرة الآن.. مضى زمنٌ طويل على شفائها رغم أنّ عَرَجي لا يزال ظاهرا نوعا ما.. ماذا قال عن الساق؟ كانت ساقي اليسرى مربوطة بحبلٍ في نهايته قارورة مملوءة بخمس لتـــرات مـــن الماء، ورأسي ملفوفٌ بضّمادات، أما ذراعي فمُثبتة بالجِبْس.. كل ذلك خلق مظهرا مُرعبا على وجه أمّي ونوال خاصة.. أين هـــي الآن؟ كيف لها أن تغيب كل هذه السنوات، ألم تفكّر بأمّنا الـــتي تحتضرُ منذ مدة؟ يجب أن تأتي، عليها أن تترك ذلك الرجل في كندا وتعود لأهلها.. لا مكان لها هناك.. أين أنتِ الآن؟ أيـــن ذهـــب الجميع؟ تلك النظرة التي غمرتني بها أثناء اقتراب الطبيب ليُعْلِمَني بما حدث.. تلك الحركة التي قُمْتِ بها لتُثبِّتين نفسكِ على رِجليْكِ عندما بدأ الطبيب إخباري عن الكُسُور التي فتّتتْ عِظامي، وتلك النظرة المُنكسرة والمليئة بالدموع، عندما اقترب أكثـــر وبصـــوت هادئ ورزين ليخبرني عن وفاة زوجتي سَعْدِية أثناء الحادث ونجـــاة ابنتي فلة بجُروح طفيفة. أخبرني عن عدم جدوى إنقاذها.. أخبرني أنّه القضاء والقَدَر.. أخبرني أنْ أتجلّد بالصّبر.. أخبرني أنه آســـف لِمَا حصل.. أخبرني أنّه سيبذل قصارى جُهْده لُمساعدتي.. طلب أنْ

أواصل حياتي بكل هدوء.. وأخيرا أخبرني أنّ جِسمي سيتماثل للشفاء.. ولكنه لم يُخبِرني أنّ رغبتي في الاستمرار في هذه الحياة ستنقطع، لم يُخبِرني أنّ إيماني بالله والقَدَر سيتلاشى، لم يُخبِرني أبدا أنّني سأكون وحيدا فيما تبقى من حياتي، ولَمْ يُرِد إخباري أنّ الذاكرة لا تنسى الألم أبدا.. ألَمُ فراق منْ أحببناهم طوال حياتنا.. لَمْ يُرِدْ إخباري أنّ المرْءَ حين يفقد أعزّ ما لديه ستُصبِح حياته بدون معنى. ها هو الليل قد أتى بهدوئه وعتمته، لقد تعبت.. تعبت..."

-3-

بعد عدة ساعات استيقظ حسين من النوم، وشعر لأول مـــرة بحضوره الكامل في هذا العالم، لم يتركه الألم ليستريح، ولم يســـتطع التفكير بوضوح ولم يبذل أي جهد لذلك. شعر بحواســـه وغرائـــزه تستيقظ بداخله لتجعل منه جزءا من هذا العالم.. لم يكن طيفـــا، ولم يكن حِبرا على ورق، ولم يكن مُجَّرَد ذِكرى، بلْ كان لحمًا ودمًـــا حاضرا بكُلِّ ما تعنيه كلمةُ إنسان من معنى. فتح عينيه على اتساعهما وقد برزت فيهما شُعيْرات دموية كثيفة، وأخذ يُرسِلُ الطّرْفَ مـــن حوله مُسْتكشفا الغرفة لأول مرة، فالصورة التي رآها بهـــا الأمـــس كانت مُفلطحة وإهليجية، وكأنّها اُلْتُقِطَتْ بعيْن نحلة. كان للغرفـــة بابان، كلاهما من الخشب المُكرّر، أحدُهما يُؤدي إلى خارج الغرفـــة وطُبِعَ على واجهته رقم الغرفة **–69–**. أمّا الباب الثاني فأقصر مـــنَ الأوّل ويرتفع عن الأرضية سبعة عشر سنتمترا يؤدّي إلى المرحـــاض، وعلى يمين الباب حوض اغتسال، وصُنبور من معدن أكلـــه الصّـــدأ يقطر ببطء، يُصْدِر صوتا رتيبا مُزعِجا وخاصة في فترات السّـــكون وعندما يعُمُّ الهدوء أثناء الليل. كانت النافذة الوحيدة في الغرفة تُطِلُّ على مشهدٍ رماديٍّ كئيب، وكأنّه امتداد لداخل الغرفة. انتبه حسين إلى أنّه لم يَكُن وحيدا في الغرفة، رآى شابا يستلقي علـــى الســـرير، يتكوّرُ على نفسه ويضعُ يديه بين فخذيه غارقا في النـــوم، ويَتَـــدثّرُ ببطانية صوفية بُنية اللوْن، لا يظهر منْ بَدَنِه إلا رأسه، وكان يحشـــره

داخل قُبّعة صوفية. انطلق منْ فمِه المُنْفرج صفيرٌ مكتوم أشبه بصفير الريّاح في البراري، وسال اللعاب من فمه مُبَلِّلا جُزءا منْ الوِسادة وقليلا من صفحة وجهه اليُمنى. في تلك اللحظة انتشر ضباب كثيف في الخارج، والتصقت السُّحُب بالأرض، وقد تصاعد صفيرُ الشاب بوتيرة مُتزايدة وريقهُ يتحرك عبر الوسادة عن طريق الخاصية الشعرية، وكأنّ الجوّ في الخارج يتسّرب منْ أحلام هذا الشاب.

ظلّ حُسين مُستلقيا في سريره دون حراك، يُصْغي لآلامه في صمتٍ ونفاذ صبرٍ. نظر عبر النافذة ووجْهُه هادئ كالصخر:

"كيف انتهيت إلى هذا المكان؟ لماذا لم أتفطّن إلى ذلك من قبل؟ جسدي يرتعد تحت صعقات الألم، لابّد أنّه الجُرْح لمْ يلتئم بعد.. صدري مشقوق.. سَيُصْبِحُ لجسدي نَدبة أخرى، ذاكرة الجسَد قوية، فنَدبة ساقي اليُسرى مازالت تُذكّرني بالحادث.. وها هي الندبة الثانية.. قال الطبيب أنني في حالة حَرِجة والمرضُ قد وصل إلى مرحلة مُتقدّمة، منَ الممكن أنْ تُشكّل خطرا على حياتي.. لا.. لمْ أسْمعه يقول ذلك.. لقد قال فقط أنّ المرض وصل إلى مرحلة مُتقدمة.. ألا يعني ذلك نفس الشيء؟ ألا يعني أنني أقترب من النهاية؟ ألا يعني أنّ الموت أصبح أقرب إليّ منْ ذاكرتي؟ الأسبوع الماضي كُنْتُ بكامل قِواي، كيف جرى كل ذلك؟ لازلت أتذكر كل شيء وكأنّه حدث منذ لحظات فقط.. خرجت من دار الصحافة رفقة حمزة، ثم اتجهنا إلى المقهى. قال أنّي أبدو في هيئة بهية، وسألني عن المعطف الذي كنت أرتديه.. آه يا دنيا.. أذكر كيف أخبرته أن ذلك المعطف كان هدية من سائحة هولندية أهدته لي عند زيارتي لمدينة مراكش.. كانت تكبُرني بعِدّة سنوات،

ولكنها لمْ تُخْفِ إعجابها بـــي.. كيف حدث ذلك؟ نعم.. لازلت أذكر شكلها وهي ممدّدة على سريرها في غرفة الفندق.. كانـــت غرفتها مقابلة لغرفتي، ولا تغلق بابها إلا عند خروجها.. كيـــف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ كيف؟ لمْ أعلم أنّها كانت تُريـــدُني أنـــا.. ولماذا تراجعتُ في الأخير؟ أنت جبان حقا يا حسين، فعـــلا أنـــت جبان، ولقد برهنتَ على جُبْنك عِدّة مـــرات.. جـــاءت لغـــرفتي وحيدة ترتدي منامتها التي كَشفت عن ساقيها الناعمتين وأعلـــى صدرها، عاقِدة شعرها إلى الخلف، ولم أنسَ قط تلك الرائحة التي انبعثت منها.. آه.. كيف؟ كيف كل ذلك وتحدثنا ليلـــة كاملـــة حول كتاب تافه؟.. لم أكن أدري أن الكتاب مُجرّد ذريعة لتُواري خجلها وتقول شيئا آخر.. السيّدة دالاوي؟ نعم، هذا هـــو اســـم الكتاب الذي يتحدث عن هموم السيّدة دالاوي، التي حاولت لَمَّ شمل أصدقائها وإقامة حفل في بيتها، وفي الأخير ينتحرُ عشيقها بعد مُعاناةٍ نفسية.. يا لها من نهاية! الانتحارُ مِنَ النافذة.. كيـــف لمثـــل تلك الكُتب أنْ تثير إعجابها؟ آه لك يا حسين! كمْ أنتَ منـــافق، كم أنتَ جبان.. أنسيت نفسك ماذا قُلْتَ لها وأنت تقف أمامهـــا كالصّنم واصفا مدى إعجابك بشخصية سابتيموس؟ ذلك الاســـم الرمزي المتعلق بحياة فارجينيا الأُسرية...

كيف لا أرى الحقيقة إلا بعد مُرورِها؟ يبدو أنّ صديقي انتبه لجُبْني أثناء الحديث، ولكنّي برهنتُ العكس بعـــد خُروجنـــا مـــنَ المقهى.. لقد رأى بعينه.. لم أكن جبانا يوما.. كنتُ أرتجفُ فقط.. هل يصِحُّ أنْ ننسب الارتجاف إلى الخوف؟ رغم التمثيلية التي قُمْتُ بها أمامه إلا أنّي ارتجفتُ وأنا أقترب من تلك الفتاة أمـــام محطّـــة

الحافلات، كانت تحمِلُ مِزهرية وقُفّة مصنوعة منْ نبْتة الدوم. تلك المزهرية أوّلُ ما لمحت.. تحملُ بيْن ذراعيها نبتة عنكبوت جميلة تتدلى أطرافُها إلى الأسفل.. ابتسَمَتْ لي ثم ابتسمتُ لها.. لا أصدّق أنّ ذلك حدث الأسبوع الماضي فقط.. تركتني أحملُ عنها المزهرية ونحنُ نصْعدُ إلى الحافلة.. لا أعلم لماذا انسحب حمزة في النهاية مُبتسما، غادر المكان وتركني وحيدا معها وكأنّ بُرهاني له قد تمّ.. حسنا، أنا لستُ جبانا في الأخير.. ولكنني ارتجفت.. ابتسمتْ لي ثم ابتسمتُ لها. جلستُ بجانبها، أنا أحمل المزهرية وهي تحمل قُفّة الدوم. اسمي حسين. آه.. تشرفت بمعرفتك.. كاميليا. ابتسمتْ لي وابتسمتُ لها.. قالت أنّها ستنزلُ في المنطقة الثامنة.. ولكنّني ارتجفتُ.. أخبرتُها عن جَمَالِ نبتة العنكبوت، أخبرتُها عن جَمَالِ عيْنيْها، أخبرتُها أنّ المرأة التي تعتني بهذه النبتة ستعتني بزوجها.. ابتسمتْ لي وابتسمتُ لها.. هي وحيدة كما اعْتَقدتُ.. لمْ تكن تضَعْ في إصْبَعِها أيّ خاتم.. أصابِعُها حُرّة ومُنْسابة وناعمة.. ونسيتُ أنْ أُخْبِرُها بذلك.. راح ذهني بعيدا، نسيتُ نفسي.. اكتظاظ الحافلة ورائحة الركاب أثقلت الهواء، ونبتة العنكبوت هي الوحيدة التي استمتعت بكمّية الكربون داخل الحافلة.. نادى الصرّاف حين اقتربنا من المحطة التالية.. المنطقة الثامنة، ثم المنطقة التاسعة، ثم مركز المدينة.. معسكر مدينة الأرقام.. أحْسَسْتُ بجسمها يلتصقُ بجسمي أثناء توقف الحافلة.. كيف نسيتُ أنْ أطلُب مِنْها رقم الهاتف؟ كيف بقيتُ أُطَوّقُ تلك النبتة بذراعي دون أنْ انتبه للوقت؟ تزحزحت لتقف من المقعد.. أوه.. عفوا.. تفضلي. أحْسَسْتُ بجسمها يلتصقُ بجسمي.. طوّقتُ النبتة بذراعي

ورأيتها تخرجُ من الحافلة.. التفتَتْ نحــوي ورفعــت يــدها إليّ.. أصابعها حُرّة ومُنسابة وناعمة.. ونسيتُ أنْ أُخبِرها بذلك.. تُقْلِعُ الحافلة من جديد، وتملؤ عجوز المقعد الذي بجانبــــي وأتــذكّرُ المزهرية! قال أنّ التوقف ممنوع.. الكل التفت نحوي والنبتة بــين ذراعي.. تركتْها عن قصد أمْ نَسِيَتْها هيَ أيضا؟ هل يُمْكن لكلينــا أنْ ينسى نفس الشيء؟ أخبرتُها عنْ جمال نبتة العنكبــوت.. هــل يُمكنها أنْ تنسى ببساطة؟ هل يُمْكن أنْ تنساك يا حســين كمــا نسيَتْ النبتة؟ ستَذْكُرُني دائما بسببها.. هل يُمْكِن أنْ تذكُرَني كما أذكُرها؟ أنا أهذي وأسْرِفُ منَ التَّخَيّل.. لمْ يَقُلْ الطبيب أنّ هــذا من آثار المرض.. لابّد أنْ أُخبِرَه بذلك.. ههه ماذا؟! أُخْبِره عــنْ تخَيُّلاتي الجامِحة؟ ماذا سأقول؟ نسيتْ فتاة المزهريــة بــيْن يَــدي ولازلتُ انتظر ظُهورَها؟ لابّد أنّه سيُضيفُ إلى قائمــة التشــخيص مرضًا آخر.. سيكون اسمه مثيرا.. شيزوفرينيا.. وُسْواس قهــري.. جُنُون العظمة.. لا.. أنا لستُ عظيما.. ما إن أتشبّث بحلم جميــل حتى يتحول إلى واقع أليم مُحَتَّم. الواقع أقوى منَ الحُلْم دائمــا، وأنتَ تحْلُم بامرأة على ذوقك؟ كيف لك يا حسين؟ الحظ لا يــأتي مرتين متتاليتين.. فقدتُ الأولى وفقدت الثانية.. امرأة فريــدة في مكان فريد لا يُمكن أنْ تتكرر. لو أنّ الزمن يرجِعُ للوراء.. لــو أحصل على فرصة ثانية.. لو فقط أراها من بعيد.. حتى زائــرة في حُلْم عابر..."

-4-

اِستيقظ الشابُ منْ نومه وعيْناهُ شِبْه مُغلقتين، تنْحرفُ قُبّعتــه الصوفية فوق رأسه ليظهر صدْغه الأيمن وجزءٌ منْ فروة رأسه العارية بعد أنْ تساقط عنْها الشَعْر. ظلّ مُستلقيا رَدْحا منَ الزمن لا يتحــرك في سريره، يتثاءبُ تارةً ويُمدّد ذراعيه إلى جانبيه ليُحــرك عضــلاته المُتشنجة تارة أخرى. لمْ يستطع النوم ليلة أمس بهدوء، لمْ يتمكن من السيطرة على أعصابه بسبب الضجيج الذي ملأ الغرفة، أمضى ليلتــه مُصْغيا إلى أنين الرجل الذي يُقاسمه الغرفة. مظهره الرخو وتقــاطيع وجهه الذابلة أوْحت بأنّه أمْضى ليلةً بيضاء تتخللها بعضُ الغفــوات القصيرة التي سُرعان ما تنقطِعُ بصُراخ هذا الرجل، اســترق نظــرة قصيرة إلى رفيقه الجديد فألفاهُ مُسْتيقظا بدورِه يُحــدّق بهــدوء إلى السقف. كان يهذي بأشياء غريبة أثناء نومه، كلماتٌ مُتقطعة تخرجَ من لاوعيه مُتشنجة ومُخيفة، مثل برق خاطف يُضيء ليلة شــديدةَ السوّاد ثم يختفي ليُرسل صوتا أكثر رُعبا. كُل ما سمِعهُ منَ الرّجُــل لمْ يكُن منطقيا، غير أنه كان يقْصِدُ أشخاصًا بعَيْنِهم.. أشخاصًا قد لعبوا دورا مُهِمًّا في حياته.. قد يكون الألم أثّرَ على أحلامِه، وقد يكــونُ الحُلْم حقيقة تتكرر، تَذَكّر أنّه رآه يتملْمَلُ في سريره مُناديــا باســم (فلّة)، ثم لا يفْتأ يُرَدِّدُ اسما آخر وبإلْحاح أكْبَر.. سعديّة.. ســعديّة.. سعديّة... ويليها بصرخة مكتومة لا تتعدى حنجرته المشدودة بقــوة الحلم. راقبَهُ بفضولٍ وقلق عندما شاهد حركاته العنيفة التي تكون قد

حرّكَتْ الجُرح وتسبّبت في ألم كبير. تزحزح الشابُ مـــنْ مكانـــه لِيُسَوِّي جلسته على السرير، مُتعامِلا بحذر مع ذراعه اليســـرى الـــتي انغرزت داخلها إبرة موصولة بكيس مَصْل..

- صباحُ الخير أخي.. هل زال الألم قليلا؟

ارتدى الشاب قناعا خفيا زيّنَهُ بابتسامة قصيرة، هي كل ما سمح به مزاجه في ذلك اليوم.

- قليلا.. أحتاجُ للإبر..

كاد الشاب يقهقه لسماعه كلمة جمع الإبر.. فهذه كلمة ظريفة يمكن أن تُقال في هذا المكان.

- يملكون إبرا كثيرة يا صديقي، ولكنهم سيَمُدّونك بواحدة فقط وذلك بعد قُدوم الطبيب.

- طلع النهار ولم يأتِ أحد، والألم يزداد..

لوى حسين رأسه فوق الوِسادة وكأنّه يُريد الهـــرب مـــن الألم بطريقة ما.

- تجّلد صديقي، أؤكِدُ لك أنّهم سيَضَعون لك حُقنة داخـــل المصْل بعد قليل.

أبعد الشابُ الغِطاءِ عنه ثم وقـــف علـــى قدميـــه النحيفـــتين والطويلتين كساقي زرافة نافقة، مُتّكِئا على القضيب الذي تَدلّى منـــه القسطر.

- ما اسمكُ أخي؟

- حسيـــ.. ضاع الحرف الأخير بين تأوّهاته.

- ماذا؟

أرْفَقَ سُؤاله هذا برَفْع حاجِبهُ الأيْمَن إلى الأعلى.

- حسين..
- أنا ماسينيسا، إذا احْتجت أنْ أُساعدك علـــى التحـــرك في مكانك فلا تتردّد.

حرّك حسين رأسه نحو مُحَدِّثِه ليتفحّصَه ويرى إنْ كان يلائـــم اسم ماسينيا هذا الجسد.. الشيء الوحيد الذي انتبه له هو ضُـــمور جسمه وُبروز وَجْنتيه بشكل واضح، ونَدبة ترْتسِم على خده لتَقْطع جانبَ ذقْنه إلى نصفين. حرّك عيْنيه في ذلك الوجه الضامر وتلاقـــت نظرته الملتهبة بالألم مع نظرة ماسينيسا الضاحكة، فارتخت قبضة الألم قليلا وهو يُحاول تذّكُر شخص ما من خلال ملامح هذا الشاب.

- نعم، أوّدُ أنْ أرْفعَ رأسي قليلا.

مرَّرَ حسين لسانه حوْل شفتيه الجافّتيْن، وضاقت عيْناهُ حينَ قام ماسينيسا برفع نصف جسمه العُلوي، وذلك بتعديل نســـبة مَـــيَلان السرير نحو الأعلى.

- شكرا لك..
- لا داعي للشكر، وإذا احتجت لشيء آخر فأنا هنا. أُجيـــدُ الغِناء أيضا، يُمكنني أنْ أُسْمِعك إحدى الأغاني إذا كنـــت تريد ذلك هِهِه.. لا عليك اسْترح قليلا، ســـيأتي الطبيـــب لُمعاينتك وادْفع فِكرة الألم منْ رأسك.. هل أنت مُوافـــق؟ لأنّ ذلك سَيُساعدك على التحمّل.

هزّ حسين رأسه بالإيجاب، وراقب ماسينيســـا مُتّجهـــا نحـــو المرحاض حاملا معه كيْس المصْل في يده اليُسْرى، وقد لاحظ ضُعْف جسمه وخفة حركته. خَمّن أنّ الساعة تشير إلى الثامنـــة والنصـــف صباحا، فقد كانت الحركة تدُبّ خارج الغرفة وتزداد شيئا فشيئا مع

مُرور الدقائق، و لمْ يمْضِ وقت طويل حتى مرّت عاملة المطبخ بعربتها الفولاذية وقد جاء الدوْر على الغرفة -69-. تقــدمّت إلى الـــداخل بمئزر قذر تلُفُّه حوْل خصْرِها المُتهّدِل والمليء بالدهون. جالت بنظرِها تبحث عن شخص ما. وتردّدت لحظة قبل أنْ تُغادر الغرفة مُتجاهلــة حسين:

- أين الآخر؟

وكأنّها تقول لقد مررت من هنا و لم أجد أحدا، انتهى عملـــي في هذا المكان.. وقبل أنْ تلتفت لتستأنف عملها بين الغرف الأخرى تناهى إلى سَمعِها صوتٌ حادٌّ وواضح، انطلق من داخل المرحـــاض، وكان واضحا ومسموعا ومفهوما كذلك، بحيث لنْ تُخطِئــه أُذن. احْمَرَّ وجْهُها خجلا ثم ما لَبِثَ أنْ أصبْح قُرْمُزيا، و لمْ تكَد تقِفُ على رجليها حتى اهتزّت الأرْض تحتها بأصوات أكثر حِدّة. وقف شَــعْرُ رأسها منْ فرط الدهشة، ثم ما لبثت أنْ انحرفت ملامِحُهـــا بشـــكل خطير، تعرّج خط فمها كخط مقياس ضربات القلب مُتناسقا مـــع حاجبيها الكثيفين. اجتاح حسين دفقة من ألمٍ حاد وهـــو يُحـــاول الضحك، كبح رغبته تلك بمشقّة كبيرة. ليس الصَّوت من تســبّب بذلك، وإنّما مظهرُ هذه السيّدة التي تقفُ أمامه وهي تنتفخ كالمنطاد محاولة أنْ تتحكم في الأمور من خلال تلوُّنات وجههـــا الغلـــيظ. لم يسْتطع هذه المرّة كبْح نفسه عنَ الضحك والذي كلّفه غاليا عنـــدما سمع الصوت للمرّة الثانية، لم يَسَعْه إلا لينْفَجِر ضاحكا رغم تدفقات الألم على مستوى صدره. رَمَتهُ المرأة الغاضبة بنظرة مُرعبـــة تـــوهم لفترة أنّ ذلك البخار الساخن لم يكن مصدره الإبريقان، وإنما كـــان يصعد من رأسها الساخن بالغضب.

"مرّت مدّة طويلة لم أذق شيئا. ألا يسمح الطبيب بـــذلك؟ أرغب في موْزة.. سأمضغها جيدا فيتغير شكلها إلى عجينة، ثم تمـــرّ عبر البلعم إلى المعدة لتشهد تحولا كيمياويا هاما، ومن هناك يتحدّد مصير كل شيء، ما لقيصر لقيصر وما يذهب هباءً يُنثر سمادا. إنّها تشهد الآن على عملية هامّة.. كلّ الطعام الذي بذلت فيه جهـــدا ليكون جاهزا هاهو يُصبِح هباءً.. هباءً وريحا.. يا لها مـــن عمليـــة مذهلة، أعطِني سمكة فأحوّلها إلى براز، أعطِـــني برتقـــالا وعنبـــا وسأضمن لك نفس النتيجة. ضعي مائدة أمامي وسأحوّلها إلى سماد بشري.. مئزرها قذر وتبدو متحفزة للانقضاض عليّ بتلك النظرة المرعبة، وخاصة أنها تُشّمِرُ عن يديها. يا لتلك اليـــديْن القـــوّيتين! يُمكنُها أنْ تسحق ماسي بضربة واحدة.. أنا لا أحتاج إلى الحليب، يُمكنها أنْ تنصرف.. لماذا تقف هكذا؟! منطاد، بـــالون هـــواء.. حذارِ من القنابل.. هناك خلفك.. ســـتنفجر قنبلـــة وراء بـــاب المرحاض حذارِ.. تحركي هيا...

خرج ماسي من المرحاض وعلى وجهه آي الراحة، ولأوّل مرّة فهِم لماذا يُدْعى بيتُ الراحة وليس التواليت. كان يُعاني من إســـهال حاد وقد تمكّن في الأخير من تجاوز أزمته. اعتقد حسين أنّه شـــخصٌ آخر عندما وقف بقامته المتوسطة وجسمه النّحيل مُمَـــدّدا عظامـــه كقط كسول، وكأنّه هو الذي تحوّل إلى شيء آخر وليس ما بداخله، أغلق الباب بضربة من كاحله وحكّ بطنه ليتأكد منْ أنّ هباءه قـــد ذهب أدراج الرياح، وأنّه قد نثر جيدا داخل الأنابيب. نطق وجهُـــه الأبيض بالرِضا رغمَ ضُموره. التفت نحو المرأة الواقفـــة علـــى بُعـــد خطوات قليلة منه، وقد اكتست نظرته بالدفئ والصّرامة حينما رآها

تُحدِّقُ إليه بذلك الوُجوم، ولكن نظرها تحوّلت إلى هباء أمام نظرتـــه المحترقة، فنَدبة وجهه الغائرة، وفكُّه الذي لا يزال مُحافظا على قُوّته رغم ضعفه جعله يبدو كرجل عصابات مُتحفز.

- قهوة بالحليب أم قهوة فقط؟
- قهوة فقط.

اتّجهتْ نحو عربتها وملأت قدحا ثم وضعته فوق المنضدة بجانب سريره.

- شكرا لك.

لم ترُد على شكره واتجهتْ نحو الخـــارج مصـــحوبة بصـــوت عجلات عربتها الفولاذية.

مشى بتُؤدة نحو الصنبور، تأمّل مظهَرُه في المرآة لمدّة بَدَتْ طويلـــة، واضعا يدَهُ على وجهه وكأنّه يبحث عن شيء ضائع، بدا ساهما وهـــو يطرق رأسه نحوَ البالوعة بصمت، غسل يديه بالصـــابون ووجهـــه، ثم تمضمض بالماء ليتخلص من حموضة فمه، شمّ ملابسه ثم ابطيْه وانكمش أنفه للنتيجة. رفع البُلُوفر الذي يرتديه إلى صدره فبان ظهره مُنَقَّطا بعـــدّة شامات داكنة، بللّ يديه ومسح إبْطيه، فرأى حسين في تلـــك اللحظـــة رسما غريبا تحت مستوى إبطه الأيسر؛ كان عبارة عن وشـــم لجملـــتين بأحرف لاتينية تنساب بسلاسة على جنبه. ضيّقَ حسين عينيه وركّـــز على الوشم، واستطاع قراءة الجملتين قبل أن يُعيد ارتداء البلوفر:

I AM THE MASTER OF MY FATE

I AM THE CAPTAIN OF MY SOUL

كانت الخطوط منكمشة بسبب تقلّص جلده بعد فقدانه لعـــدة كيلوغرامات، لم يعد جسمه كما كان، لم يعُد قويا، لم يعُد يشعر أنّه

موجود بكامله، شيءٌ ما فُقِد منه، شيءٌ ما غادره ولن يعود أبدا، إنْ كان هناك ما ينتظره في المستقبل فليس هو الشــفاء مــن المــرض بالتأكيد.. **أليس هذا ما ذكره الطبيب؟ وماذا عليّ أن أنتظــر إذا؟ لم يُخبرني الطبيب ماذا عليّ أنْ أفعل ولن يجترئ على ذلك أبــدا.. إنّه كمَنْ ينْعى شخصا يوشك على الموت. الحياة انتظار للمستقبل، الحياة أملٌ نعيش فيها الحاضر على ضوء المستقبل، آملين أن يكون أفضل.. ولكنه لن يكون كذلك أبدا بالنسبة لنا، متى نتعلم ذلك؟ متى نتعلم أنّ الموت والفناء والحساب والعقاب دائمــا مقــرون بالمستقبل؟ كل ذلك يحدث في المستقبل.. أنا أُفَضِلُ الماضــي لأنّ الماضي شوقٌ، الماضي حنين للأيّام الجميلة، الماضي نَدِينُ له بكلّ ما تعلمناه، وهو الملجأ للذكريات والخيارات، في الماضي نغــوصُ في الذكريات ونرجِعُ إلى اللحظات المشرقة من الحياة.. يُمكــنني أنْ أتذكّر شبابــي، أُشاكس أصحابــي، أُسْعِدُ عائلتي، الطفولة، أيّام الثانوية، فتيات الحي، كل هذه الأشياء والأغاني الرائعة التي كنــا نسمعها من الكاسيت، كل ذلك موجود في الماضي، أما الحاضــر فلا خيارَ لي فيه غير عيشه كما هو بدون نكهة ولا أمل، مُــذْعِنا ومُستسلما لهذا المستقبل الذي لا يَدَ لي فيه غير التنبؤ بما سيحدث، أمّا بالنسبة لي فالأمور حُسمت، الكريّات البيضاء نفقت وتوشك على الاندثار.. أليس هذا ما أكّده لك الطبيب؟ ألم يَقُل أنّك بحاجة إلى الدم وأنّ جسمك ما عاد يُنْتِج الكريّات البيضاء، ألم تسمع ما قاله؟ كمية الصفائح الدموية في دمك أصبحت قليلة. ألا يعني هذا أنك أصبحت عاطلا عن الحياة وأنّك لم تعُد صــالحا للاســتمرار؟ جسمك منْ يقول هذا، أمّا الطبيبُ فيُصادِق عليه فقط. كلُّ مــنْ**

حولي يعلمون ذلك، ولكنّهم يتظاهرون بالعكس، أليس من حقّي أنْ أُعامَل بدون رياء ومن دون شفقة؟ أمّي تبحثُ عن المتبرعين بالدم، ويا لها من مهمة! AB– حتى هذه الزمرة لا يمكن إيجادها بسهولة.. يا لحظك!.. وسعاد؟ الله وحده يعلم ما الذي تقوم به الآن. أنا عالة عليهما، أصبحتُ عبئا ثقيلا لا يُحْتمل.. إلى متى سيستمر كل هذا؟ إلى متى؟

عاد ماسينيسا إلى مكانه ليجلس على سريره، اِتّكأ على القضيب المعدني للحظات وفتح رئتيه لاستنشاق الهواء، وقد ارتعشت ركبتاه المُهدّدتان بالسُّقوط في أية لحظة. نزع إبرة المصل من ذراعه واستبدل البلوفر الرمادي بآخر أسود ذي ياقة على شكل حرف**V**، ثم أعاد الإبرة إلى مكانها بعناية. انحسرت قبعته الصوفية عن ناصية جرداء خالية من الشعر، عدّلَ قبّعته بعناية ثم ألقى نظرة سريعة نحو الباب، وكأنّه يخشى أن يشاهد ذلك شخص آخر. تناول قنّينة عصير لم تنفد بعد وأفرغ كل ما بقي منها ليملأ ثلاثة أرباع كأس، أخذ جرعة صغيرة ومَصْمَصها ثم انهال على البقية في رشفة واحدة، مسح فمه بظاهر يده، ثم سحب منْ تحت الوسادة هاتفا ذكيا مع السمّاعات، شغّل الموسيقى وكانت أغنية حسني تصدح في الغرفة رغم صغر حجم السماعات، وبجانبه على المنضدة وضع قدحًا مَليئًا بالقهوة التي خمَدَت حرارتها، هذا القدح سوف لن يفارق شفتيه حتى المساء، تلك عادة اكتسبها مع التدخين، ولكنّها أصبحت الآن تُذَكِّرُه أكثر بجلسات المقاهي عندما كان يَطْلُب منه أصدقاؤه أداء أغنية ما، وليُغنّي عليه أن يفرض شروطه، لم يكن ليطلبها بنفسه، ولكن نُدماءَهُ يعرفون ما يجب توفيره، وعادة ما يتكفّلون هم بهذه الشروط؛ يجْلِب

النادل قدحا ممتلئا بالقهوة المُركّزة والطازجة، ويتطوّع أحدهم ليُقدّم له علبة سجائر من نوع مالبورو، وقطعة قنّب هنـــدي إنْ كانـــت الأحوالُ حسنة، وفي أغلب الأوقات كانوا يتقاسمون عُلبـــة ســـجائر رخيصة، مع اشتراكهم في تدخين القنب الهندي. كل ذلك كان يتم على غفلة من صاحب المقهى، ولكنهم في المقابل كانو دائما أوفيـــاء للمقهى، فمن لديه موعد يضربه هناك، ومن جاءه ضيف يستضـــيفه هناك أيضا قبل أن يجُرَّه معه إلى البيت، ومنْ لديْه مشروع أو حبيبـــة ما سيكون من الأفضل الذهاب إلى المقهى؛ لأنّ الأصدقاء خـــزّان لا ينضب من الحلول.. أمّا ماسينيسا فكان مُحبًّا للحرية، لا يربطـــه أيّ عمل رسمي، مرة عامل ميكانيك، ومرة مُساعد بنّاء، وأحيانا عاطـــل عن العمل.. لم يكن ذلك خيارا مُتاحا له في الحقيقة، عاش مُشـــرّدا بين الأحياء، و لم ينعم بالسكينة في حياته أبدا، فبعـــد وفـــاة والـــده بسنتين طُرِد من المتوسطة، وقد بدأ حياة الشارع فعليا قبـــل ذلـــك بسنة، حاول أنْ يتعلّم مهنة الحلاقة ولكنه لم يستطع الصّـــبر علـــى الوقوف ساعات ليقُصَّ شَعْرَ أحدهم، قال للحلاق أنّه ســـيرْجع في اليوم التالي ولكنّه لم يرجع بعد ذلك أبدا. أطلـــق رجليـــه وجـــاب المقاهي والأحياء، وبدأت تربطه علاقة جيّدة مع الناس. بالمقابـــل لم يكن ثقيل الظل، و لم يكن ليُزعج أياً كان سِوَى بمُزاحِه المتواصـــل، جُرْأته في الكلام وقُدرته على تجاوز الحدود بين الأشخاص بســـهوله مكّنَتْه من أن يكون محبوبا من طرف الجميع، إذا طلبت منـــه شـــيئا وكان ذلك الشيء أعزّ ما لديه فسيُقدّمُه لك دون أن يفكر في الأمر مرتين، تسْبِقُه يده دائما، ولا يستطيع أنْ يُحافظ على أيّ مبلغ داخل جيبه أكثر منْ نصف يوم، إمّا بشراء أشياء ليست ذات فائدة مادية،

أو تجتاحه نَوْبات الكرم بين أصدقائه وخاصّة في المقاهي؛ فإذا اقترب النّادل سيكون هو صاحب الفضل، ولن يترك أحدا آخر يدفع المبلغ في مكانه ولو تسبّب ذلك في إفلاسه. كان المقهى دائما هو ملجـــأه الوحيد الذي يجد فيه راحة نفسية، بل يســـتطيع أنْ يَبُـــثّ هُمومـــه وخواطره هناك، يُراقب الشارع من خلال ضباب دخان الســـجائر، يبقى لساعات وحيدا في ركنه المفضل وعلى طاولتـــه المســـتديرة في ترقّب شيء جديد لتمضية هذا اليوم بدون ملل، مع غروب الشمس يَقِلُّ رُوَّاد المقهى، ويجتمع الأصحاب هناك كل يوم، يبـــدأ محمـــود بالنّقر على الطاولة بإيقاع يلائم صوت ماسينيسا، وينطلق هذا الأخير في الغناء مُنقادا تحت النظرات الآسرة والحالمة لأصحابه، فيزداد بذلك صوته عذوبة ورِقّة في مطلع أغنية قديمة من أغـــاني الـــرّاي.. يبـــدأ بالاستخبار، وعادة ما يُصْبِحُ جادًّا، حتى أنّ لمحة من الوقار تظهرُ على مُسْتمعيه وهو يُغنّي أغنيته المُفضلة للشاب حسني أو بوطيبة الصـــغير: "دو بياس كويزين وين نديرك ها الزين وين". وترتفعُ التهليلات مع نهاية مقطع الأغنية.. هكذا كان يجدُ راحته النفسية، كانـــت تلـــك ذروة سعادته القصوى أن تظهر طاقتـــه في شـــيء يُسْـــعد النـــاس ويذكّرهم كم تكون الحياة جميلة، كم تستحق أن نعيشها بكل مـــا فيها.. لولا الألم لما ظهرت موهبته في الغناء.

-5-

وراء الباب استطاع حسين أنْ يلمح حركة أشخاص، كـــانوا نساء ورجالا يرتدون مرايِيل خضراء وبيضاء، لم يُكلِّف أيٌّ منـــهم عناء الالتفات إلى داخل الغرفة ولوْ بدافع الفضول. عاد انتباهه مـــرة أخرى إلى داخل الغرفة، فرأى ماسينيسا غارقا في تأمّلاته، تتجـــاوب شفتاه بهدوء مع إيقاع الموسيقى. كان الألم قد بدأ يُسَـــيْطرُ علـــى أعصابه من جديد، وكان عزاؤه الوحيد أنّه لا يتألم وحده في تلـــك الغرفة.. كان ماسي بجانبه ينظر إليه هو الآخر:

– هل زال عنك الألم قليلا؟ قال ذلـــك بعـــد أن أمســـك السمّاعتين الصاحبتين بالغناء وأصابعه النحيفة ترتجف لقوة الصوت.

– لا، مازال كما هو.

– الساعة الآن هي الثامنة والنصف، المفروض أنّ هـــذا هـــو الوقت الذي يأتي فيه الطبيب لمعاينتك، وقد يتأخر قلـــيلا، هناك من يعمل في الليل، والأطبّاء يتناوبون كمـــا تعلـــم. سيأتي.. سيأتي الطبيب يا حسين، لا تقلـــق.. أنـــا أيضـــا مررتُ بنفس المرحلة، لقد تألّمت كثيرا لأنّ الجـــرح بعـــد العملية تعرّض للالتهاب بسبب ميكروب، هذا ما قالـــه لي صديق صادفته هنا في المستشفى، لم أذكره أبدا حتى جـــاء بنفسه عندما رآني راقدا في هذه الغرفـــة.. أوتعلـــم مـــاذا

أخبرني؟ إنّ الدنيا لغريبة الأطوار يا صديقي.. قال أنّي درستُ معه في نفس القسم، وكنتُ دائما ما أسرق له أدواته الخاصة، وأضع العِلكة في مقعده ليلتصق بسرواله.. كم كنّا نضحك في تلك الأيام.. المسكين احتفظ بكل ذلك في ذاكرته وأتى رغم ذلك ليقدّم لي المساعدة، منحني أكياس مصْل إضافية، وألحّ على زملائه أنْ ينظّفوا الجُرح بعناية.. وكم كان ذلك مؤلما.. آه.. لو لم أسرق له تلك المقلمة لبقيتُ أتلوّى من الألم.. قبل ذلك لم أنم لمدة ثلاثة أيام كاملة.. إذاً.. لم تقل لي.. ما سبب هذه العملية الجراحية؟

- ما هو سبب العملية الجراحية؟

همس لنفسه مُكشّرا عن أسنانه من الألم مُسْترجعا ما قاله الطبيب.. لكنه لم يستطع التركيز وفقد خيط التفكير ثم أجاب بآلية:

- استئصال للغدة.
- آه حسنا.. نعم ذلك من أجل التحاليل لمعرفة نوع المرض، أنا أيضا تعرّضت لنفس الشيء هنا في هذا المكان.

وأبعد قميصه وأشار إلى الجرح الغائر الذي خلّفته العملية. في تلك اللحظة أحسّ أنّه استرعى انتباه حسين، مما جعل هذا الأخير يُحَدِّق في الجرح بتمعّن وكأنه يقيسُ جرحه بجرح الآخر، ثم تابع حديثه:

- أنا انتظرت أسبوعين كاملين لتظهر النتائج.
- هل انتظرت كل هذه المدة هنا في المستشفى؟!

سأل حسين بقلق وتنامى انتباهه.

"نعم، انتظرت كل هذه المدة.. وأين تريدني أن أذهب؟ ليس لي مكان آخر لأستريح فيه، لن أجد الدفء والعناية كما في هذا المكان؛ أمّي وسعاد لن تقدرا على تحمّل كل هذا لا.. لا.. كفاية ما وضعتهما فيه؟ هل حقيقة ما أصبحنا عليه بعد كل تلك السنوات؟! أمّي مُنّظفة بيوت بأجر زهيد.. "الزهرة المنظِّفة".. هكذا يدعونها الآن.. الزهرة المُنظِّفة والدة ماسي.. الزهرة المُنظِّفة التي باعت كل ذهب صداقها ومعظم أثاثنا من أجل حفظ ماء وجه الأسرة من الضيّاع.. أنا هو ابن الزهرة المنظِّفة التي يضعون في يدها بضعة دنانير بعد تنظيف قاذوراتهم، ابن الزهرة المُنظِّفة التي تركها زوجها غارقة في الديون.. الزهرة التي تحمل العالم فوق ظهرها وتحاول أن تكون أُمّا حنونًا.. وها قد جاء وقتك يا ماسي، كل ذلك الشقاء وقد زدتها أنت شقاءً آخر.. كيف للزهرة أنْ تتصرّف الآن؟ عليها الآن أن تُنظِّف العالم من الأوساخ لكي تتمكن من شفائك.. أمّا سُعاد... لا أدري ما الذي تُخفيه عنّي.. لا أدري لماذا تغيّر سلوكها فجأة.. أبسبب ذلك الخطيب؟ إنّها في الواحدة والثلاثين، وستتجاوز عتبة الشباب قريبا.. لا.. لكنها أجمل منه وأروع، إنها مثلي تماما.. لم تكن إلا هشّة كأخيها، لم تستطع تحمّل صدقاته القليلة ومِنّاته الكثيرة، كان يظن أنّه سيتصرف كما يحلو له، أنّ أمواله ستُعطيه الحق والصواب في كل ما يفعل.. بعد أنْ أصْبحتُ أنا في المستشفى لم يَعُد الأمر يُحْتَمَل.. ظهر زيفه ونفاقه.. لا أعلم ماذا جرى بينهما.. أخفتا عنّي الحقيقة.. لكنّه غادر في الأخير.. غادر ولم يَعُد لها أحد غير أمّي.. المسكينة.. لم تكن إلا هشّة مثلي.. أنا السبب.. كل ذلك بسببك

يا ماسي.. بسببك وحدك.. وعلى من سيأتي الدور الآن؟ آمـــال؟ لا.. لا.. فآمال مُمرّضة، رغم كل ذلك يُمكنها مُســاعدتي وقــد فعلت ذلك من قبل، ولكنها لم تزرني إلا لتطمئن على صــحتي لا أكثر، زارتني كممرّضة عليها أن تنجز العمل الذي أنــيط بهــا. أصبحتُ في نظرها مجرد رقم آخر، مريض عليها الــتخلص منــه بأقصى سرعة. كيف أستريح وكل شيء حولي يتــداعى؟ كيــف أعيش وكل ما أؤمِنُ به يضْمّحِل؟ كيف يتغير الحــب إلى جفــاء والصدق إلى خداع؟ أوَلسْتُ خليقا بالمحبّة والصدق عِوَضَ الشفقة والازدراء؟ ما الذي فعلته لتتغير يا تُرى؟ ما الذي جعــل نظرهــا تتبدل بذلك الشكل؟ بدون بريق أمَل، بدون شوق وبدون سعادة وترقُّب، لم تَعُد تسعى إلا للتخلص من تأنيب الضــمير، ولم تعُــد تسأل إلا لتختصر الكلام وتنْصرف بأعذارها الواهيــة.. كيــف تنقلب إلى جاحدة بعد كل تلك الأيام والسنون؟! ألم تقُــلْ لــك حبيبــي؟ أولم تقُلْ لك أنّك شمْسُها التي تستنيرُ بها وهواؤها الذي تتنفس به؟ قالت أنّها لن تتركك أبدا ما دامت حية على وجه هذه الأرض.. ولكن عن أيِّ عهْدٍ أتكلّم؟ لا يحِقُ لي أنْ أُحِبَّ.. ولا أنْ أُحاسِب منْ أُحِبُّ.. أوتعلم لماذا؟ لأنّك لا تعِدُ إلا بالهلاك، إنّــك تُذَكِّرُها بالشقاء والموت، إنّك تضَعُ حدًّا لســعادتها باســتمرارها معك، إنّك لمْ تطردها قبل اليوم من الغرفة بدافع الغضب، وإنّمــا لتُحافِظ على صورتك في ذاكرتها، لتحْفظ شــيئا مــنْ كرامتــك وعِزّتِك.. أنت الذي أردت أنْ تُقيم في ذاكرتها وتسْكُن هنــاك، جسمك لنْ يحْتملك أكثر ممّا فعل، كل شيء فيك يتــداعى.. أولم تسْمَع ما قاله الطبيب؟ أولمْ تعــي حــتى الآن معــنى أنْ يحتضــر

الإنسان؟ اُتْرُك الفتاة لغيرك يا ماسي واسترح، فأنت لا تستحقّها، ولست جديرا بالحب والحنان.. الجمالُ للأقوياء فقط، الجمال من نصيب الأصحّاء وليس للضعفاء مثلكَ، أنت هالك لا محالة...

"ماذا ينتظرُ هؤلاء لزيارة هذا الرجل المسكين؟ لابدّ أنّه يُعاني.. قَسَمَاتُ وجهه توحي بذلك.. إنّه يبدو شخصا أرستُقراطيا لولا تواجده في هذا المستشفى، تُرى ما هي مهنته؟ لماذا هو قليل الكلام؟ لا.. لا تحْكُم على الأشخاص بسرعة، ربما لأنّه يتألّم الآن، ربما حالته النفسية لا تسمح له بذلك، ربما لا تعجبه طريقة كلامي.. لا.. لا.. أنا أيضا مررتُ بنفس المرحلة.. ولكن لماذا تأخّر الممرضون؟ هل اليوم هو يوم عطلة؟ هذا الرجلُ المسكين لابد أنّه يعاني.. سألني إنْ كنتُ قد أقمتُ كل هذه المدة في المستشفى خوفا من أن يكون له نفس المصير.. ولكن للأسف سوف لنْ يخرُجَ من هنا قبل ظهور النتيجة النهائية، ثم هناك أمر آخر.. نوع المرض.. إذا كان مثلي فسَيُعْزل في غرفةٍ لوحده كما فعلوا بي، مع تلقيه للعلاج الكيمياوي خلال تلك المدة، عندها سيسقط شعره ويفقدُ خُصُوبته أيضا.. إنّه يتقلب في وضعيته وكأنّ الألم وحْشٌ يسْكُن أحشاءه يوّدُ تمزيقها للخروج من ذلك الجسد البالي، ذلك النُّتوء في صدره وبشرته بلوْن القرنفل توحِيان بخُضُوعه لعملية جراحية خطيرة. آه لذلك الطبيب.. آه له.. حقير ومتعجرف لا يعرف الكلام، من يظن نفسه يا تُرى؟ لو غرز جسمي كله بمثل هذه الإبرة التي في ذراعي فلن يؤلمني ذلك بقدر ما تؤلمني نظرة استِعْلائه وطريقته في الكلام، وكأنّه يُخاطب عبدا من عبيده.. ماذا سيخسر لو تكلّم ببساطة وتواضع وأضاف إلى

كل ذلك بسمة خفيفة؟ لماذا لا يبتسم أبدا؟ لماذا هو هكذا بتلك التعابير المُزعجة؟ حتى سِكِّينُ جلّول لم يكُن مؤلما عندما أصاب ذراعي به.. ذلك النّذْل سأورِثُه ندبة على وجهه عندما أخرج من هنا.. خانني وباع كل ما كنتُ أملكه، ثم الآن بعد كل ما جرى.. بعد أنْ دخلتُ السجن بسببه ها هو يعود ويتكلم في غيابي وينعتُني بالضعيف أمام الناس، وخلف ظهري؟! بعدما كان يتمنى مرافقتي ككلب مطيع، ابنُ القحبة كيفَ سَمَحَ لِنَفسه بالتكلم خلف ظهري وأمام الناس؟ كيف يقول أنّ المرض هو جزائي في الحياة على ما فعلته له؟ كيف يقول أنّي سرقته وهو الذي أخذ مالي كله وخان الصداقة التي بيننا؟ إنّ الخيانة داءٌ مُتَأصّل في عائلته.. ها هي أخته تفعل بك المثل وأنت تتفرج.. الكل يضحك عليك يا ماسي.. الكل يسْخَر منك وأنت لا تُبالي أبدا.. ولنْ أبالي.. هل يكترث الميّت لكلام الأحياء؟ وهل ينفعُ كلامهم أو يضُرّ الأموات.. ذلك الطبيب أيضا أين هو الآن؟ لا يَودّ أحد أنْ يتكرّم عليّ بدواءٍ مُفيد، كل ما يُتقِنُ قوله هو استرح.. استرح.. استرح.. إلى متى سأظل أستريح؟ سأستريح من الحياة للأبد.. آه لقد كرِه تواجدك هنا، إنّه يُريدك ميّتا، يُريد التخلّص منك.. كيف تجرأ النّذل على رفع صوتِه أمامي على أنظار منْ تلك المُمرّضة اللئيمة صاحبة الردفين الثقيلين؟ وآمال؟ هي أيضا كانت معهم ولكنّها لم تضحك، بل رأيت تجّهُمَها بعيني هاتين، ولكنّها لمْ تُدافع عني، لم تقُل كلمة إزاء ما تعرّضتُ له. أين تكون الآن يا تُرى؟ أينَ هي؟ إنّني أموت وحيدا هنا، أكاد أختنق بهذا الجو العفن برائحة القيء والقيح...".

وضع أصابعِ يدِه اليمنى وشدّ بها على جبهته، ثم مسح وجهه وكأنّه يُريد مسح الألم منْ رأسِه كما يَمْسح طاولة من الغبار. شعر ماسينيسا بالدُّوار، انْحنى على الأرض، وبدون سابق إنذار تقيّأ على الأرض وقد أحسّ بالحموضة داخل فمه، ولكن ما الذي تقيّأه في كل الأحوال؟ تفاحة عشاء الأمس أم حموضة معدته مُمتزجة بالماء؟ احمرّت عيناه وطفح وجهه بالدم وهو يحاول التقيُّؤ للمرة الثانية، لم يعُد يقوى على مقاومة المرض، لم يعُد جسمه مُلكا له، إنّه يخرُج عن سيطرته تماما، وها هي الأرضية قد اتسّخت مجدّدا، وسوف يصْرخ رئيس القسم في وجهه مجدّدا.

"كم أصْبحتُ هشًّا.. كم سيتحمّلُني الناس أكثر من ذلك؟ كيف سيراني الآخرون وأنا تحت رحْمَتهم؟ كيف سأتصرف عندما تصرخ عاملة النظافة في وجهي؟ ما الذي يجب قوله؟ ماذا سأفعل الآن؟ عالمي يتداعى.. وهذا الرّجُلُ ينظرُ إليّ ولكنّه مختلف، حسين يبدو أسوأ منّي، أتمنى له الشفاء.. أتمنى له النجاة والخروج من هذا العالم الكئيب. أصبح جسمي هشًّا، وقد هزتني هذه الحركة بعُنْف حتى كِدتُ أسْقط من السرير.. معدتي فارغة تماما، وللأكل مذاق الرمل، أعاف كل شيء.. صرْتُ أعاف الحياة أيضا..".

في تلك اللحظة دخل الغرفة رجُلٌ في مريول أبْيَض يخطو نحو حسين، دافعا أمامه عربة ثقيلة بالمُعدات، ركنها بجانب السرير، وعندما شاهد ماسينيسا جاثما على جانب السرير وهو يبزُق على الأرض خرج من الغرفة، اختفى لمدة قصيرة ثم عاد ومعه المُنظِّفة، أقبلت المُنظِّفة متلهفة لمعرفة حجم العمل الذي ينتظرها في هذه الغرفة، وقد تغضن وجهها لدى مُشاهدتها لتلك البقعة بجانب سرير ماسينيسا:

- فعلتَها مرة أخرى إذن! لن أُنظِّف وراءك كل يوم هذه القذارة، تَحَكّم في نفسك أو اسْتَدْعِ أهلك لينظفوا عنك أوساخك.. ما هذا المزاح؟

ثم انْحَنَت على الدّلو وألقت منشفتها:

- هذا شيء مقزز..

وبدأت تنظّف الأرضية مُلقية بالمنشفة داخل الدلو:

- هذا عيب..

ثم تعصر المنشفة وتلقيها على الأرضية مرة أخرى:

- الكلُ في إضراب وأنا أمسح القيء في هذا المكان..

ألقت المنشفة في الدلو ومسحت وجهها بكُم مئزرها:

- تحكّم في نفسك يا أخي.. ألا تُشْفِق عليّ؟

- سامحيني، لمْ أقْصِد ذلك، ولمْ أشْعُر بالرغبة إلا في نفس اللحظة التي تقيّأت فيها.

- لا بأس أخي، المهم أنْ تُشْفى، أختك لا تصلح إلا لهذه الأشياء. صمتت قليلا ثم تحرّكت بجانب السرير بحثا عنْ بُقعة أخرى لم ترها:

- لقد تعبتُ يا أخي، الأطبّاء في إضراب اليوم، ولمْ يبقَ لكم إلا نحن. أشارت بذقنها نحو الممرّض الذي انحنى فوق حُسين، والذي أجابها دون أنْ يرفع وجهه عن المريض:

- نعم، هم في إضراب..

- بشير.. نادته لينتبه لما ستقوله لاحقا:

- هل سمعت بالأدوية التي سُرِقت قبل يومين؟ أحدهم يُسرّبها إلى خارج المُسْتشفى ليبيعها في السوق السوداء، كيْف لا

يحدث هذا والكلُّ يُعاني من أزمة مالية.. الأجرة لا تكفي لشراء حِذاء ومعطف نَتّقي به برد الشتاء.. أختي اشترت قبل أيّام معطفا عاديا بنصف مبلغ ما أتقاضاه في الشهر، العيشة أصبحت غالية...

عند ذِكْرِها كلمة سرقة التفت البشير نحوها وقد اتّسعت عيناه واختلج مِنْخراه، مُتفحِصّا بدقة تعابير وجْهِها لمعرفة مدى صِدْق ما تقول:

- ومنْ يَسْرق الأدوية يا تُرى؟
- أشُكُ في صاحب التسريحة البهلوانية.. ما اسمه يا ترى؟
- من؟
- توجد مطتان.. اسمه رضوان، ذلك الشاب الذي تخرّج حديثا، ألا تَرَى أنّه يرتدي ملابس تفوق ما نتقاضاهُ معا أنا وأنت؟ آخرَ مرّة سألته عن ساعته الفاستينا قال لي أنّه اشتراها بمليونيْ سنتيم، إنّه المبلغ الذي أتقاضاه.. هل هذا ممكن؟! كيف يُمْكِن لشاب حديث العهْد بالعمل أنْ يَضَع في يده مبْلغا كهذا؟! أنا المرأة ولا أضَعُ سِوارا بمثل تلك القيمة.. من المؤكد أنّه هو بدون شك..

لم يقُل البشير أيّ شيء حيال ذلك، وظل صامتا مُركّزا ظاهريا على المريض، وكان عقله يسْري مع مجرى حديث هذه المرأة..

- ما رأيك أنت؟ هل أنا مخطئة؟
- ربما، رضوان شاب صالح، لا أعتقد أنّه يفعل ذلك، فأنا أعرف والده جيدا.. هو من عائلة ميسورة وحاجته للعمل

ليستْ من أجل المال فقط، أظُنُّه يُريد افتِتــاح عيــادة في المستقبل، هكذا قال لي يوما.

وانْحَنى البشير فوق حسين يتفحّصُه بهدوء وصمت، وهو الذي اعتاد سماع أحاديث مُماثلة كلّ يــوم عــن الأطبّــاء والمُمرضــين، وبالخصوص كان شغوفا بحكايا المرضى وجلساتهم الحمِيميّة الــتي لا تخلو من الحقيقة والصدق، ولو سُئِل البشير عن رأيه حول المرضــى فإنّه سيُجيب بقوله: "**المرضى تُصْبِح طِباعُهم سيّئة كلّما زاد ألمهم، ومُهِمّة إرضائهم صعْبة، والشفقة ملاذُهم ليتملّصُوا منْ مسْؤُولياتهم وأفعالهم، ولكنّهم قصّاصُون بارعون بالمُقابل؛ لأنّهم حين يتكلمون لا يُخادِعونك، ولنْ يُهَادِنوك، ليس أمامهم من طريق آخر سِــوى أنْ ينغمسوا في الحكاية ليَتَنَاسوا الألم ويتذكرو طعْم الحياة التي ربّما فقدوها للأبد.**".

- يقولون أنّ مُدة الإضراب ستكون مُتواصلة ليَوْمَين، يُريدون رفْع أُجْرتهم ومزيدا منَ الامتيازات، ألا يكفيهم كــل مــا يمْلكون؟ يتخرّجُ الواحد منهم فإذا هو فرعــون جديــد، الأوامر والنهي والتكبر، ألا يُعَلِّمونهم التواضع في الجامعات؟ حسنا، أنا لا أقصدهم جميعا، يُمْكِن أنْ تجد طبيبــا طيّبــا، ولكنّهم في الأغلب يُصْبحون قُساة القلوب بعد سنوات من العمل.
- هذا لأنّهم اعْتادوا على الواقِع المر، عملهم لــيس ســهلا يا بختة، كل الضغط والمسؤولية مُلقاة على عاتِقِهم، الطبيبُ في أوروبا مُرتاح من الناحية المادية والمعنوية، لــذلك هــو يُقَدِّم كل ما لديه من أجل إنقاذ الإنسانية.

- هذا ليس صحيحا، لن أوافقك الرأي، هؤلاء الذين تتكلم عنْهم درسوا بشكل جيد وهمْ يسْتحقون أُجورهم على ما أعتقد، هل سمعت أنّ أحدًا منهم نَسِيَ مشرطًا في بطن مريض؟ هل تذْكُر مرة عندما أحرق طبيب العظام ذاك ربلة ساق أحدهم عوض أنْ يُجْري عملية على رُكبته؟ ألا تذْكُر أنّ الرّجُل لم يعُد يثني ركبته بعدها أبدا؟ وهل نسيت الوصْفة التي قتلت تلك السيّدة الحامل قبل أربعة أشهر؟ وماذا فعلوا للطبيب المسؤول؟ لا شيء.. هل ترى الآن؟ الإنسانية لا علاقة لها بالمال والراحة. يُمكن أن تكون إنسانا في أحلك الظروف.
- نعم.. نعم، أوافقك الرأي..

لم يقل ذلك إلا ليتمكن من التركيز في عمله، ولكنه كان يعلم في صميمه أنّ الحكم على الأمور أمر صعب، رأى بعينيه مرة مرضى يضربون طبيبا داخل مكتبه.. بل رأى عدة أطبّاء وخاصة منهم النساء من مازالت تبكي لأقل المواقف تأثيرا.. تلك الدموع يُخفيها الزمن ويُغَلّفها بطبقة من الصرامة والحدّة لتُصبح جفاءً وتختفي معها الإنسانية، ولكن ماذا عن إنسانية المرضى تجاه الأطباء؟ صحيح أنّ كل ما قالته حقيقي، بل وأكثر من ذلك. عَمِل في هذا المستشفى سبعًا وعشرين سنة، وقد تعلّم الكثير، وأصبح أكثر حذرا، فدائما ما يضع نفسه في موقف الحِياد عندما يتعلق الأمر بأحد العاملين، سواء أطباء كانوا أو ممرضين، وحتى عُمّالاً عاديين.

- هل تُحِسّ بالألم؟ نطقها بطريقة مُتَعجلة كأنّه لا ينتظر ردا.

– أتألم كثيرا منذ البارحة، هل ستعطيني مُسكّنا؟

ارتدى البشير قفازين شفافين وراح يُعِدُّ الإبرة وكيس المصل، أحْدثت صلصلة المعادن فوق طاولة العربة قشعريرة في بدن حسين، ودغدغه نُتُوء صدره، وبدأت يداه تبتلان بعرق بارد. ثم وضع سِوارا حول ذراعه، ونفخ في الآلة لينقطع تدفُّق الدم مُعَدِّلا الصمام، دون أنْ يحيد نظره عن جهاز قياس الضغط الدموي. انبعثت رائحة تبغ حادّة من ملابس البشير، والذي كان ينزع السوار في تلك اللحظة من ذراعه، ثم التقط من الطاولة قلما ذا أزرار والتفت نحوه مرة أخرى مبتسما، وقد ظهرت أسنانه مسطحة وصفراء، وكَزّ عليها بتلقائية وكأنّه يعض شيئا غير مرئي.

– نعم، سأعطيك مُسكّنا، سيزول الألم قريبا.

نظر إليه حسين بقلق وارتياب، وخاصة عندما لمح اللاقط وبعض الأدوات التي تُشْبه السكاكين، والتي لم يُشاهدها إلا في أفلام الرعب:

– أشعُر بالألم قليلا، كما أنني عـــ...

– أعلم.. أعلم.. هيّا، تشجّع يا صديقي.

لم يكَدْ يُتِم جملته حتى حشر ذلك القلم في فمه، ثم استدار نحو أدواته الحادة؛ جّهز الإبرة وملأها بسائل شفّاف، وقبل ذلك نزع القلم من فمه مُدَوِّنا على ورقة الفحص مجموعة من الملاحظات. نزع الغطاء وألقى نظرة سريعة على الضمادات، ثم فرْقع أصابعه ليُمَرّنها على الحركة، وقام بتغيير كيس المصل الفارغ بآخر ممتلئ، ثم أعَدَّ الإبرة وأفرغ مُحتواها داخل كيس المصل:

– عندما تُحِسُّ بالألم أخبرني، موافق؟ توقّف لحظة ليعرف

إحساس مريضه الذي بدأ يتعرّق.

- حسنا، مازلت أتألم..
- أعلم.. أعلم، سيأخذ الدواء وقتا لينشر مفعوله، فقط استرح وحاول أن تنام، لابد أنك مُتْعَب
- هل أنا أحتضر؟

توَقَّفت يدُ البشير الخبيرة في الهواء، واتسّعت عيناه وهما تُحدقان إلى حسين بذهول:

- لا، أنت الآن حيٌّ، وستعيش وتُعَمِّر في الأرض، ليس مِنَ الجيد أن تُقْلِق نفسك بهذا الشكل، الفحص لا يزال في بدايته، وأنت بين أيدينا الآن، عندما تظهر النتائج سيُعطيك الطبيب علاجا ملائما ليشفيك من حالتك، فقط تشجّع ولا تَعُدْ لمثل هذا التفكير، العلاج الذي تتلقاه هو محاولة لإنقاذك.. نحن هنا من أجلك.

ظهر اضطراب خفيّ في درجة ميلان حاجبه الأيسر إلى الأعلى، ولكنه برع في تهدئة حسين رغم سؤاله المفاجئ.

- أنا لست خائفا من المرض، ولكن من حقّي أن أعرف مصيري.. ضغط حسين على قبضته وكزّ على أسنانه بمزيج من الألم والحنق.

صمت البشير، كان في مظهره شيء مهيب وقد التمعت عيناه ببريق ضبابي:

- إذا رغبت في الحياة فستعيش بكل تأكيد، كل ما يمكنني قوله لك الآن هو أن تصبِر وتُقاوم هذه الأفكار السوداء التي تدور داخل رأسك.

وعَدِّل من سُرْعة تدفق المصل من خلال القسطر المربوط بكيس المصل، ثم أخيرا ابتعد مُرَجْرِجا عربته المخيفة وهو يغـــادر الغرفـــة. طريقته في المشي متعجلا جعلت من حسين يبتســـم ســـرا، لاحـــظ اِحْدِيداباً طفيفا في أعلى ظهره، وكان صوته هادئا يَبُـــث الثقـــة في مُسْتمِعيه، حقيقة لقد أحَسّ براحة نفسية وجسدية بعد هذه الجلسة. ترك البشير الغرفة وراءه وقد شاع سُرورٌ طفيف في جسد حســـين، كان مُمْتنا لهذا الرجل، وقد غمرته السكينة وراوده النوم فجأة، و لم يمضِ وقت طويل حتى أخذه الوسن وغفى...

-6-

"ها هو قادم الآن، هذا الشاب يتجه نحـــوي، ولكـــن أيـــن كيس الدم؟ ألم يعثروا لي على واحد؟ لابـــد أن الزهـــرة لم تجـــد متطوعا بعد. حسين نائم.. صوت شخيره يتعالى.. المسكين لقـــد تألّم بشدة.. سيحين دوري الآن؟ في نظرة هذا الشاب خُضـــوع وانقياد تظهرُ بصفةٍ خفية أمام ذلك الطبيب المُتعجـــرف عثمـــان، هو أيضا زائف مثله تماما. خُطواته قصـــيرة ومتســـارعة، وكأنّـــه يمشي فوق آلة للركض. آه.. رأسي يُؤلمني.. أرغَـــبُ في التقـــيء والدخول إلى المرحاض.. لماذا أنا متوتر هكذا؟ لماذا لا أدع القلـــق جانبا؟ فأمري محسوم من البداية.. عليّ أنْ أُواجه الأمـــور كمـــا هي.. هل آمال تعلم كل هذا وتتصرف وكأنّها لا تدري بما يحدث لي؟ بالتأكيد هي تعلم كل شيء وتتظاهر بالعكس.. لكن لماذا؟ هل حُبا فيك يا ماسي؟ لا.. لا.. أبدا، بل شفقة عليك.. إنهـــا ترثـــو لحالتك.. ألا ترى ذلك في عيْنيها؟ ألا ترى أنّها تبدو كمن ينظـــر إلى دودة مقززة تود التخلص من مشهدها بســـحقها أو ردمهـــا بالتراب؟!".

- هل مازلت تُحِسُ بالدوار؟ تحرّك فكّه إلى أعلـــى وأســـفل وبدا كدُمْية المريونات حين يتكلم، تظهرُ أسنانه الأماميـــة قصيرة ناصعة البياض.
- أنا متعب...

"هل أقول له ذلك؟ حسين نائم ولا أحد غيرنـــا في الغرفـــة.. ولكنه لا يبدو أهلا للثقة وسيهزأ مني لذلك، ابن القحبة سيسخر منيّ ويُخْبر كل زملائه بما سيحدث لي، ولكن لم أعُدْ أستطيع الـــتحكم في نفسي بعد الآن.. البارحة بدّلت بنطالين من أجل ذلك، والآن أُحِسُ أنّ جلدي متعفن... ستعلم آمال بذلك، وقريبا سيراني كل شـــخص في هذا المستشفى كطفل صغير.. لا.. لا.. عليّ أن أجرِّب.. ربما هي حالة طارئة فقط.. بطني تؤلمني ولا يمكن أنْ أتحكـــم في كـــل تلـــك الكدمات، إنّها تسري في جسدي كالنمل.. جســـمي يتـــداعى ولا يُمكن السيطرة عليه أكثر ممّا فعلت.. ماذا يقول هذا المتعجرف؟ كلنا متعبون؟ نعم.. نعم، ولكنك بكامل صحتك أيها البغل، ويمكنـــك أنْ تستريح لمجرد أن تضع رأسك على الوسادة، أما أنا فـــلا راحـــة لي.. لماذا يحمل هذا الأنبوب في يده؟ وضعه فوق المنضدة وها هـــو يقـــوم بتغيير كيس المصل.. عليهم أنْ يُضاعفوا لي الكمية، إنه يُبطئ حركـــة القسطر لكي لا أستهلك الكثير؟ الأوغاد يظنون أننا أغبياء وعـــديمو الإحساس، لقد فقدت الصحة ولكن لم أفقد الحياة بعد، يمكنـــك أن تفعل هذا بعد موتي وليس الآن يا ابن القحبة.. كلهم أبناء القحبـــة.. خريجو المواخير هؤلاء.. تبا لهم...".

نظر رضوان إلى ساعة معصمه ليُذكّره أن لا وقت لديـــه لمثـــل هذه المحادثات، ثم تناوب بصره بين الورقة ووجه ماسينيسا:

- العلاج الذي قدّمه لك الطبيب مفيد جدا، ولكن يجب أن تُكلّف أحدهم ليجلِب لك أكياس الدم.

تأرجح نظر رضوان بين ورقة الفحص ووجه ماسينسا الشـــاحب، وكأنّه رسّام يَودُّ أن تطابق لوحته الوجه الجامد الجالس أمامه. اســـتغرق

في قراءتها مدة قصيرة ليضعها في الأخير بإهمـــال في مكانهـــا، ودون أن يتكلم عن محتواها دار حول السرير انحنى فوق ماسينيسا ليقيس ضـــغط الدم بآلته ويقيس حرارته أيضا. فتح رضوان علبة دواء فضية اللـــون ثم شرع في إعداد حقنة، سحب من داخلها سائلا شـــفافا ونقـــر عليهـــا بسبابته لدفع الهواء خارج الأسطوانة، ثم أفرغها في كيس المصل.

- متى سأخرج من هذا المستشفى؟
- إذا أردت أن تخرج الآن فتفضّل، ولكن أنصحك بالبقاء. - أجاب رضوان ببراعة طبيب مُحَنّك ينتظره آلاف المرضـــى لإنقاذ حياتهم من الموت.

تذكّر ماسينيسا فجأة ما قاله له الطبيب بعـــد تعرضـــه للعمليـــة الجراحية وتحصلهم على نتائج الفحص، أتى الطبيب بهيئته الوقورة وهـــو شاب في السابعة والثلاثين من عمره، هادئ لا يـــتكلم إلا للضـــرورة، وقسمات وجهه المتصلبة تعطي انطباعا بأنّه خرج لتـــوه مـــن شـــجار دموي: **"أظهرت التحاليل أنّك مصاب بسرطان الخلايا اللمفاويـــة، ونُسَميه نحن الأطباء باللوكيميا، الداء الآن استفحل في كامل جسدك نظرا لإهمالك للأعراض -هزّ رأسه مُعَبِّرا عن أسفه ثم تابع- أنـــتم لا تقصدون الطبيب إلا عندما تتدهور صحتكم تماما، أين كنـــت مـــن قبل؟ ولماذا لم تزر الطبيب؟ هذا خطؤك لأنّك أهملت صحتك."**

- أليس من التهور أن تَتَعَجّل الخروج من المستشفى وأنت في هذه الحالة؟

ذكّره الممرض من جديد، هازا شعره المتراكم فوق رأسه كعش طائر نورس.

"أنا مُجّرد فأر تجارب، شيءٌ ما جعلني أفْقِدُ صـــحتي في هـــذا

المكان.. أُدرك ذلك جيّدا وهم أيضا، لقد كنت في كامل قوتي حين دخلت المستشفى، ولكن بعد العملية الجراحية لم أعُد كما كنـــت، وكأنّهم زرعوا بداخلي شيئا ما.. لا أدري ما هو ولكـــن.. قالهـــا النذل.. قالها بدون أنْ ينتبه لكلامه، دون أنْ يعرف أنّ ذلك سيُؤثر على حياتي كلها. آه كم يسهل على شخص أنْ يتحدث عن الموت والموتى، وكم يصْعب أنْ نواجه الموت ونحن أحياء. الإنسان جبـــان لأنه يستخف بالموت عند ابتعاده ويخشاه أشدّ ما يكون عند دنـــوه. "أنت مصاب بسرطان الخلايا اللمفاوية" هكذا قالها النذل.. بـــدون مقدمة.. بدون أنْ أسْتَعدّ لتقبُّل ذلك.. بدون مشاعر، وكأنّها كلمة عادية كالهواء في الجو، أو كقوس قزح في السماء. كم تَتَعَدّدُ أسمـــاء الموت على شكل مصطلحات طبية منمّقة، وكم تقِـــلّ مترادفـــات الحياة. آه لتعاسة حظي.. آه كم أنا متعب...".

- أُحسُ بالحكّ والألم في ظهـــري وفخـــذي كـــذلك، ولا أستطيع النوم في الليل بشكل مريح.

هزّ رضوان كيس المصل في يده وهـــو يســـتمع إلى شـــكوى ماسينيسا، ثم ضغط على الإبرة المغروسة في ذراعه ليُثبتها جيـــدا، ثم عراه ورأى ندبة بارزة على باطن فخذه الأيسر، وبقعـــة مثلـــها في الحجم على بطنه الآخذ في التآكل، وقد تصـــاعدت الكـــدمات إلى صدره، وبدأت في الظهور كدمة أخرى على مستوى رقبته. نكـــصّ خطوة إلى الوراء وهو يرى نُدَباً على شكل تشققات حمراء، مائلة إلى البني. حركة يده المتوترة التي وضعها على ذقنه مُفكرا، ثم صمْتُه الذي أعقبتْه وقفته الجامدة أوحت لماسينيسا أنّ الوضع معقـــد أكثـــر ممـــا يتخيّل، كانت تلك أعراض طفح ابيضاضي، وقد انتشـــر بســـرعة

مذهلة؛ بحيث لم يستطع هذا الممرض عديم الخبرة أنْ يُخفي ارتباكه ويتحكّم في أفكاره المهلهلة.

- حاوِلْ قدْر المُستطاع ألا تحُكّ الجرح لأنّك ستزيدُ الوضع سوءا، مناعتك ضعيفة، وعليك أنْ تُحافظ على نظافتك قدر المستطاع. لقد وضعنا لك الدواء المناسب وغدا سنقوم بتنظيفه لك.

رَتّبَ الأغراض بحكمة ثم وضع أنبوبا فارغا بيد ماسينيسا وأشار برأسه نحو المرحاض:

- أريدك أن تتبوّل في هذا الأنبوب.

أخذ ماسي وقتا ليفكر قبل أن يجيب.

- أفرغت كل شيء في المرحاض قبل نصف ساعة من الآن.

رمقه بنظرة استفهام ولكن الآخر كان ملحا وجادا في نفس الوقت:

- لا بأس، يمكنك أنْ تُحاول مرة أخرى، نحتاج إلى عينة لإجراء بعض الفحوصات.

حمل ماسينيسا الأنبوب مُذْعنا واتجه نحو المرحاض، أغلق على نفسه هناك لمدة، وفي تلك الأثناء دخلت فتاة في الثانية والعشرين من عمرها إلى الغرفة، كانت ترتدي مريولا أبيضَ وتبحث عن المريض الذي ترك فراشه للتو. اِفترّ ثغرها عن ابتسامة تحية عندما التقت نظراتها مع رضوان، وكان هذا الأخير قد غمز لها بطرف بعينه مشيرا إلى المرحاض، لم تفهم في البداية ما كان يعني، ولكنها ما لبثت أن فهمت الأمر، وذلك بسبب صوت غريب انبعث من هناك، سمعه من كان داخل الغرفة وخارجها أيضا. صدم الممرضان بحدة الصوت

والتفتا إلى بعضهما البعض في ذهول، وقبل أن تتحرّك الشابة وتعود أدراجها، باغتها ماسي وهو يخرج من المرحاض مُحْمرّ الوجه بعد أن عصر نفسه ليخرج بضع قطرات من بوله، تجمدت الفتاة واِرْبَدّ وجهها وهي تقابل فتى شاحبا أمامها وقد اغتصبت ابتسامة لتُواجِهَه بها في تلك اللحظة، وأمام ذهولها وارتباكها رفع الأنبوب الساخن وأشار إليه:

- ها هو طلبك صديقي، خذ...

كان يتكلم وشفتاه الجافتان تتحركان بحيوية، وعيناه ترقصان بسعادة كمن أنجز واجبا مدرسيا بكل مهارة.

- آمال.. أنت هنا؟ نظر إليها مُرتبكا وخفض يده بسرعة وعمل على إخفاء ما كان يحمله. كان رأسها ساخنا كالسائل الأصفر الذي داخل الأنبوب. استلم رضوان العينة عابسا ظاهريا وحاملا لنكتة سيمضي بها يومه كاملا. دغدغته اللقطة كريشة طاووس ناعمة تمُرّ على إبطيه بهدوء، حاول ألا يتذكر مظهر الفتاة وهي تتصلب عند سماعها للصوت البغيض. وبعد أنْ غادر الغرفة بقِيَتْ آمال مجمدة في مكانها لا تريم، تقف أمام ماسي وعيناها تتقلبان في المكان بحثا عن مخرج ما:

- كيف حالك ماسي؟

وضعت يديها داخل جيب مئزرها الأبيض وجذبتهما إلى الأمام، فضغط المئزر على ردفيها المملوءين، وظهرت خطوط خلفيتها الانسيابية والمستديرة بما فيها خطوط ملابسها الداخلية. كان جسمها على شكل حبة كمثري؛ فكتِفاها ضيقان، أمّا رقبتها الطويلة فبرزت

كوسط عمود الدوري لمعبد البارثينون، أما نهداها فكانـــا كقبضـــتي فلاح قويتين، ولكن أمْلسيْن بما فيه الكفاية لَمَنْ يُدّقِق النظر في عروق جيدِها المخْملي الملمس، وتلك الشامة فوق شفتيها الممتلئتين جعلتـــا منها كعلامة مميزة لجمالها البربري الخالي من مساحيق التجميل.

- بخير.. انتظرت قدومك هذا الصباح ولكنني لم أرك تُمـــرين من هنا..

لمْ يكن سؤالا بريئا.. إذْ فهمَت ذلك وهي ترى بريـــق عينيـــه الخاطف، وانعكاس صورتها في عينيه البنيتين. أبعدت نظرها عنـــهما وكأنّها تتحاشى السقوط في بئر عميق، وطافت بين تضاريس وجهه لتختفي بينها من نظراته الحارقة:

- كان لدي عمل هذا الصباح.

ابتلعت ريقها وحاولت فعل ذلك دون أن ينتبه لها:

- مدير القسم يراقب كل عامل بصرامة كبيرة، فقد سُـــرِقت كمية كبيرة من الأدوية ولجنة التحقيق الآن في طريقها إلينا، لذلك إنْ لم تريني في الأرجاء فلا تقلق..

التفتت إلى الباب لتستعيد أنفاسها متشاغلة بمراقبة المارين هناك، ثم عادت إلى وجه ماسي من جديد.

- وهل عرفتم من سرق هذه الأدوية؟

نصف إشراقة طفت على وجهه الشاحب، فبدا بمظهر صِـــبْياني يريد أنْ يكشف عن لعبة مخبأة داخل شيكولاتة كيندر ســـوربرايز. حَدَجَتْهُ آمال بنظرة من زاويتيْ عينيها السَّوْداويْن، وانتظرتْ جوابـــا عن سؤال خفي كان يدور بينهما في تلك اللحظة:

- لا أعلم تحديدا، ولكن الكارثة ليست سرقة الدواء..

عادت تلك النظرة إلى الظهور مرة أخرى لتحثه على الكلام:

- وما هي الكارثة إذا؟

حروف وجهه الدقيقة لم تتغير رغم الظروف المحيطة به، وكأنّه يرتدي قناعا من الشمع.

- سمِعْتُ أنك دخنْت لفائف تبغ في هذا المكان، متى حدث ذلك؟

- لا، لمْ أدَخِّن اللفائف، بل دخنّت القنّب، إنه مريح للأعصاب كما تعلمين.. كان يجب أنْ أفعل ذلك؟

- هل أنت مجنون يا ماسي؟ وتفعل هذا هنا؟!

- نعم، أنا مجنون لأنّي أقف أمامك منذ عشر دقائق و لم أضُمَّكِ إليّ بعد.

هنا وضعت يدها على فمها لتمنع الضحكة من الانفلات، واهتز رأسها جذلا حتى تدلّتْ خصلات شعرها البني الغزالي الداكن لتُغطي جانبا من صدْغها الأيمن:

- لا أمزح معك يا ماسي.. هيا تكلّم، هل صحيح ما سمعت؟

- إنهم يقولون أشياء عديدة في هذا المستشفى، يبدو أنني أنا من أسرق الأدوية أيضا.

برزت أسنانها مستوية كحبات سبحة بيضاء متراصة عكس محاولتها لاسترجاع صرامتها:

- اسمعْ، سأُغادر الآن، فأمامي عمل طويل في انتظاري، والآن حدثني عن صحّتك.. هل تحسّنت قليلا؟ لأنّك تبدو مُبْتهجا في هذا اليوم.

حرّكت خصلات شعرها بحركة لطيفة من يدها وثبّتتها خلــف أذنها عبثا، فجاءت الطريقة أروع من النتيجة.

– الحياة قصيرة، ولا أريد تضييع ما تبقــى منــها في الحــزن يا آمال.

عند هذه النقطة توقفت عن العبث بشعرها، وتجمّدت ملامحهــا غير قادرة على تحريك لسانها. كان ماسينيسا أعْجَفا، وعادت الشفقة لتكتسح شعورها بدل الحب. **"أنتَ مريض جدا وسوف تمــوت"**. قالت ذلك بدون كلام، وقال هو: **"أنتِ حــرّة مــن الآن.. ولا تقلقي لموتي"** بدون كلام، واستطاع التحدث معها بمعرفة وأسى لأنّه يعرف.

"كل تلك السنوات التي قضيْتُها في بيت عائلتها، كنّا عائلــة واحدة.. ما الذي حدث؟ وما الذي تغير هكذا؟ اعتبرني والــدها كفرد من العائلة.. مَسدَ على شعري في يوم العيد مبتسما، وكنت أنا أجلس هناك أمامها على الطاولة، أستعدُّ مع أسرتها للغداء. كم مرَّ من الوقت يا ترى؟ عشــر ســنوات؟ لا أدري بالضــبط.. لا أدري.. ربما أكثر، ولكنه مات وتفرّقت الأسرة.. الحَقُّ أنّ والدتها امرأة قوية ومخلصة، ولكنها لم تُصبِح كذلك بعد وفاة زوجهــا.. لم تُصبح كذلك وتغيّرت الأمور بسرعة.. لا أدري بالضــبط.. مــا الذي حدث؟ وما الذي تغَيّر هكذا؟ ها هي تطلب منّي أنْ أتمــدَّد على السرير.. حسنا، ها أنا أتمدّد كما تطلبين، والآن يُمكنــك أنْ تنصرفي كما تشائين، لن أوقفك بعد الآن.. يُمْكــنُني سماعــك.. يُمكنني معرفة ما يدور داخل رأسك: "ها هو تمّدد أخيرا، وأرجــو أنْ لا يستيقظ أبدا لأكمل حياتي بهدوء". أو هي تقول: "ســوف

يُنّغِص عليّ حياتي إنْ بقيت هنا، يجب أن أُبَدِّل إلى جناح العظام أو الأطفال، هناك لن أشاهد هذا الوجه أبدا، ولــن تُخْجلــني أمُّــه بزياراهّا المتكررة وأسئلتها عن الأطبّاء عديمي الجدوى". ها هــي تغادر.. يا لتلك المشية الرائعة! لها قوام رشــيق، تحمِــلُ ردفــين مُقوّسين ومشدودين.. كم مرّة وضعْتَ يدك هنــاك يــا ماســي؟ واحد.. يوم اختليت بها في غرفتي بعد خروج سعاد مــن البيــت هناك، ثانيا.. في ليلة صيفية فوق سقف منزل جدّها أين يتقاســم الجيران نفس السطح، وكانت عندها ترتدي شيئا حريريّ الملمس، وكان شعرُها مسْدولا على كتفيْها.. لقد قالت الكلمة.. نعم لقد قالتها في تلك الليلة.. حدّثتْني عن شعورها ثم وضعت رأسها فوق كتفي وبكت بعدها.. لا أُصَدّق أنّ تلك الكلمة قد خرجت مــن ذلك الفم الذي كان يُحَدِّثُني قبل دقائق مــن الآن! لقــد قالــت أحبّك. ثالثا.. يوم اصطحبتها إلى شقة صديقي في ظهيرة يوم ربيعي وكنا نتعرى ونتبادل القبل. ذلك الخاتم الذي لم تعُدْ تضعه في يدها بعد الآن.. أهديتُه لها بعد أن كلّفتني عمل ثلاثــة أيــام ومــازال المجوهراتي لحد الآن يسأل عن المبلغ المتبقي.. بماذا سأرد الــديون التي على عاتقي وأمّي تقترضُ كل يوم مبلغا لشــراء الــدواء أو الانفاق على دلو مثقوب مثلي؟ ديونٌ على ديــون.. ولكــن إلى متى؟.. المسكينة عليها أن تعمل منظّفة براتب وزير. هل أمي هــي السبب؟ أكيد.. رفضت تلطيخ سُمعتها بعد أن أصبحت ممرّضــة، لا تريد الارتباط بابن عاملة النظافة، ربما تطمح لأنْ تتزوج طبيبــا ما.. سعاد لن تتزوج بعد الآن.. لا.. لا.. ليس من ذلك النــذل الذي ظنّ نفسه هامان، ولا أنا أيضا.. لا يحّقُ لي أنْ أُضَيِّعَ حيــاة

فتاة أخرى.. لن تتحمّل أيّ امـــرأة مظهـــري الجديـــد.. بهـــذه الكدمات.. عليّ أن أفكر في الأموات وكيف سأقضي حياتي معهم هناك بينهم، وبأيّ لغة عليّ أن أتحدث لأن أجدادي لم يتحدثو كما أتحدث الآن، هل يقعُ الحب بين الأموات؟ ألن أشعُرَ بالضجر حتى يأتي يوم القيامة؟ آه.. لابّد أنّ الأوّلين بدؤوا يُحِسُّـــون بالضـــجر الآن؛ لأنّ الساعة قد طال زمنها كثيرا. أنا محظوظ لأني من آخـــر الزمن.. ولكن ما أدراني بذلك.. ربّما لا يزال الوقـــت مبكـــرا.. ربّما سأنتظر مئات آلاف السنين وأتحوّل إلى مواد عضـــوية، ثم إلى تراب لتتمرغ بداخلي حشرة حقيرة، أو أتحوّل إلى ملاط تُسَدّ بـــه ثغرة على حائط ما.. وما أدراني أنّ قيصر روما أو طارق بن زيـــاد على هذا الحائط يُحَدِّقان فيّ.. كم هذا فظيع! هـــذا ظلـــم؛ لأنّ الأوّلين انتظروا طويلا، قُمْ باحتساب الوقت الضائع الذي ننتظـــر فيه الحساب، سيُصبح الأمر دهرا بأكمله.. إذن أُفضّل النـــوم، لا أريد أيّ علاقة مع الأموات، أريد أن أنام بدون أحلام حتى يـــأتي ملك الموت ليوقظني من النوم ويقول: هيا يا ماسي استيقظ، حان دورك. ولكن من المفروض أن أرى مقعدي هناك. يُجيبني هو: عن أي مقعد تتحدث؟ أقوله له: مقعدي في الجنة. فتبْرُز لـــه أنيـــاب حادة، وتشِعُّ عيناه بضوءٍ أحمر لامع، ويُزمْجِر في وجهي: هههـــه. لماذا يضحك؟ لا أدري.. ههههه.. يا إلهي، عقلي يتيه وأكادُ أُجَـــنّ في هذا المكان.. ألْم يأتِ أحدٌ بعد؟ أُحِسُ بالغثيان ولابّد أنْ أخـــبر أمّي عن الأمر، يجب أن تكون لوحدها لأستطيع إخبارها.. مـــاذا سيقولُ الناس بعد رؤيتها تفعل ذلك لك؟ ستجلب لي ملابس تحتية وأقمصة لتغطي هذه الكدمات اللعينة.. مؤخّرتي تقرصني بشـــدة..

لابّد أنّ تلك الكدمة قد ازدادت بشاعة.. يا للعار.. عليّ أنْ أرقد بلا أحلام، أريدُ أنْ أرقد الآن، فأنا بحاجة إلى الراحة.. إنّ الحياة التي تنتظرُني بعد الموت أشدُّ رعْبا، ولكنني على الأقل سأستريح من هذا العناء.. معاناة واحدة خيرٌ من معانتين، لقد انتهيت، أنا من الأحياء ولا حاجة لي بهم ولا هم بحاجة إليّ. أين هي الزهرة يا ترى وماذا تفعل الآن؟ ألم تقل أنّ لا حاجة لك بالأحياء؟ ولماذا تنتظر الزهرة إذن؟.. قالت أنّها ستقْصدُ صديقا قديما لوالدنا وهو من سيُساعِدُنا على حل كل المشاكل المالية، أمّا سعاد فلابدّ أنّها هي من تتكفلُ بالبحث عن مُتبرّع، أحتاجُ للدم، أخوها مصّاص دماء، جسدي يقول ذلك ولست أنا، الطبيب كذلك: "لم يعد جسمك يُنْتج الكريّات البيضاء والصّفائح الدموية بما فيه الكفاية". أليس هذا ما قاله الطبيب بالضبط؟

ماذا تنتظر هاتان المرأتان لتأتيا إلى هنا؟ الساعة الآن الحادية عشر والنصف.. اقترب موعد الزيارات.. وستأتي أمّي مع سعاد.. لن أُخبرها بذلك أمام سعاد.. لا.. لا.. لابّد أنّها ستعرف حتما.. كما عرفت ما يدور بيني وبين آمال، تلك العلاقة التي استمرت لسنوات وها هي الآن تنظرُ إليها بحقد. لم يكن الحال هكذا من قبل، ليست أمّي من تَنْكر جميل الناس.. أعرِفُها كما أعرف مرضي.. يومها قامت والدها زبيدة بجمع مبلغ من المال يكفي لمصروف أربعة أشهر عند التقْتير. استلمته أمّي بدموع الامتنان والعرفان شاكرة من أعماق قلبها كل البشر على سطح هذه الأرض. على الرغم من أنّها ترمّلت إلا أنّه كان لها دخل ثابت من عملها كمحاسبة. يوم وفاة والد آمال بان خدّا زبيدة غائرين أكثر

من اللازم وهي تمسَحُ دموع عينيها.. كنت أقودها إلى المشفى مع ابنها جلّول وآمال في سيارة صديق لي. رأسه مقطـوع وجسـمه مثقوب بالرصاص.. لم أستطع أن أمنع عيني من النظر إلى الجثـة.. كان هو يرقد هناك وآمال بجانبـي.. الإرهاب أعمـى وعـديم الرحمة، قال الدركي أنّه كان يقود حافلة تقل ركابا عائدين مـن رحلة اصطياف على شاطئ البحر.. حيث السماء زرقاء وطيـور النورس تنشر أجنحتها في الأرجاء.. نساء ورجال بوجوه سـاهمة يشْكون للبحر ماذا فعل بهم الرّياء ويسْمعون هـديره الصـاخب الذي يقول: ششبلغغغ.. اذهبوا إلى الجحيم.. ششببللغغغ.. إلى الجحيم...".

"من هؤلاء؟ الزوار يدخلون الغـرف الآن.. آه.. علـيّ أنْ أضع هذه الوسادة ورائي لأُسَوِّي وضعيتي جيدا.. أخيرا ها هـي تقفُ هناك في الرواق ولكنّها تتحدث مع شخص آخر، من يكون؟ عليّ أنْ أنحني لأعرف من تخاطب.. لا أسـتطيع رؤيتـها ولكـنّ الصوت يبدو مألوفا.. أليست آمال؟ تبدو آمـال ولكـن مـاذا تتحدثان وعن أي شيء؟ يجب أنْ لا تقول لها شيئا عنّي، على أمي أن لا تخبرها أنّها قصدت صديق والدنا هذا الصـباح لتقتـرض مالا.. هيا بسرعة لا تُكثري الكلام.. تعالي واتركيها، إنها فرصـة ملائمة، لا أحد في الغرفة بعد، وحسين لا يزال نائما.. المسـكين لابد أنّه عاني الكثير.. أتمنى أن لا يكون مثلي، أنا لسـت جيـدا عندما أمرض.. آه ها هي الآن قادمة نحوي.. قادمة وتبدو هادئـة عكس عينيها المُحْمرّتين وأنفها.. لا.. لا يُمْكن أن يحدث ذلـك.. الأنف يشي بكل شيء.. عند بكائك يَحْمرُّ أنفك أولا ثم تسْـري

دموعك وأنْفك يبقى مُحمرًّا. كنتِ تبكين يا أمّي.. كنتِ تبكين.. وأنا أعلم ذلك.. وأنتِ تعلمين أنّي أعلم ذلك.. ولكن ما الـــذي أبكاكِ ومنْ الذي جعلك تبكين؟ هل تلك الزيارة هـــي الســـبب؟ كيف سأعرف إنْ لم أسألها؟ هل أسألُها الآن؟.. ولكن.. لا.. لا.. لاتُضَيِّع الوقت، يجب أنْ تقول فورا ما تحتاج إليه، فلم يبق وقـــت كثير وسيأتي آخرون إلى الغرفة.. ولكنك ستبدو أنانيـــا بـــذلك.. سأكون أنانيا إنْ تركتُ رائحة العفن تفوح في المكان.. مـــؤخرتي تقرصني بشدة.. أنفها يحتمل البكاء ولكن لن يحتمل تلك الرائحة القوية.. سأقول.. سأقول...".

- أريدك أن...

"ولكن من هذان الشخصان؟ تبًّا، لقـــد راحـــت الفرصـــة لأُخبرها بذلك، لن أنزع ملابسي أمام أي شخص آخر.. لن أسمح لأحد أن يرى ما آل إليه ماسي.. لقد قُضي الأمـــر. يـــا لحظـــك السيء يا ماسي! كل شيء يقفُ ضدك.. الكل يرفض أن تعـــيش بسلام...".

قطع حديثه في تلك اللحظة دخول شخصين إلى داخل الغرفـــة اتجها نحو سرير حسين الذي كان لا يزال نائما. امرأة في الخامســـة والثلاثين بيضاء البشرة، ترتدي جاكتة سوداء، وتستر شعرها بخمار سلموني يبرز لون عينيها البنيتين، ويسْبقها رجلٌ ملتحٍ في الخمســـين، بدا بجانبها وكأنّه حوذي يفرِشُ لها بِساطا أحمرَ ليُمّهد لها الطريـــق. كان الرّجُلُ يرتدي ثيابا ثقيلة وغير متناسقة، تسْترْسِلُ لحيته الطويلـــة على غير هدى، تسلّلت إليها بضع شعيرات بيض، وقد أكسبه طوله الفارع ودقة ملامحه صفة الوقار.

وقفت آمال خارج الغرفة تُحدِّق من خلال النافذة إلى حديقة المستشفى وقد سقط نظرها على حمامة بيضاء، تنقر الأرض بثبات وحركة سريعة دون أن تكترث بالمارّين حولها، هذه الحمامة لا تُفكّر إلا بملءِ بطنها، ولا يَهُمُّها العالم من حولها، شاهدتها تقفز من مكان إلى آخر متجنّبة المارين من هناك، **"كم هي سعيدة هذه الطيور"**. قالت آمال مفكرة: **"يمكنها أن تطير في أيّ وقت شاءت، وأن تُحلّق في أعالي السماء"**. رفعت رأسها نحو الأفُق المُزَيَّن بالأشجار وبعض العمارات الكولونيالية، ثم بحثت عن علامة ما في الزرقة الصافية للسماء. **"يُمكنها التحليق بحرية في كل مكان وبأي اتجاه، حيث لا يتواجد البشر ولا يُنَغِّص صفوها أحد، هناك حيث يختفي كل سر للحياة، هناك حيث يُمكنها أنْ تشاهد العالم كله يتحرك وكأنّه أصغر من جناحيْها"**. التقطت نفسا عميقا وبدأت تتنهدُ بعُمْق وثِقُلَ صدرها، وأمامها مباشرة ابتل المشهد كلّه بالدموع ولم تعُد ترى سوى طيفا لحمامة ترتفع نحو السماء. **"ما الذي آلت إليه حياتي؟ إنني أتظاهر بما ليس فيّ، دائما ما أحاول أن أكون قاسية.. ولكن إلى متى؟ ألست أقسو على نفسي؟ أنا مُعلّقة بين السماء والأرض، ولا أدري إن كنتُ حمامة في صفحة السماء أو دودة تنساب في أديم التراب.. إنّه شيء آخر.. شيء لا أستطيع معرفته، وأتمنى لو أتخلّصُ منه نهائيا وأنزعه من رأسي.. لقد رأيت أمّه وقالت أنّها تفعل المستحيل لمساعدته.. ولكنني أعرف أنّها لن تستطيع.. وهي تعرف أنّي أعرف أنّها لن تستطيع.. هل أصبحْتُ مُنافقة إلى هذه الدرجة لأقول لها بأنّه يُمْكن أنْ يُشفى؟ رأيتُ دموعها وهي تتكلم عن الله وملائكته، ولكن هل هي تدري أنّ الله**

قد حكم على ابنها بالموت؟ ما الذي يحدث لي؟ ما الذي أصابني؟ لماذا لا أنفضُ كل شيء من دماغي وأعيش بهدوء؟ ولكنّي لا أستطيع.. لن أستطيع ذلك أبدا.. هل هو من جعلني أشعر بكل هذا الألم أم أنني أعاني من مرض أكثر خطورة؟ لا.. لا.. لا أستطيع أن أنزعه من تفكيري مهما فعلت ومهما حاولت أنْ أُصدِّق ذلك، لقد رأيته بعيني هاتين.. كم صار نحيفا وكم تغيّر وجهه، لم أعد أعرفه.. من يكون؟ ماسي ذهب ولن يعود. أمّا عيناه.. يا إلهي.. كم تغيّر.. أمّا عيناه فتبدوان كبلورتيْ زجاج حُشِرَتا قسرا داخل رأسه. هذا الفتى الذي أشقاني، يُقْبِل على الموت دون أن يعلم ما الذي فعلتُه له، كيف سأواجهه.. سأكون جبانة وسأظل كذلك للأبد.. سيمُوت هو ولن يعلم بذلك.. لم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك.. وما الذي يُمكن لامرأة مثلي أن تفعله؟ لا.. لا يا آمال، فهذا ليس وقت التفكير في مثل هذه الأمور.. دعنا من الماضي والآن سينتهى كل شيء.. عليّ أن أعتاد على الأمر وأتقبّل الواقع بكل ما فيه وأعيشه كما هو، عليّ أن أواصل حياتي كجميع البشر، عليّ أن أتمتّع بحقي كامرأة كاملة الوجود، ألستِ ترَيْن أنّكِ مازلتِ مثيرة وتحظيْن بالجمال كما لم تحظَ أيّةُ امرأة في هذا المستشفى؟ إنّك الأجمل والأتعس، إنّك السماء والأرض.. هل سأنتظر شخصا يُقبل على الموت ليُهدر حياتي ثم يغادر هو بهدوء ويترُكَني للزمن يفعل بي ما يشاء؟ ها هي الحمامة تترك الأرض لتطير.. إنها ترتفع وتختفي.. وأنا أيضا سأفعل.. سأفعل...".

-7-

قبل اثني عشر عاما بالضبط لم يكن حسين ليتخيـــل أنّ حياتـــه ستنقلب رأسا على عقب، لم يكُنْ يدري أنّ الـــزمن يخبّـــئ أوجاعـــا ستَحْفِرُ لها خدودا داخل أعماقه. أحيانا نعـــيش في ســـعادة وســـلام مطمئنّين لِما حولنا، مُمْتنّين للأيّام التي مضت ومُتَحمّســـين للقـــادم، ولكن القادم لم يجلب معه إلا الفجائع، القادم كان نهاية بداية جميلـــة، المستقبل الذي انتظره حسين بشوق ورغبة ملؤها الحياة والأمل انطفـــأ فجأة، انطفأ كنار داهمها الطوفان، تبخَّرتْ أحلامه، حُلمه بأنْ يـــرى فلّة تكبر في حضنه لتصير امرأة، حُلمه بأنْ يُنجب مع زوجتـــه أبنـــاء آخرين ويكون أبا صالحا، حلمه بأن يكتشف الحياة بعُمْق، وأنْ يشيخ مع زوجته مُحاطا برعاية أبنائه وأحفاده إن عاش طويلا... كل هـــذا تبّخر في تلك اللحظة التي لا تُنسى أبدا، تلك الثواني القليلة التي كانت منعطفا حاسما في تغيير مجرى حياته للأبد.. لم يستغرق ذلك إلا ثـــوان فقط ولكنها كانت أطول ثوان مرّت بحياته، مازال يتذكّر كـــل مـــا حدث بالتفصيل، النسيان صديق الإنسان وهو عزاؤه الوحيد في هـــذه الحياة، لولا النسيان لما استطاع الإنسان أن يطيق هذه الحياة القاســـية، أن تتذكّر كل ما تسبب في دمارك فذلك أقسى عقاب يُمكن لـــذاكرة الإنسان أنْ تحْمله، النسيان عدو الضمير، فبدون ذاكرة لن يكون هناك شعور بالذنب، لن يشعر الإنسان بالذنب على شيء نســـيه تمامـــا. لم ينسَ أبدا كيف حدث الأمر، وكيف ينسى آخر نظرة خصّته بهـــا في

آخر لحظة من حياتها؟ كيف ينسى آخر ابتسامة لها قبل أن يُـــدركها الموت؟ كيف ينسى كل ما منحته له من سعادة وحنان؟ إنها المرأة التي استحملت أخطاءه وتغاضت عن هفواته، ألم يُخطئ؟ أنسِـــيَ تلــك الأيّام؟ ألم يُعاقر الخمر؟ ألم يصرخ في وجهها بعـــد يـــوم شـــاق؟ ألم تشاهده يدخل إلى البيت سكرانا من الحزن والشراب؟ أنسي أنّه بكى في حضنها تلك المرة وهو ثمل؟ ولكن ماذا قال؟: "لا تستحقين إنسانا مثلي، أنت تستحقين الأفضل.. لا أستطيع أن أجد ما أسُدُّ به رمقنـــا، لقد أفلستُ و لم يعد أحد يريد توظيفي، ماذا تفعلـــين بـــــي؟ لمـــاذا تنتظرينني دائما؟ لماذا لا تتخلين عن إنسان فشل في كل شيء؟". وماذا قالت هي؟ وماذا يُمكن لذلك الملاك أنْ يقول؟ تُســـامحه في الأخـــير وتُظْهِر له ابتسامة لم تُظهِرها له الحياة. كانت هي الحياة، كانت هـــي الأمل والملاذ.. فأين هي الآن؟ وماذا تفعل هناك في العالم الآخر؟ أهي سعيدة أم شقية؟ لا.. لا يُمكن لحسين أن ينتزعها من رأســـه أبـــدا.. لذلك مازال يتألم، ولكن إلى متى سيستمر هذا الحال؟ إلى متى سيزول الألم من صدره؟ لماذا يدّعي بأنّه نسي وهو ما زال يذكُر آخر نظـــرة رمقته بها زوجته على هذه الأرض؟ ندم على كل ما فات عندما بـــدأ يتذكّر، استيقظ ضميره فجأة وتذكّر ذلك اليوم، نعم.. كان يُخفـــي جانبا شريرا في ذاته، كان شقيا وتسبب في شقاء كل مـــن حولـــه، ولكنّها غادرت كالصفحة البيضاء، غادرته وهـــو ملـــيء بالشـــعور بالذنب، غادرته دون أنْ تعطيه فرصة ليعوّضها عن كل ما فات...

مسح عينيه بكفّه وضغط عليهما برفق، ساد الظلام لحظة ولكـــن صورة أخرى بدأت تتشكل أمام عينيه.. ظهر فجأة مشهد آخـــر مـــن حياته السابقة؛ حيث رأى نفسه راجعا من البيت في منتصف الليل، دقّ

على الباب بهدوء وكانت رجلاه تختلجان من شدة السُّكْر، مرّ عليه يوم شاق و لم يعُد يحتمل الظهور كعاطل عن العمل في النـــهار، لـــذلك لاذ بالمقاهي والحانات. عندما فتحت سعدية باب الشقة وجـــدت قميصـــه ممزّقا والدماء تسيل من منخرية وفمه.. توَّرط زوجها في شجار عنيـــف بعد أن سبّ الشخص الخطأ، وكان هذا الأخير مع شلّة من الأصـــدقاء، وها هو الآن يتداعى أمامها كحطام سفينة بعد عاصفة هوْجاء. وضعت يدها على فمها وكتمت شهقة لدى رؤيته على تلك الهيئة:

- ما الذي حدث لك؟ أخبرني..
- لا شيء، سقطت من السلم.. أين فلة ابنتي؟
- فلة نائمة.. هيا أخبرني، ما الذي أصابك؟
- قلت لك سقطت، ألا تفهمين؟

كان صوته حادا وانبعثت رائحة الويسكي من فمه عندما فتحه ليتكلم.

- لا ترفع صوتك، ستوقظها.
- أريد رؤية ابنتي أين هي؟
- لن تتجرأ على ذلك يا حسين.. لن تفعل ذلك.

وقفت أمامه مُتحملة رائحة الكحول المُنبعثة من فمـــه لتســـدّ الطريق إلى غرفة ابنتهما.

- هل تمنعينني من رؤية ابنتي؟ هيا ابتعدي يا امرأة...
- لا.. ابتعد...

فقدت توازنها عندما دفعها بجسده الطويـــل، ســـقطت علـــى الأرض بقوة وأمسكت ظهرها مُتَأوّهة، عضّت على شفتيها مُصـــغية إلى صوت ابنتهما الحائر:

- ماما.. ماما.. ما الذي يحدث لك؟

أتى الصوت رقيقا ودافئا من آخر الرواق، كانت لا تزال في غرفتها، وقد سمع حسين وقع خطوات قصيرة تقترب منه بتؤدة.

تجمّد حسين في مكانه، وبقي في منتصف الطريق مُعَلّقا بين ابنته وزوجته الساقطة على الأرض، لم يكن ليُصّدق أنّه سيُؤذي زوجته في يوم من الأيام، وقد ذُهِل للأمر وعاد إليه الانتباه لّما أحسّ بوخزات طفيفة على فخذيه.. كانت تلك لكمات فلة وهي تبكي لما شاهدته.. كانت تضرب والدها لأنّه يقف مكتوف اليدين أمام سقوط والدهما، وتتشبث به في نفس الوقت غير قادرة على استيعاب ما يحدُث أمامها، ثم تركت حسين واقفا كالصّنم فاغر الفم، لايدري أيتحدث ويتصرّف أم يصمت ويُشاهد، ثم هرولت بخطواتها الصغيرة جدا نحو والدهما، انخرطت في نشيج حار وهي تُطوّق أمّها بغريزتها وتنظر إلى والدها الذي لا يزال جامدا في مكانه...

مضت تلك الليلة العاصفة بسرعة، لم ينم خلالها أيُّ فرد من العائلة، وفي الصباح عندما تخطّى غرفة النوم نحو الحمام ليغتسل، وجد حقائب زوجته محزومة ومكوّمة في طرف الغرفة، توقّف لحظة مترددا قبل أنْ يدْلف إلى الداخل، وقد أحسّ بركبتيه تخذلانه، وبخدر يسْري في جسده يمنعه من الإفصاح عن ما يرغب في قوله:

- أوّدُ أن أقول لك شيئا..

كانت صامتة تجلس على حافة السرير توّضِب أغراضها بهدوء.

- أريد أن أعتذر عن البارحة..

كانت لا تزال صامتة.

- لقد طُرِدْت من العمل قبل يومين و لم أكن أريد إخبارك..

احْتَفَظَتْ بالهدوء وقد زاد ذاك من ارتباكه.

- لم أسْتطع تحمّل ذلك فسكرت لأنسى، لم يعُد معي ما أقف به على رجلي، ولم يعد لدي ما يكفي من المال لنأكل، لم أعد أتحمّل كل هذا، أنت تدرين ما أُحِس به..

تحرّكت يداها وضغطتا على بعضهما البعض بقوة حتى ابْيضّت مفاصلهما.

- أرجو أنْ تفهمي موقفي هذا.. ضعي نفسك مكاني، لا أريد تبرير ما فعلته معك البارحة، ولكن على الأقل لتسامحيني ومن أجل بداية جديدة أيضا.. أرجو أن تغفري لي، وأن تساعديني لأتغيّر، أريد ذلك وبشدة ولكن لا أعلم كيف، أريد أن أكون نفسي ولكنّي تائه، لا أستطيع أن أضمن لكما عيشة حسنة، ولكن يمكن أنْ أكون زوجا رائعا لك وأبا حنونا لها، فقط لا أدري كيف، لو كنت أعلم.. فقط، لا أدري إن كنت سيئا حقا، أو يُمْكن إصلاحي، أنا مذنب وأعترف لك، كل ما عانيته طوال هذه السنوات كان بسببي، لكن لم يمر يوم دون أن أفكر فيك وفي ابنتي، أنتما كل ما تبقّى لي. أتمنى الموت على أن أُضَيِّعكما.. أتمنى الموت على أن أفقد أعزّ ما لدي.. لا أريدكما أن تغادراني الآن.. فلن تطول حياتي بعدكما.. لن أستطيع الاستمرار لوحدي.. كيف أنام؟ كيف أحيا؟ كيف أتحمّل نفسي إن لم يتحمّلني أحدٌ في العالم؟

هنا صمت حسين وقد ارتفع صدره وانخفض من شدة انفعاله، وتكوّرت قبضتا يديه وكأنّه يريد أن يُخْرِج الكلمات من فمه بالقوة.

- أنتَ جبان.. هل تعلم لماذا؟ لأنّك لم تُكافح مـــن أجـــل أسرتك لتحميها من الضياع والحزن، أناني وسريع الغضب بسبب معاقرتك للخمر وارتيادك لتلك الملاهي القذرة، غير مبالٍ بمن يُحبونك ويُحيطون بك.. أنت بائس لأنّـــك لا تُبادلهم نفس الشعور، حوّلت حياتنا إلى جحيم ولازلـــت تخوض في المشاكل.. ألا ترى حولك؟ ألم تـــرَ نفســـك في المرآة كيف أصبحت تبدو؟

ارتفع صدرها وانخفض بتسارع، ضغطت على قبضتها الملســـاء وصرّت أسنانها قبل أن تستطرد الكلام:

- هل تعلم ما جعلني أحتملك كل هذه السنوات؟ إنّها ابنتنا يا حسين، لولاها لما احتملتُ هذه العيشة الضنكاء.. ورغم كل ذلك مازلت أعتقِدُ أنّني لا أكرهك. إذا أردت أن تتغير فيُمكنك أنْ تتغير، ولكن الأشياء التي بداخلك لـــن تـــتغير أبدا، فقط عليك أن تكون أبا مُناسبا لها، وحاول الـــتحكّم في أعصابك، وعليك أنْ تجد عملا يضـــمن لنـــا العـــيْش بكرامة، لأنّني لن أتساهل معك في هذا الأمـــر.. لـــديك زوجة تُحبك وابنة فخورة بأبيها، تنتظر أن يعود كل يـــوم وفي يده قفّة مليئة.. أردْت أنْ تُصبْح كاتبا فها هي النتيجة، أنت مُفلس الآن وبدون نقود، من سيتكفل بالأسرة الآن؟ مقالاتك عن السياسة والفلسفة؟

أطْرَق حسين نظره نحو الأرض مفكرا عندما أتت على ذكـــر مقالاته، فقد وضعت يدها على أهّم ما يملـــك في حياتـــه.. أراد أنْ يقول لها أنّه لن يستطيع فعل ذلك ولكن موجة الانفعالات جعلتـــه

يقبل الوضع باستسلام ظاهري:

- سأتغير نحو الأحسن، أعدك.. هذا وعد..

وضعت سعدية فنجانيْ القهوة على طاولة المطبخ وجلست بين أحضانه ثم لفّته بذراعها. كان الأوان عصرا والجو دافئًا في الخارج، هبّت ريحٌ خفيفة جلبت معها تيارات هوائية منعشة، كانت نافذة المطبخ مفتوحة على الهواء، تسرّب من خلالها آخر شعاع للشمس في تلك الدقيقة، وانكب على الأرضية الغرانيتية راسما شكل النافذة بشكل منحرف.. وسط ذلك الدفء لفّ جسمها اللدِن بذراعيه الطويلين، وطبع قبلة على شفتيها، ثم همس لها في أذنها بكلمات أضْحكتها. اقتربتْ شفتاها القرمزيتان من أذنه فتدلى شعرها الكستنائي، وغطى على وجهه منظر الأواني المعلّقة والمتدليّة فوق المجلى:

- هي نائمة، والآن قد حان وقت الطفل المشاغب ليذهب إلى الفراش.

غرس أصابعه داخل شعرها الكستنائي وكانت تضعُ رأسها فوق كتفه، وعندما سألها رفعت وجهها نحوه وبقيت تنظر إليه بهَيَام تفْصِل بينهما بضع مليمترات، سمحت لتدفقات أنفاسهما الدافئة بالتمازج:

- فيمَ تفكرين حبيبتي؟

- اشتقت إلى والدي وبيتنا القديم، أخواتي الثلاث اتصلن بي هذا الصباح وقلن لي أنهن سيلتقين هناك غدا.. هل يمكنك أن...

أطبقت شفته على شفتيها في قبلة طويلة قبل أن تُتِمّ جملتها.

- أكيد حبيبتي، غدا لدي عمل عليّ أن أنهيه في الصباح.. إذا سنُقلع في المساء.

جلست فلة في المقعد الخلفي تُعانق دميتها الميكي ماوس الـــتي أهداها لها حسين في عيد مولدها قبل شهر ونصف، وكانت الريّـــاح المنبعثة من النافذة تحرّك شعرها الخفيف والحريري مُنزلقا فوق وجهها الطفولي. جلست سعدية بجانب مقعد السائق تضع حزام الأمان الذي فرّق بين نهديها النافرين، وجعلهما يبرزان بشكل طفيف من تحـــت ملابسها الصيفية، أما حجابها الوردي فزاد من عُمق بشرتها التي بلون الخوخ. كان شهر جويلية ساخنا ولكن تدفّقات الهواء القويـــة الـــتي تشكلت من سرعة السيارة أنعشت حسين. صدح المذياع في الجـــو وانطلقت أغنية للشاب حسني "قاع النساء اللي فوق أرض ربـــي.. ما يجونيش كاللي بغاها قلبـــي.. قاع النســـاء اللـــي فـــوق أرض ربـــي...". كان الطريق إلى وهران مُتعرّجا وملتويا والســـماء تُحـــدّ الجبال من فوق، كانت صافية تتخللها بعض السُّحب المتفرقة. نظـــر حسين من خلال مرآة الخلف ولمح فلة الصغيرة تغطّ في نوم عميـــق دون أنْ تدع الميكي ماوس من يديها. انتهز فرصة نومها وحرّك يده من فوق مُغيّر السرعة إلى فخذيْ ســـعدية، الـــتي ابتســـمت برقّـــة وضغطت على يديه بكفها الناعم.

انزلق الطريق من تحت السيارة بســـرعة، وكانـــت الخطـــوط الفاصلة بين جهتيْ الطريق تتصل لتشكّل خطا لانهائيا يلتقي مع خطي الطريق في نقطة واحدة. ضغطت سعاد على يده بقوة. تملّى النظر في ابتسامتها الهادئة وعينيها الذابلتين وكأنّهما تحلمان بشيء عجيب، ثم التفت حسين إلى الطريق و لم يكَدْ يسْترد يده حتى كان الوقت قـــد تأخر.. آخر ما شاهده كان سيّارة شحن مجنونة تنطلق نحوه بســـرعة رهيبة، انحرفت سيارته عن مسارها ليتجنب الاصطدام ولكن الأوان

قد فات.. داس بكل ما أوتي من قوة على المكابح.. وفي أقل من ثانية ارتج كل شيء فجأة، وانقلب العالم من حوله مُظلما.. لم يعُد بإمكانه أن يرى أو يسمع شيئا، كلّ شيء أصبح هادئا وساكنا مثل سكون الأزل.

-8-

كانت نوال تقف بقامتها الرشيقة بجانب السرير عندما فتح حسين عينيه ببطء، وقد رفت أجفانه عدة مرات قبل أن يُلقي نظرة على ما حوله ليتأكد من أنّ الحلم لم ينزلق به إلى الواقع: **"هل أتيْت يا نوال؟ هل حقيقة رجعت من كندا بعد كل ذلك الغياب؟ إنّها تنظر إليّ بتمعن الآن وكأنها لم تتعرّف عليّ بعْد.. أنتِ مُحقّة.. صحيح أنّ المرض هدّني بالكامل ولم أعُدْ كما كنتُ من قبل. تبدو متوترة وهي تنقل ثقلها من رِجْلٍ إلى أخرى متفرسة في ملامحي بهذه الطريقة.. هل حقيقة أبدو لها غريبا إلى هذا الحد؟ هل أسألُها عن رأيها؟ لا.. لا.. فهي بالتأكيد لن تُجيبك بصراحة.. إنّها أختي في كل الأحوال وستقول لي "أنت بخير حسين، تبدو أحسن مما توقّعت".. نعم.. ستقولين ذلك، ولكن ماذا كنت تتوّقع؟ هل أبدو غريبا إلى هذا الحد؟ أمّا هي فما زالت كما هي، لم تتغيّر، وكأنّ الزمن عندها توقف، نفس الأنف الدقيق والمتناسق، لابد أنّها ورثته من أمي.. وذلك الفم الصغير يُعبِّر عن استياء ما.. صحيح أنّ المرض هدّني بالكامل ولم أعد كما كنت من قبل.. لقد غيّر الحزن من ملامحي قليلا، ورسم الحزن أو الزمن على وجهي أخاديد بدأت تتفرع على زاويتيْ عينيْ كما ترين الآن، وبرزت خطوط بشكل أعمق في تقاطيع جبهتي العريضة.. هذه الجبهة التي دائما ما أخبرتني أمّي أنّها تُذَكِّرُها بوالدها المتوفّى. أمّا هذا البغل الذي**

بجانبك فهو ضخم كالجمل، لا يُشبهني في أيّ شيء، أمّي قالت أنّه أخذ جيناته من أعمامه وأنا أخذهما من أخوالي.. ولكن بأيّ حق تمّ توزيع الجينات هكذا دون إرادة منا؟ ها هو يقف أمامي كالجاموس لا يكاد يتحرك قيْد أنملة؛ ضخم البنية، مستدير الوجه، أقْنى الأنف أشمُّ القصبة، كأّنه ملاكم من الوزن الثقيل. إنّه عكسي تماما؛ هو هادئ ورزين وأنا ثائر وثرثار، ولكن لم تعُد لي رغبة في الكلام، لم أعُد كما كنت من قبل.. صحيح أنّ المرض هدّني بالكامل ولم أعد كما كنت من قبل.. لولا خشونة رأسي لما كنت في هذه الحالة الآن.. أمّي تقول أنّه القضاء والقدر، أمّا نوال فتقول أنه سوء الحظ، وأنا أقول أنني نتيجة معادلة فيزيائية.. لا حركة بدون دافع، ولا دافع بدون إرادة، ولا إرادة بدون حاجة.. في الأخير هي حاجة إلى شيء ما.. حاجة الجينات إلى الاستمرار والتناسل...".

ساد صمت قصير تَبَادلتْ خلاله نظرات متوجسة مع حسين الذي بدا أنّه استيقظ على وقع المفاجأة. لم تعرف أتُخاطبه أم تصمت وتدع الدموع تأخذ مجراها، ارتعشت أصابعها واختلجت شفتاها وهي تُحاول مداراة شيء ما عن حسين. من خلال نظرة أحمد الهادئة بدا أنّه يعرف ما الذي سيحدث أو ما الذي تفكر فيه نوال. تبادلت معه نظرات سريعة، رَفَّتْ أهدابها بخفّة طالبة النجدة من أخيها الذي حوّل نظره إلى الزاوية البعيدة من الغرفة. بقيت لوحدها الآن، وجها لوجه أمام حسين، وقد أرْبكها مرور الوقت بسرعة دون أن تتحدث مما زاد من ارتعاشة قدميها. الآن إنْ لم تتكلم فسيهاجمها حسين، بل وسيطرُدها من الغرفة، هكذا توّهَمتْ، وكان ما حدث بالأمس البعيد يعود اليوم بكل تفاصيله وهي تحْمِل ذنبها بين يديها، بل في وجهها

نفسه الذي يقابل وجه حسين. فتحت فمها لتقول كلمة ولكنّها فرّت سريعا، فأطبقت شفتيْها ثم عادت للصمت. أشاحت بنظرها نحو النافذة، ولولا أنّها محاطة بالناس لهربت واختفت عن الأنظار، ولكنّها أتت بإرادتها، وها هي تقابل حسين بعد سنوات من الغياب.. ما الذي ستقوله له؟ ما الذي يمكن أن يُبرّر سنوات من الغياب؟ ما الذي يجعله يغفر لها أنانيتها وخداعها؟ ألم يكن أخا مثاليا لتعامله بقسوة لا يستحق حتى وداعا يليقُ به كأخ؟ ما الذي يُمكن أنْ تقوله؟ والأهّم ما الذي يمكن أن يقوله لي إن أنا أخطأت أو ما الذي...

- نوال أتيت؟

هكذا داهمها حسين دون مقدمات، ولم يكن على وجهه أيّ سيماء لرجل غاضب. بدأت ضربات قلبها تستقرّ رويدا رويدا، شدّت أنفاسها لتقول أول كلمة بعد فراقهما الطويل. شعرتْ بألم في حُنْجرتها، ابتلعت ريقها واكتشفت أنّ فمها جاف. اقتربتْ منه خطوة واحدة، مال رأسها شيئا ما إلى الأمام وكأنّها تنتظر شيئا ليُكمل طريقه إلى الأسفل. هزّت رأسها وانْفرجت شفتاها، ولكن عينيها كانتا مُحمرّتين، فغاصت الابتسامة الفاشلة في ملامحها وحل تعبير آخر في مكانه.

- لماذا تقفين هكذا؟ تعالي وسلّمي على أخيك..

مال رأسها فطوّقته بذراعيها، ولوهلة توّقف هو عن الابتسام، كانت ترتعش بكاملها بين أحضانه. وضع يده على ظهرها.. وعلى الرغم من الحركة التي تسبّبت بألمه إلا أنّ ألما آخر كان ألذّ بدأ يستيقظ فيه.. لا مكان محدّد له، ولكنّه أَلَمٌ يَشُلّ كل الجسم حتى لا يقْوى على فعل شيء آخر سوى الحب.

- سامحني.. سامحني...

كان أحمد يقف متصلّبا كالخشب، وعندما رأى الموقف ارتخت ملامحه الحديدية، واهتزت عيناه يمينا وشمالا وكأنّه يبحث عن شـــيء يلتهي به.. تمنّى لو لمْ يكن هناك، ولكن في نفس الوقت اخترقه شيء غريب أهم من نظرة الناس إليه. عاد بنظره إلى حسين ونوال ورآهما في تلك اللحظة يتفارقان ونوال تمسح دموعها. باعد ما بين قدميـــه وشابك بين ذراعيه القويتين:

- كفانا يا نوال...
- سامحني..
- نوال، أنت أختي وستبقين دائما أختي..

ثم رسم على وجهه ابتسامة حزينة وهو ينظر إليها بشفقة:

- زارتنا بركة.. حضورك الآن أفرحني، من الجميل أنّكِ أتيتِ، فقد اشتقنا إليكِ.. ما بكِ؟ هيا.. نوال توّقفي.. هيا..

قهقهت نوال لكلمات حسين وهي تمسح دموعها وأنفها الذي كأنف حسين ولكنه مهذب وبحجم صغير:

- علمت بمرضك منذ أسبوع، قد أخبرني بذلك أحمد، لذلك طلبت إجازة من العمل وزيارة البلد لأطمئن عليك، إذا هل بدأت تشعُر بتحسن؟
- نعم، قليلا، أفضل من البارحة..

زحزح أحمد جسده الضخم ليُريح ركبتيه قليلا ورأى الوقـــت ملائما للتدخل:

- المهم أنّك ستتعافى وسيُصبح الألم من الماضي. بالمناســبة، أمي حاولت المجيء معنا لزيارتك، ولولا نصائح الطبيـــب

بأن لا تُتْعب نفسها لجاءت.

هنا رمقه أحمد بنظرة خاطفة، وقد تحــرّك فكّــه في الفــراغ وسقطت كلماته قبل أن تتجاوز رأس فمه...

- هل هي بخير؟ كيف تركتماها في المنزل؟

ردد حسين بصره بين أحمد ونوال التي شابكت بين ذراعيهــا وأخرجت طرف لسانها الوردي كقطة لتُبلل شفتها العليا.

و لم يخفَ عليه طيف الانزعاج الذي مرّ فجأة على وجه أخيه.

- نعم، هي بخير.

تفرّس في ملامحه برهة من الزمن ثم تأرجح بصــره إلى نــوال، وأخذ يمسح تقاطيع وجهها كآلة جيبياس.

- لا تقلق حسين.. قالت نوال ثم تابعت:

- لقد طمأننا الطبيب، ولكنه أشار إلى أنّها لم تكن تتنــاول دواءها بانتظام لذلك فاجأها التعب.

قالت ذلك ثم نظرت نحو أحمد تستشيره بنظراتها، ومطت فمها ببطء ودقة دون زيادة أو نقصان. كل ذلك مصحوب مــع رعشــة خفيفة في شفتيها. لفَتَ نظره في تلك اللحظــة امــرأة في عقــدها الخامس تجلس على حافّة سرير ماسينيسا، كانت تُربِّتُ بيدها الخشنة على رأسه ورقبته. بيضاء البشرة شاحبة الوجــه، ترتــدي مــلاءة بنفسجية مهترئة الأطراف من كثرة الاستعمال. انحنت فوق المنضدة في تلك اللحظة لترتّب له أغراضا أخرجتها من قُفّتها. عاد انتباهه مرة أخرى إلى نوال.

ظهرت أسنانها الأمامية ناصعة عكس عينيها النّديتين المثبتــتين على وجهه. **"متى رأيت هذه النظرة آخر مــرة؟ آه نعــم.. يــوم**

اصطحبتها إلى المطار، ذلك اليوم بالتّحديد، أنا أجُرّ الحقيبة الثقيلة وهي تحمل حقيبة اليد، أنا أمشي وهي تتبعني، أنا أمامها وهي ورائي، لم أُرِد التحدث إليها، لقد خانتني وغادرت مع ذلك الرجل البائس، ها هي الآن تبدو بائسة، تزوّجت رجلا من أجل الذهاب إلى كندا.. ثم ماذا بعد؟ أنتِ خائنة لأنك لم تكوني صادقة مع مشاعرك، لم تكوني مخلصة لقلبك.. كندا.. بلد الخلاص.. كندا بلد التزحلق على الثلج والنساء الجميلات.. كندا ملجأ للنسيان والقطيعة مع عالم طحنته الآلام والحروب، كندا عالم الهدوء والسكينة عكس هذا العالم الذي تضمخ بالدماء ولم يحتمل أبناءه.. كندا.. لماذا لم أهاجر؟ والدتي هي سبب بقائي في هذا الجحيم، لن تطيق الحياة بدوني، أنا ابنها المدلل، أنا من عليه أن يدفنها ويغلق وراءها القبر، أنا من يُذكّرها بزوجها، أنا من يحتاج لدعائها وابتهالاتها.. وما فائدة الدعاء إن لم يكن هناك إلا الأصَحّاء والسُّعداء. أرادتني معها لأنّي تعيس دائما ومثير للشفقة.. هي تحتاج للدعاء وأنا أحتاج للشفقة.. كندا لا تحتاج للدعاء.. ههه.. كندا لا تحتاج لشفقة أحد.. وهذا الجَمَل الذي يقف أمامي كالجبل هل يحتاج إلى شفقة؟ إنّه يزداد ضخامة في كل يوم، ووجهه ناضخ بالدم يكاد يتفجّر، ولحيته الشعثاء وكأنّها ستنفصل عن وجهه قريبا لتُصبح كائنا له يدان ورِجْلان. ها قد بدأت، لابد أنّها تفكّر في شيء ما، كيف لم تُفكر فيما فعلتْه؟ كيف لم يتحرّك ضميرها وهي التي كانت مخطوبة لشخص آخر؟ هذا الشخص كان أعز صديق لي.. تواطأتُ معها وأنا أصْحبُها إلى المطار.. إلى كندا.. حيث ينتظر الكبش نعجته.. مُخِلا بالصداقة التي تربطني بحمزة.. ألم يبكِ

هو الآخر أمامي رغم كل الحواجز؟ ألم يأتِ في تلك الليلة ليَبُثّ لي أحزانه؟ ألم يختفِ لمدة أشهر حتى بحثتُ عنه في منزله؟ إنه أفضل صديق يمكن أن تمنحه الحياة.. مُخلص لم أر مثل إخلاصه، لم ينْدمل جُرحه بعد.. ولازلت أتجّنب ذكر اسمكِ في حضرته.. كيف تجرّأتِ على تركه بتلك الطريقة؟ كيف تركتِني في موقف حرج دون أن تطلبي منّي الغفران يوما؟ المسكين لم يتزوّج بعدكِ ولم يعش مع امرأة أخرى.. كم مضى؟ عشر سنوات؟ وأنتِ، هل فكرتِ في الدمار الذي تركته وراءكِ؟ رأيتك بعيني وأنت تبكين لحظة الفراق، ولكن.. أيَشْفي ذلك غليل العاشق؟ هل البكاء يُحْيي قلبا أماته الخداع؟ أنتِ الآن تمتلكين منزلا مُحاطا بحديقة غناءة تنْتصِب فيها أشجار القيقب، ويُجاورها أناس ودودون لديهم تأمينات على الأسنان وعلى المؤخّرات. قبلتِ بالزواج من رجل أمضى كامل حياته في أمريكا الشمالية وأنت لا تعرفين شيئا عن ماضيه ولا حاضره، كل ما علمتِ به أنه ميسور ومُثقف يدرس في الجامعة، هل يكفي هذا؟ أم أنّها رغبة الحياة تجسدت في أفعالك؟ هل اكتفيت الآن وعُدْتِ لتؤكدي انتصار رأيكِ أنكِ محقة بمغادرتك؟ وها هي النتيجة أمام عينيك، أنا نتيجة المكوث في هذا البلد الجريح.. إنني أنا الجريح...".

- من يقيم معها الآن؟
- أقيم معها حاليا وسأضطر للعودة إلى كندا بعد أيام لترتيب بعض الأمور، ولكن لا تقلق، ستتكفل سميّة برعايتها..

لاحظ ارتباكها وهي تضع يدها على خمارها لتسوّي مظهرها، ورأى ارتعاشة شفتيها وهي تذكر عودتها إلى كندا.

نعم، ستقوم زوجتي بالمطلوب، لا تقلق نفسك يا حسين، هي في رعايتنا الآن، وكل ما نريده منك هو أن تتماثل للشفاء، فهي تنوي تزويجك بعد خروجك مباشرة من هنا.

غمز أحمد لنوال بتواطؤٍ فانتشرت عدوى الابتسام بين الثلاثة. وفي تلك الأثناء وبينما انشغلت نوال في الكلام دخلت شابة إلى الغرفة، انتبه لها حسين وهي تتجه إلى وسط الغرفة، تصلّب جسمه واستقام ظهره عند اقترابها من سرير ماسينيسا، عاد به الزمن إلى الوراء، ولشدة المفاجأة لم يستطع أن يتحكّم في اتساع عينيه وحركة عضلات وجهه. وقبل أن يداري ارتباكه قطعت نوال كلامها والتفتت نحو الزائرة الجديدة.

"إنها هي! هي ولا أحد غيرها، هل هذا معقول؟! وما علاقتها بماسينيسا هذا؟ دقيقة.. كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟ هل يمكن أن تكون قد رأتني؟ هل يمكن أن تتذكرني بعد ذلك اللقاء السريع؟ وهل يمكن أن تتذكر مزهريتها المنسية؟ أوه.. لماذا أرتجف هكذا؟ سيراني أحمد ونوال.. نوال تلتفت نحوها وتكيلها بنظرات متفحّصة.. إنّها تميل على جسد ماسي.. لابد أنه أخوها وهي أخته كذلك.. لا بأس.. هل بدأتُ أغار؟! ما لجسمي يرتعش هكذا؟ سيراني أحمد ونوال.. إنها تميل على جسد ماسي، وها هي أخيرا تنتصب واقفة أمامه بجانب تلك المرأة.. من تكون هي الأخرى؟ والدته؟ لا تزال تدير لك ظهرها.. يبدو أنها لم تعرفك بعد.. لا.. لا.. لم تَرك، لأنّها لو رأتك فإنها حتما ستتذكر مزهريتها.. نبتة العنكبوت.. ها هي أخيرا تلتفتُ وتتفحّص المكان بهدوء، وتلتقي نظراتها مع نظرات نوال، وتُحيّيان بعضهما باقتضاب.. آه ها هي،

لقد رأتني الآن، أنا هنا، أتكون قد رأتني بالفعل؟ ولكنّها أدارت رأسها بدون... ماذا؟ إنها تبتسم.. هل كانت تبتسم لي؟ لقد تداركتْ الوضع وها هي تُدير رأسها فجأة، وكأنّها تذكرت أخيرا ذلك اللقاء في الحافلة.. هل هي تنظر نحوي الآن؟ هل نوال تعلم بماذا أفكر؟ يا لهذا الموقف المحرج، كيف سأشرح لهما سبب ابتسامي لها؟ كيف سيفهّمان ذلك؟ لا.. لا.. كندية نوال ستسمح لها بالتّفهم، أمّا هذا البغل صاحب اللحية الغبراء فإن رأسه يسكُنه الشيطان، سيقول سِرا أنني زانٍ.. زانٍ؟ ولكن بماذا زنيت يا حمار؟ أعلم أنّه سيُجيبني بأنّي زنيت بنظري وأنّ النظر إلى جمال المرأة سهم من سهام إبليس! كلا.. كلا.. يجب أن أتدارك الوضع.. وجهي يحْمرّ.. إنه يحْمرّ بشدة.. لم أرَ نفسي في المرآة ولكني أعلم كيف أبدو.. ها هي نوال تنظر إليّ بغرابة، وأحمد يتلهى بطرد إبليس، شادا على لحيته بقبضته القوية، مفكرا في الطريقة التي يفعل بها ذلك. يجب أن أتدارك الوضع.. وجهي ساخن.. ماذا عليّ أن أقول؟!.

- هل نضال بخير؟

ذِكره لاسم زوجها جعلها تُحرّك يديها نحو خدها ثم انزلقت ببطءٍ نحو رقبتها. ضمّت شفتيها حتى احْمرَّتا من شدة الضغط وعبست، فظهرت كطفلة صغيرة سُرقت منها لعبتها المفضلة:

- نعم، إنه بخير.

اكتفت بهذا القدر من الإجابة لتضع حدا لأية أسئلة أخرى. كانت تكره نفسها كرها جعلها تحسّ أنها ذليلة ووضيعة.

"لن أخبرهم بذلك، أذهب إلى بلد مثل كندا ثمّ لا أحقّق الأحلام التي يطمح إليها الجميع، ماذا سيقولون عنّي؟ ذهبت

كسائحة ثم رمى بها زوجها في الشارع بعد أن ملّ منها؟ لا.. لا..
بل إنّها لم تستطع إنجاب الأطفال، لم تستطع رغم كل المحاولات أن
تأتي إلى هذه الدنيا بطفل يبرّر هروبها إلى هناك.. يا لهؤلاء القـــوم!
كل ما يُهمُّهم هو الغير، كل عملهم يرتكز على معرفـــة أخطــاء
الآخرين والحكم عليهم.. لم أعد قادرة على إسعاده، ولا أقــوى
على إعطائه ما ليس عندي.. لم يعد في قلبـــي ذلك الحب، لقد فتر
فجأة.. كيف؟ هذا ما لا أستطيع معرفته، إنه يحدث هكذا.. وهـــو
كذلك لم يبادلني الحب والحنان؛ لم يسألني يوما إن كنت حزينة أو
سعيدة، كل ما يسأل عنه (هل أنت بخـــير؟)، (هـــل تحتـــاجين إلى
النقود؟)، (تبدين نشيطة)... هل في هذا عيب؟ هل من العيب أن
يكون المرء صادقا مع مشاعره؟ ماذا؟! مشاعر؟ عن أي مشـــاعر
أتحدث؟ لقد نسيت أني تخليت أيضا عن حمزة وتركتُـــه دون وداع
من أجل أن أكون سائحة في كندا، نسيت وعدي بالزواج منـــه،
تركته هناك بلا أمل ونكصتُ على عقبـــي من أجل نعيم كنـــدا،
وماذا وجدت هناك؟ لا شيء.. لا شيء سوى الحـــزن والنـــدم..
زوجي لم يكن متحمّسا لفكرة أن ننجب أطفالا، كل ما يهمّه هـــو
دراسته وطلابه.. أنا مجرّد معادلة من معادلاته الصعبة التي لم يجد لها
حلا بعد.. أمّا أنا فلا أستطيع أن أعيش بدونهم.. كما.. ولكـــن..
هل يمكن أن أبوح لهم بذلك؟ لا.. لا، فهذا مســـتحيل، علـــيّ أن
أدفن هذا السر إلى الأبد.. نعم، لن يفهمني أحد، سيتّهمُني الجميع
بالجبن والتسرع، وإنّي لكذلك وأعلم، ولكن.. دائما يوجد هـــذه
الـــ "لكن".. هذه الكلمة اللعينة دائما ما تجُرّنا إلى المشـــاكل ولا
تتركنا نرتاح.. هل يجب أن يكون لكل شيء مبرّر؟ حتى إبلـــيس

لديه مبرّر وهو يجرُّ العالم إلى جهنم.. أمّا أنا فلم أكن بحاجة لمــبرّر لكي أنفصل عنه.. هكذا أنا، لا أستطيع أن أعيش بهــذا الــذل.. ليس بعد الآن.. ولكن من سيحتضنني بعد كل هذه السنوات؟ من سيُعيد إليّ صورتي التي كُنْتها وأنا لا أزال شابة؟ لن تتغير النظرات نحوي في عشية وضحاها.. الناس يتذكرون كل شيء إلا أنفسهم، كيف سأواجههم؟ ما الذي سأقوله للجميع وأنا المدحوضــة مــن منفايْ؟ حسين أخي استطاع أن يُسامحني، ولكن حمزة لن يغفــر لي أبدا سنواته الضائعة عبثا في انتظاري لأُتمّ دراستي. كنــتُ قاســية معه.. ما الذي سأقوله للجميع؟ ما الذي أقوله لحمزة وهــو مــن منحني حُبّه منذ أن عرفته في فترة الثانوية؟ كم أنتِ شقيّة يا نوال! كم أنتِ غبية ولا تفهمين الأمور إلا بعد فــوات الأوان.. والآن عليك أنْ تواجهي الأمور بنفس القدرة التي تخلّيت بها عن حبــك القديم. هل حسين ينظر إليّ؟ هو يعلم القصة كاملة ولكن لا يمكنه أنْ يعلم بما يدور في داخل رأسي، إنّه الشيء الوحيد الذي أملكه. إنّ ما أفكر به الآن شنيع.. شنيع.. إلى أبعد حد.

لازلت أذكر اليوم الذي التقينا فيه، بالضبط كنــتُ تحــت شجرة التين أين وقفت مع زميلاتي ننتظر ظهور الأستاذ من أجــل الدروس الخصوصية. أتى مع رفيقين، وحين اقترب همس بشيء لم أستطع سماعه، ثم اقترب أكثر وسألني عن حالتي.. هل حسين ينظر إليّ؟ أحمد سادر في ملكوته، والكل لا يعلم في ما أفكر..

لا أستطيع نسيان ذلك اليوم عندما اصــطحبني إلى المنــزل عائدة من الدرس الخصوصي، كان الجو كئيبا كما يظهر من خلال هذه النافذة، وحملت معي آنذاك مظلّة عملا بنصيحة أمي. مــاذا

كان يفعل أثناء مدة غيابـــي؟ كيف استطاع انتظاري كل تلـــك المدة الطويلة؟ إنّه الحب يا مجنونة.. إنّه الإخلاص يا نوال، وأنـــتِ تركته وهجرت بدون رجعة.. آه.. يا لها من صُدفة! المطر يســـقط خارج الغرفة والجو رمادي مثل ذلك اليوم تحديـــدا.. تمشّـــيْنا في الطريق تحت أشجار القيقب المعمرة، وفتحت مظلّـــتي متفـــاخرة بامتلاكي واحدة، ولم يكن لي من خيار إلا أن أضمّه تحتها. لا أحد ينظر إليّ ولكن عليّ ألا استمر في الخيـــال، علـــيّ أن أعـــود إلى الحقيقة، سيكتشفون ذلك، هو سيكتشف ما يدور في رأسي، إنـــه يعلم القصة كاملة. حسين سامحني ولكنّه حمزة...".

التفت حسين نحو ماسينيسا برهة وكانت الوافدة الجديدة تقف بجانبه؛ حيث عكفت على ترتيب أغراض ماسي، وقامـــت بـــدسّ ملابسه المتّسخة داخل القفّة التي جلبتها معها الزهرة. تمّعن في هـــذا الجسد الذي بشكل ساعة الرمل. ظلّ وجهها مواربا تتحدث بانهماك مع تلك المرأة التي تبدو والدها.

- سأراك غدا. تكلّم أحمد أخيرا..
- إذن قل لي، ما الذي تحتاجه لأجلبه لك معي حين أعود؟

صرت نوابض السرير مرة أخرى وهو ينهض واقفا، وبـــدا أنّ نوال كانت تنتظر هذه الحركة أيضا، فقد قالت كل ما كانت تـــودّ قوله وحان موعد الذهاب.

- خذ هذه هي الوصفة، اجلب لي هذا الدواء.

سلّمه الوصفة التي أوصى بها الطبيب مطويّة بداخلها ورقتان من فئة ألف دينار. استلم أحمد الوصفة محرّكا لحيته الكثيفة يمينا وشمـــالا دافعا الهواء بعنف. عندما رأى ورقتي الألف دينار نفخ زوبعة من فمه

محرّكا الهواء الثقيل حوله ولحيته الطويلة تحرّكت باطراد مع فكّيه:

- احتفظ بنقودك، ما الفائدة من وجودنا إذن؟

أعاد الورقتين فوق المنضدة بجانب السرير، ثم حشر الوصفة داخل سترة الكشمير السوداء التي زادته ضخامة. أمّا نوال فقد ألقت نظرة أخيرة نحو الفتاة في وسط الغرفة، والتي وقفت أمام ذلك الشاب المتّكئ على مسند السرير، ولما التقت نظراتها حوّلت الفتاة نظرها إلى الناحية الأخرى. كانت الفتاة طوال تلك المدة تنظر إلى حسين باهتمام، ولم يفت ذلك نوال صاحبة النظرة المنتقدة. وقبل أن يستعدّا للمغادرة، لفت انتباههم نحو الجهة المقابلة من الغرفة صراخ ماسينيسا الغاضب الذي دوى في الغرفة كالرعد. وشرعت الزهرة في البكاء وهما تحت نظرات المارّين ومن في الغرفة. تظاهر الثلاثة بعدم اهتمامهم ونظر أحمد إلى حسين:

- هل كل شيء على ما يرام؟ ووافقه حسين بإيماءة صامتة من رأسه، ثم شيّعهُما بنظراته وهما يغادران الغرفة.

أراد أحمد أنْ يُرافق نوال إلى البيت ولكنّها استأذنت منه بأن يتركها لفترة بحُجّة الالتقاء بإحدى الصديقات، فجلستْ عند المدخل الرئيسي، ومكثت هناك لحظة لتُجَفِّف دموعها بعد مغادرته. لم يكُن بُكاؤها من أجل شيء مُحدّد بعيْنِه، وإنّما بسبب الذكريات والآلام التي قاستها وحيدة في ظُلمة الغربة ووحشة السنين.. من أجل حسين ومن أجل والدها.. من أجل ما تبقى لها ومن أجل ما ذهب أدراج الرياح.. كل شيء يتداعى حولها وهي الآن في منتصف الطريق.. لا تعرف إلى أين ستتجه، أيّ طريق ستسلك؟ هذا ما كانت تبكي لأجله، أو ربما أنها يئست ولم تعد تنتظر أيّ شيء آخر.. نظرتْ في

مرآة محفظتها وتمعّنت في وجهها الأبيض، ولم تكدْ ترفعه حتى أحسّت بأن أحدا يقف أمامها. كان رجلا في الأربعين، صدرت منها آهة وكادت المحفظة تسقط من يدها من شدة الذهول. بعد كل تلك المدّة! بعد كل تلك السنوات العجاف ها هو يقف أمامها الآن! إنه حقيقي، هو وليس من صنع الخيال.. إنه يقِفُ أمامها كما استحضرته في أحلامها.. فتحت فمها لتتكلم ولكن اغْروْراق عينيها تغلّب على سلوكها فصمتت..

- نوال؟!

مليارات من الذرات المتوترة تزاحمت على شكل جزيئات وشكلت الهواء الذي فصل بينهما، بدا وكأنّ العالم حولهما يتشكل من جديد. بحثت عن أثر للزمن في ملامحه وتفاصيله ولكن عبثا ما قامت به. بعد كل تلك السنوات لم تتغير نظرته الهادئة، ولا حركة حاجبيْه الثقيلين أو شفتيه الغليظتين. كان أبيض البشرة أشقر الشعر، له عينان زرقاوان، وفكّان متوازنيان مع وشمة ولادة في جانب أنفه تقلصت مع مرور السنوات فأصبحتْ كلطخة صغيرة. له أنفٌ إغريقي وجسم يتَّسِم بالصلابة بالرغم من طوله المتوسط. كان يقف أمامها مباشرة دون قصد، ولكن قبل أنْ يُغَيِّر مساره لمح وجهها في آخر لحظة.. ذلك الوجه الذي حاول نسيانه للمرة الألف دون نجاح.. ذلك الوجه الذي جمّده الزمن ليسْكُن داخل عقله لم يتغير في الحقيقة كثيرا.. هبّت ريح باردة جعلته يضعُ يده الفارغة داخل معطفه البنّي ذي الياقة المكسوة بفروٍ مزيّف، أمّا اليدُ الأخرى فكانت تحمل كيسا مملوءا.

- أنتِ هنا؟

- أتيت لزيارة حسين.

طوَت محفظتها بيديْن مرتعشتين وأحسّت بالتفاعلات الكيميائية داخل أمعائها. هزّ رأسه بوقار كاذب ولمحت ارتعاش شفتيه وهو يتكلم:

- وأنا أيضا..
- حمزة.. أنا...

لم تستطع إنهاء جملتها الأخيرة وشعرت بغصّة في حلقها تمنعها من الكلام:

- أنا آسفة على ما سبَّبْتُه لك من ألم.. لم أكن...

ازداد تنفس حمزة تسارعا ولم تُسْعفه رباطة جأشه على الصمت:

- لا تقولي ذلك.. فأنت لم تخسري شيئا لتأسفي عليه..
- بلا.. بل خسرت كل شيء..
- ماذا خسرت؟!
- آسفة لأني تركتك بتلك الطريقة.. حمزة، أنا فعلا آسفة.. لقد حاولت الاتصال بك على الهاتف ولكنك امتنعت عن الرد.. كنت أريد أن أقول لك أنني...

رنت إليه بيأس تتطلّع إلى نظرته الباردة والمركزة نحوها وقد جمدت أهدابه عكس حركة شفتيه المرتعشتين:

- تركتِني ببساطة؟
- لا..
- وماذا إذن؟
- إنّي سأحبك دائما..

- وهل أنا شيء تملكينه، تتركينني كما تشائين ثم تـــأتين الآن لتقولي لي أنّك تُحبينني؟

- لم أشأ ذلك وإنما...

تراكمت سحابة الدموع وحبست كل ما أرادت قوله.

- سأغادر الآن.. وآسف على مقاطعتك.

تركها تقف وسط المارّة جامدة من اليأس ومحترقة مـــن الألم، تراقبه من خلال سحابة من الدموع ملأت عينيها مجددا. كان يبتعـــد بخطوات سريعة، ينفض وراءه كبرياءه كما يـــنفض الهـــواء أوراق الأشجار المتساقطة من على الأرض. هزّ كتِفيه الثّقيلين وتســـارعت خطواته، مائلا برأسه إلى الأمام ليختفي داخل المبنى. تذكّرتْ آخـــر مرة شاهدتْه فيها، وكان ذلك قبل عدّة سنوات؛ عندما رأته يُغـــادر غاضبا، مبتلعا ريقه، فاقدا لقوّته، وجارا معه كبرياءه المحطّـــم وهـــي تعلن له أنها ستؤجّل خطبتها من أجل الدراسة في كندا...

-9-

نظر ماسينيسا إلى الواقفتين أمامه، رأى نظرة والدته الزائغة نحو العدم، تتحدث إليه ومتجنبة النظر إلى عينيه مباشرة، ماذا يعني هـــذا كله؟ لم يكن يدري ماسي ما الأمر، ولكنه أحّس بشيء يُطْـــبخ في الأعماق وهذا من خلال مراقبته لها باستمرار:

- أمّي..
- نعم، ما الأمر؟
- هل هناك شيء تودّين قوله لي؟
- أقول لك؟ لا.. ولماذا تسأل؟
- أرى أنك شاردة الذهن.
- لست شاردة، بل أنا مُتعبة.
- مُتعبة فقط؟ أمي كفانا، أعرفك حين تكونين مُتعبة وأعرف متى تكونين منزعجة.
- ضغط دمي مرتفع لذلك أبدو بهذه الهيئة.

توَجَّهتْ نحوها نظرات ابنتها لتتأكد من دقة ملاحظة أخيهـــا، ودون إبداء أيِّ رأي انتقلت إلى ترتيب أغراض ماسينيســـا دون أن تقْطع خيط المحادثة.

- المهم أنتِ لا تروقين لي بهذا المظهر.
- لا تُقلق نفسك، المُهم أنْ ترتاح أنت فقط.. أنتما الفائدة.

وهنا التفتت نحو ابنتها ثم تابعت:

- أمّا أنا فقد عشتُ ما فيه الكفاية.

توقف الحديث لحظة وقد التفتت المرأة الأصغر سنا نحو حسين، وكان هذا الأخير محاطا بالزائرين، بادلته الابتسامة، ثم تقاطعت نظراتها مع نظرات تلك المرأة التي تقف بجانبه. بدت جميلة وحزينة وهي تحدثه، واضعة يدها على صفحة وجهها لتنزلق نحو رقبتها بتوتر. استردّت بصرها وعادت لتمسك بدفة الحديث:

- لقد بحثتُ لك عن متبرّعَين هذا الصباح، وتمكّنت من الحصول على كيس واحد فقط من الدم لأن الثاني لم يكن مؤهلا للتبرع بدمه. هكذا أخبرتني الممرضة، قالت بأنّ هذا كافٍ بالنسبة لك هذا اليوم، أمّا غدا فسأتدبر أمري؛ لأنّني تعرّفت على بعض الأفراد من جمعية خيرية وقد وعدوني بالمساعدة.

التفتت مرّة أخرى إلى السرير المقابل ثم عادت لتسأل وكأنّها تذكّرت شيئا مهما:

- كيف كانت زيارة الحاج موسى؟
- لا شيء.. لم أجده هناك.
- أنت تكذبين..

التفتت المرأتان نحو ماسينيسا الذي تدخَّل في الحديث فجأة.

- أنت تكذبين أمّي، وذلك ظاهر على وجهك.. لماذا ذهبت إلى هناك؟ قولي.. ما الذي كنت تنوين فعله عند ذلك النذل يا أمي أخبريني؟ كيف يُمكنك أنْ تتوجّهي إلى قاتلنا وقاتل والدي؟ ألم تعلمي أنّه سبب شقائنا في هذا العالم؟ كيف تجرّأت على الذهاب إلى هناك؟ كيف تجرئين على

إذلالنا بعد كل ما حصل؟ كيف تضعين كرامة والدي بين يدي ذلك المسْخ؟

- لا.. أنتَ مخطئ.. إنها تقصد شخصا آخر له نفس الاسم.. هذا يُدْعى الحاج هو اسمه وليس لأنه حاج، أمّا الآخر فـ...

ارتجف وجه ماسي وانتشر رذاذ ريقه على جانبيْ فمه ولهث من شدة الانفعال:

- سعاد...

انطفأت سعاد فجأة بعد النظرة الحادة التي وجهها لها ماسينيسا، أمّا الزهرة فقد زادت انكماشا بعد أنْ ورّطتْها بدون قصد في موضوع شائك، و لم تكن أفضل حالا من ابنها، بل طفرت الدموع من مقلتيها وصعد الألم الذي ملأ بطنها إلى صدرها؛ حيث مكث هناك طويلا ضاغطا بقوة، وها هي الآن ستقْذِفُه خارجا على شكل كلمات لتستريح منه، سيُكلّفها ذلك غاليا، ولكنّها خسرت المعركة مع ولدها وعليها أنْ تستسلم أمامه:

- لقد طُرِدْنا من البيت...
- أمّي.. كفى. قاطعتها سعاد.
- لا.. دعيني أخبره الحقيقة.. لقد طردنا صاحب المسكن فوجدنا أنفسنا في الشارع.. إلى أين تُريدُني أنْ أذهب؟ هاه.. أعمامُك لم يلتفت واحد منهم إلينا ولا أيُّ فرد من عائلتنا.. وماذا تُريدني أن أفعل؟ ها.. أنت تتحدث عن الكرامة؟ وما فائدة الكرامة إنْ وجدت نفسك في الشارع تتسكّع مع القطط والمتشردين؟ هل هذه هي الكرامة التي تريدني أن أحافظ عليها؟ حتى أختك المسكينة...

هنا توقفت و لم تستطع مواصلة الكلام.

- أمي كفى.. اتركها بخير ماسي..

كان حسين ينظر إلى كل ما يجري أمامه في الغرفة، وقد همّ إخوته بالخروج وسألاه إن كانت الأمور تجري بخير، ولكنه طمأنهما ليغادرا الغرفة. شاهد حسين المرأتين المستسلمتين للواقع، ومحاولة ماسينيسا للسيطرة على انفعالاته وهو يُحرك يديه أمام وجهه كلّما تفوّه بجملة، وكأنه يكتبها في الهواء قبل أن يلفظها، مخاطبا والدته المسنّة ذات البشرة البيضاء بلون كريمة "النيفيا"، في تعابير وجهها إيحاءات فعّالة لمن يُدقّق النظر إليها، ويظهر جليا أنّ معاناتها الباطنية وآلامها قد جعلاها تبدو امرأة في أقصى درجات التعاسة.

استرق النظر إلى المرأة الأصغر سنا بين المرأتين، تُدعى كاميليا، هكذا قالت له ذلك اليوم في الحافلة. إنها مُنكمشة وخجولة كقطة جميلة، تُعادل ماسينيسا طولا، تتميز بقدٍّ رشيق وجِيدٍ ناعم، كانت تقِفُ جانبيا، ترتدي سروال جينز أزرق اللون يشدُ قوامها، ويرسُم أدّق تفاصيله، فظهرت ربلتا ساقيها رقيقتين تنتفِخان صُعودا وبشكلٍ انسيابي حتى الركبة الرقيقة؛ حيث انحشر السروال في باطنيهما ليُبّين مدى طراوتهما، وبعد ذلك تتوّج الساقان الرشيقتان بفخذين يشكّلان الجينز المشدود ويضغطان عليه أكثر كلما اقتربنا من منطقة الخصْر. و لم يستطِع في تلك اللحظة رؤية وجهها بالكامل ما عدا صفحة وجهها الأيسر، فرأى قرطا دائريا يتدلّى من أذنيها يتحرك مع شعرها الكِسْتنائي على ظهرها وكتفيها كلما بدَرَتْ منها أدنى حركة. تلُفُّ حول عنقها وشاح بوليستر أزرق مُزيّن برسوم أجنحة طاووس. كانت تبدو صامتة تنظرُ إلى البعيد نحو النافذة الوحيدة في

الغرفة، وظنّ أنها لا تُحِس بوجوده تماما، وكاد يُبْعِد نظره عندما حانت منها التفاتة مباغتة التقت خلالها نظراتهما لثانيتين ظن أنهما دهر بأكمله. غير مُصدّق لما يراه، وتحت وطأة المفاجأة المثيرة انزلقت الكلمة من فمه وتلاشت في الهواء:

– كاميليا؟!

التفتت فجأة و لم تتقاطع نظراتهما إلا قصيرا، ثم ما لبث أنْ تكرّر الأمر بعد لحظات. كانتْ تبدو أجمل من السابق، مُشرقة الوجه مستقيمة الظهر، بروز نهديها واحمرار شفتيها أثبتا نضارة شبابها وحيويّته. رأى تناقضا غريبا جعله يرتبك ويشكُّ في حُكمه. أدارت رأسها دون أدنى إشارة نحو الرواق ثم ناحية النافذة المغلقة، أمسكت منديلا ورقيا بيديها الرقيقتين مررته على خديها ثم فمها وقد احمّرت شفتاها من شدة البكاء، وبرزت نقاط النّمش بشكل بارز من خلال شعاع الضوء الذي تسرب من النافذة.

– أعْلمُ أنّه ترك والدكم بدون معاش، أعلمُ أنه سحب نفسه و لم يُدافع عنه وهو في القبر، أعلم أنّه استغلّه أشنع استغلال عندما عمل بشركته، ولكنني كل ما حاولت فعله هو أن أُذَكِّرهُ بواجبه لا أكثر لكي يُساعدنا على الأقل، أردت أنْ أُذكّره أنّ عائلة المرحوم أصبحت في الشارع الآن وذلك بسببه.. أردتُ أنْ أُحرِّك ضميره وأن أوقظ فيه المروءة ولكن...

ارتفع صدر الزهرة وانخفض بشدة وهي تبتلعُ ريقها ودموعها، ثم تابعت:

– هل ترى أنّي لا أعرف معنى الكرامة؟ هل تظن أنّي لا أعلم معنى الشّرف؟ ولكنها مُجّرد كلمات لا تُفيد في شيء أمام

الجوع والفقر.. عندما تكون بلا مأوى ولا طعام فأوّل كلمة ستتذكرها هي المال.. ما باليد حيلة.. ما باليد حيلة.. لقد حاولت وحاولت.. أخبرتُه بكل شيء.. أخبرتُه بما نُعانيه وأننا أصبحنا في الشارع.. أخبرته كل شيء ولكنه اعتذر.. اعتذر فقط.. النذل ابن النذل.. لقد خسر عليّ كلمة واحدة وانصرف.. لقد قال ببساطة.. لقد قال أنّ لديه موعدا.. لديه مو...

لفّتْ سعاد الزهرة بذراعيها، وانكمشت هذه الأخيرة بين أحضانها ترتجف بقوة تحت نظرات ماسينيسا المتجمدة. طفرت الدموع من عينيها واحمّر أنفها بشدة. كان حسين ينظر إليها من خلال عينيه البنيتين القاتمتين، وقد تجّعدت جبهته قليلا عندما رفع حاجبيه ووجّه لها نظرات أصبحت مألوفة بينهما. اختلجت شفتاها النديتان، واسترسلت دموعها بحُرِّية على وجهها البدري. حاولت الانزواء بعيدا عن الأعْيُن، فأطرقت رأسها برِفْق، ومسحت أنفها الصغير المنقّط بالنمش بمنديل ورقي ابتل من كثرة الاستعمال. حاول ماسي التحرك، فأخذت بيَدِه وساعدته على دخول المرحاض.. ازداد لونه شُحوبا عن ذي قبل، ولمحتْ كدمات أخرى ملأت كفيه وصفحة رقبته. عندما خلا لها الجو التفتت نحو حسين:

- مرحبا، كيف حالك؟

"هل أخبرها عن حالتي أم أسألها إن كانت قد تذكرت ذلك اليوم؟ لا.. لا.. يجب أن لا أكون متسرّعا معها. أنا بخير، وأنتِ كذلك؟ ولكنكِ تبدين حزينة.. نعم أنا من التقيتِ به في تلك الحافلة، ولكن مزهريك لا تزال بحوزتي، إنّها على نافذة غرفتي..

أسقيها كل يوم، ولكنني عطشان.. هل أخبرها عن عطشي إليها؟ هل أُخبرها كم هي جميلة؟ ولكن سيخرج أخوهـــا في أي وقـــت وسيراني أتكلم معها.. إنها تبتسم لي، وها هي تقترب من ســـريري بخطوات هادئة.. يا لذلك القوام! المسكينة عيناها محمرّتـــان مـــن الدموع.. أنتِ جميلة.. هل قلت لها ذلك؟ كيف أمكنني أن أتفـــوه بهذه الكلمة؟ إنها تبتسم من جديد.. إنها تبتسم لي.. لابـــد أنّهـــا مُعجبة بـــي أيضا.. ما هذا الصوت الذي يصـــدر مـــن داخـــل المرحاض؟! يا لهذا الماسي! حتى في حضرة أخته.. هل هي أختـــه؟ هل قالت هي ذلك لأنّي لم أسألها؟ سأسألها.. نعم، أنتِ تكبرينـــه بخمس سنوات.. وأنا أصبحْتُ شيخا ولم أتجاوز الكهولـــة بعـــد.. أرجو أن لا تسألَني عن مرضي.. سأبدو لها مثيرا للشـــفقة.. هـــل ستتخلى عنّي بعد معرفة المرض؟ أخوها مريض وها هـــي تقِـــفُ بجانبه.. إنّها أخته، وأنا من أكون بالنسبة لها؟ هي لـــن تحتـــاج إلى نصف رجل مثلي.. لا يجب أن أطمع أكثر، بل لا يجب أن أتخيّـــل نفسي معها أبدا.. إنّها فوق الحدود.. فوق كل مـــا أســـتطيع أنْ أتحمل.. أنا باهت وهي مشرقة.. حتى بهذه الدموع التي تنســـاب تبدو مشرقة.. أخوكِ فتى بشوش وجيّد.. لماذا تكلمتُ عن أخيها؟ يجب أنْ أتدارك الوضع فورا.. أتمنى له الشفاء.. هل هو مقبل على الموت؟ والعلاج؟ ميؤوس من علاجه.. ولكن.. لماذا؟ إنها تبكـــي يا حسين.. إنها تبكي. ما الذي أصابك حتى بدأت تتكلم هكـــذا بعشوائية؟ ها قد تسببت في بكائهـــا.. في أوّل تعـــارف، في أول محادثة جعلت هذه الجميلة تبكي وأمامي أنا النصف حي. أمامَـــك يا حسين، إنها لا تخجل عن التعري أمامـــك.. إنّـــني مرتبـــك ولا

أعرف ماذا أقول.. يجب أن أقول شيئا وإلا.. يجب أنْ أتصـــرف، إنها تبكي أمامي وأنا أراقب كالأبله...":

- تفضلي..

مدّ يده نحوها ليُسلّمها منديلا بلون السـماء كـان يحـتفظ به كذكرى من زوجته. نظرت إليه وكأنّهـا تريـد التأكـد مـن شكوكها.

- أهدته لي زوجتي رحمها الله.
- شكرا لك..

مدّت يدها متردّدة نحو المنديل ثم أمْسَكته بكِلتا يديها مُسْتشعرة بأناملها الرقيقة قماشه الناعم.

"إنّه عمل نادر! وفيّ لزوجته.. لم أرَ شخصا يفعلُ هـذا مـن قبل، ولكن ما اسمه؟ لم أسأله عن اسمه، لابدّ من السؤال عن اسمه أولا، كما لابد أن يعرف هو اسمي. إنه عمل نادر! هـذا المنـديل جميل. إنه عمل نادر أن يحتفظ به بعد كل هذه المـدة! إنّ تلـك الكلمة بالذات لن أقولها لأي رجل كان.. لا يستحقون، كلـهم أوغاد. ملمس هذا المنديل جميل.. ولكنه وفيّ.. ألم يحتفظ بمزهريتي حتى الآن؟ ألم يقُم برعايتها كما يرعى الرجل امرأتـه؟ ألم يحـتفظ بمنديل زوجته كذكرى رغم تواجده في هذا المكان؟ هل يُمكن أنْ أقولها له؟ هل يُمكن أنْ يحدث ذلك وأقولها؟ أحبك.. ههه أنا أتخيل كثيرا.. آه.. يجب أن أتوقف عن البكاء أمامه وإلا سـيقول أنّـي ضعيفة.. إنه رجل وفيّ.. وأخيرا وجدت الشخص المناسب، إنّـه وفيّ.. ولكنّه مريض. ومالفائدة من وفائه إن كان مقبلا على الموت كأخي؟ ما الفائدة؟ وما الفائدة من رؤية ماسـي والبحـث عـن

المتبرّعين إن كان موته محتما؟ أهو الحب؟ لا.. لن أعترف أبدا.. لن يسْمعني أي شخص أقول تلك الكلمة.. إلا إذا.. إذا ماذا؟ هيا اعترفي لنفسك وقوليها.. هذا الرجل؟ أتظنينه المناسب؟ الحب كلمة رائعة حين لا ننطق بها.. الحب كلمة رائعة حين ننظر إليها.. الحب روحٌ نتأملها نُحِسّ بها ونشتاق إليها.. لماذا يحتفظ بهذا المنديل؟ هل هذه مصادفة؟". رفعت نظرها إليه، ومن خلال رموشها الكثيفة لاحظ حسين بريق عينيها. تمعّنت في حروف وجهه بصمت مراقِبة إيّاهُ وهو يرفع يده إلى قذاله بحركة مشوشة ثم ابتسم:

– كاميليا أم سعاد؟

أطرقت رأسها برهة من الزمن قبل أن تجيب:

– سعاد.. آسفة، هل قلت لك أنّي أدعى باسم آخر؟

– نعم، كاميليا..

– كاميليا؟ ههه.. أوه سامحني..

رأى خطوط جبهتها تنكمش عن حيرة مربكة جعلتْها تعبث بشعرها الكستنائي وتثبته خلف أذنيها عبثا؛ لأنه كان كثيفا ويُغطّي أحد صدغيْها دائما. أمّا معِدَة حسين فقد بدأت تضطرب لّما رأى أسنانا ناصِعة تملأ عينيه في مظهر اعتقده استهزاء منه. أقْلقتْه بابتسامة لم يرَ مثيلا لها في حياته. تلك الضحكة تسببت في ظهور حبّتيْ كرز على خديها، وظهور خطٍ قرمزي لحافة شفتيْها اللتين تفْصلان بيْن البشرة الثلجية والثغر المُتّقد بالحياة. أمّا عيْناها فبدتا مثل ماسّتيْن تتعرضان لضوء الصباح. وارتفع ذقنها قليلا إلى أعلى شادًّا معه جِيدها الناعم، والذي انحنى كجسد دلفين ليغطس جزؤه السفلي داخل قميص أبيض اللون فكّت أزراره العلوية:

- أُقَدِّر كل ما فعلته من أجلي حقا، ويُمكنك أن تحتفظ بتلك النّبْتة كما أهديتني هذا المنديل..

سكتت كاميليا عن الكلام المُباح إذ فُتِح البـــاب المـــؤدّي إلى المرحاض وخرج منه ماسي متّكئا على كتف أمه. هرولت نحوهمـــا وساعدته على الاستلقاء.

- ما عُدْتُ قادرا على الوقوف.. أنا تعبـــان.. أنـــا تعبـــان، اُتركاني أستريح.. غادِرا المكان واتركاني أستريح...

انفرجت شفتا سعاد دون أن تخرج منها الكلمـــات المناســـبة. استسلمت أمام عجزها وتقهقرت إلى الوراء مُسلِّمة أمرها لله.

وضعت المنديل داخل الجيْب الخارجي لسترتها البنية القصـــيرة والمصنوعة من جلد السكاي. تحرّكت قـــدماها في نفـــس المكـــان، ورفعت يدها حول رقبتها وقد عبثت بشعرها الكستنائي في حركـــة عصبية، ثم غادرت الغرفة بخطوات سريعة وغاضبة وتبعتها الزهـــرة وتفكيرها مُنْصبّ إلى داخل الغرفة.

اكتنف حُسين شعورٌ بالعزلة بعد أن تذكّر الـــدقائق الأخـــيرة الماضية. لقد أحسّ بألمٍ جديد هذه المرة، ألمٌ يَدُر اللذة والأمـــل، ألمٌ جعله ينسى مرضه وكلّ معاناته، سرح فِكره بعيدا واستغرق في تأمّل السماء من خلال النافذة الوحيدة في الغرفة. كيف نظرت إليه؟ وماذا قالت له وما لم تقله؟ كل حديثها دار في رأسه كالمروحة، يُقلّـــب في معاني تلك الكلمة وسِرِّ تلك النظرة، دون أن يُهْمل حركاتها الجسدية وهي تتحدّث إليه. احتار فعلا و لم يعد يستطيع أن ينتشل نفسه مـــن دوّامة التفكير الذي ينتهي به دائما إلى نقطة مركزية: **"هل يُمكـــن؟ هل يُمكن بعد كل هذا الزمن؟ هل يُمكن أن يعود هذا الإحساس**

الرائع بالألم؟ هذا الألم اللذيذ الذي يسبق شيئا اسمه الحب؟ ولكن.. أليس من الواجب أنْ أكتشف شعورها؟ إذ ليس من العدل أنْ لا تشعر بما أشعر به الآن وإلا فما الفائدة؟ تُرى في مـــاذا تفكـــرين الآن؟ ماذا يحدث لي؟ ولماذا لا أستطيع التفكير بشيء آخر غير...؟ آه.. ما هذا الصوت؟".

ومن مكان ما في ذلك الجزء من المستشفى انبثق صوت صارخ أشبه بأنين شخص تحت التعذيب. تكرّر الصوت بتـــواتر رهيـــب، ولكنه مؤثر حين تُصْغي إليه بعمق وسط الهـــدوء والألم. لم يعـــرف حسين من أين يأتي ذلك الصوت، وخمن أنه صـــادر مـــن الغرفـــة المجاورة؛ فقد رأى هذا الصباح جلبة غير عادية، وممرضين يهرولـــون إلى داخل الغرفة 70، وكان ذلك بعد أن غادرت سعاد مباشرة. ذاك الصوت هو نفسه الذي سمعه ليلة البارحة. أصاخ السمع ونشـــطَت حواسه فجأة عندما أحس بدَقَّةٍ مخنوقة على الجدار الذي كان لصـــق سريره، تحفّز سمعه، وعادت الدقّة من جديد وارتج الجدار لقوّتها، ثم أعقبها ضجيج مروّع من الجهة المقابلة، أشبه باصطدام شيء صـــلب على الجدار والأرض. رأى حسين وجوها واجمة وساخطة تمرّ مسرعة عبر الرواق متجهة صوب الغرفة 70، يرتدون اللباس الموحد الـــذي يميّز الممرّضين والأطباء. استمرّت الضجة لمدة خمس دقائق أخرى بعد ظهورهم ثم خمدت تماما بعد ذلك، ولم يعُد يسْمع إلا وقع خطواتهم الثقيلة وصرير عربة العلاج.

الجزء الثاني

-1-

دخلت عاملة التنظيف في الصباح إلى الغرفة، اقتربت من النافـــذة حيث وضعت الدلو والمكنسة. وقد رأت الشاب الـــذي يضـــع قبّعـــة صوفية على رأسه يأتي بحركة تدُلّ على أنه استيقظ منذ مدة. رأى فيهـــا ماسي امرأة نحيفة العود، حتى خُيِّل إليه أنها لن تستطيع الوقوف لأكثـــر من خمس دقائق. لفّت أكمام قميصها الصوفي فوق الرسْـــغ، فـــبرزت عروق يديها وهي تشُدّ على أزرار مئزرها الأبـــيض. وجههـــا أبـــيض شاحب مع صفرة باهتة جعلت من بشرتها تبدو وكأنّها مريضـــة، أمّـــا أنفها الصغير فمتناسق مع ملامحها، وعيناها الخضراوتان الغائرتان أنْقصتا من بشاعة مظهرها العام، فحاجباها رقيقان كخطّيْ قلم لبـــاد أســـود، كانت تضع أحمر الشفاه الذي زاد من بروز اللون الأصفر في بشـــرتها. عصّبت رأسها بمنديل أحمر، ثم بدأت بتنظيف الأرضية الباهتة متأفّفة من وضعها. كان العرق يتجمّع على جبهتها ويقطر ببطء على الرغم مـــن برودة الجو في الخارج. كانت هذه الغرفة من بين الغرف الكثيرة الـــتي عليها تنظيفها في نفس اليوم. خصّت حسين بنظراتها المتفحّصـــة دون أن تترك عملها. وعندما وصلت إلى بقعة معينة توقفت فجـــأة، انتصَـــبت وأمسكت بظهرها، وتركت الماسحة تسقط من يدها لترتطم بـــالأرض تعبيرا عن سخطها. وضعت يديها فوق خصرها وحـــدّقت إلى القـــيء الذي خلّفه ماسينيسا على الأرض:

– هل تقيّأت مرة أخرى؟ ولكن لماذا لا تشـــكو ذلـــك إلى

الطبيب؟ ربّما سيعطيك علاجا ملائما.. أووووف.. والله تعبت من هذا الشقاء..

أخذت تبحث عن الدلو بعصبية، وقبل أن تحمله انفلت منها وتبلّلت الأرض من جديد:

- تبًّا لحظي.. تبًّا لهذه المهنة اللئيمة.. كرهت.. كرهت هذا المكان.

انزوت في ركن ومسحت جبهتها بكُمِّ قميصها، كان وجهها مُتَغَضِنا ويابسا. استولى عليها القنوط واستسلمت للتّعب، فأخذت تتمتم بكلمات غير مسموعة. مسحت يدها على مئزرها، ثم انكفأت مرة أخرى وبدأت تمسح الأرضية بالمنشفة، تبلّلها ثم تعصرها باستمرار. صمت ماسينيسا و لم يقل شيئا، وقد أحسّ بالذنب يعتريه بعد أن تقيّأ أيضا هذا الصباح، راقب المنظّفة وهي تشطف الأرضية القذرة وقد أنّبه ضميره وأزعجه تأففها.

- كل شيء فوق رؤوسنا، الأطباء في إضراب وبختة تمسح الخراء..

توقّفتْ لحظة ثم عادت تقول:

- كان يمكنك أن تتحكم في نفسك وتتقيّأ في إناء وتعفيني من هذه الضريبة أخي.. أنتم لا تبالون ولا تُزعِجون أنفسكم بالتفكير في عاملة بسيطة مثلي، حتى أنّ ظهري يكاد ينشطر إلى نصفين من الانحناء. آه تعِبت و لم يعُد بوسعي الاستمرار.

لم يأتِ أيُّ ردٍّ من ناحية ماسي، والذي أشاح بوجههِ عابسا بعد أن تفرّس في ملامحها بارتباك، وبعدها حوّلت نظرتها إلى السرير المقابل، وكان حسين يتململ في فراشه محاولا الجلوس بوضعية ملائمة.

- إذن عملية جراحية؟

اكتفى حسين بهزّ رأسه موافقا وهو ينظر إليهـــا منهمكـــة في عملها، وكأنّ أحدا آخر غيرها يتكلم وليس هي:

- لماذا لا يأتي أحد من أقاربك أو زوجتك للعناية بك؟ لأنّك تبدو مُتعبا جدا، وهناك الأكل والملابس و...

كانت تقوده بخُبْث إلى سؤال معين:

- كيف ستفعل كل ذلك وأنت خارج من غرفة العمليـــات؟ كُلُّ المرضى يرافقهم شخص ما للاعتناء بهم.

صوَّبت نظرها إليه وهي تكْشِط بقعة من الأرض علقـــت بهـــا علكة مطاطية.

- زوجتي متوفية.

رفعت بختة حاجبيها الرقيقين سنتمترا إلى الأعلى، وبدت مخيفة بسبب انقباض عضلاتها وهي تكشط الأرضية بعنف:

- آه.. الله يرحمها.

صمتت فجأة وكأنها تلقّت صفعة على الخـــد. نقلـــت الـــدلو والأغراض الأخرى إلى الزاوية البعيدة المقابلة للباب:

- المسكينة.. متى؟
- منذ اثنتي عشرة سنة.
- أوه! إنّها مدة طويلة.. ألم تفكر في الزواج؟
- لم أجدْ المرأة المناسبة بعد.
- الكرة الأرضية تعُجُّ بنا نحن النساء، كيف لم تجد ولا واحدة؟
- إنهن يبحثن عن المال وأنا لا أملكه.
- والآن لا مال ولا صحة..

رأت بختة تغيّر ملامح حسين وتداركت الوضع بسرعة:

- هناك أشياء غير المادة في الحياة، يمكن أن تجذب المرأة نحوك بأشياء أخرى لا يملِكها غيرك.
- وماذا أملك أنا يا أختي؟
- اسمي بختة.. بختة..
- حسنا بختة، أنا الآن أملك ندبة عميقة في صدري. هذا كل شيء.
- ذلك الجُرح سيُشفى وترتدي فوقه قميصا، هذه حالة يمـــر بها الواحد منا في الحياة.. إنها تجربة مفيدة..
- كيف تكون تجربة كهذه مفيدة لي؟

سأل حسين وقد بدأ يهتم بكلام المرأة.

- لا أدري بالتحديد بما تُفيدك، ولكن الذي يتعوّد على الآلام والجراح لن تؤذيه كلمة وقحة من شخص ما، ولن يضيره أن تلسعه نحلة أو عقرب..
- هل تعرفين شخصا صبر عليه الصبر حتى ملّ منه ولم يعُـــد يجدي معه نفعا؟ إنّه أنا.. صبرت لسنوات عديدة حتى ملّ منّي الصبر وأملت في الحياة حتى يئس منّي الأمل.
- أنت متشائم يا أخي.. لم تقل لي.. ما اسمك؟
- حسين.
- حسين...

نادته باسمه لتركّز انتباهه على ما ستقوله، ثم غطست المنشـــفة داخل الدلو بحركة بارعة وتابعتْ حديثها:

- هل رأيت بالأمس حركة غير عادية في المكان؟

بحثت عن آخر بقعة تحت سرير ماسينيسا لتمسحها.

- نعم، سمعت صراخا و...

قطعت كلامه فجأة ودون أدنى قدر من الاهتمام بما كان سيقوله. كانت مُهِمَّتُها أن تنقل الخبر لا أن تتلقّاه، ولتَبُثّ سيطرتها على الحقائق. أرادت أن تُبرهِن على أنها سيّدة هذا المكان بدون منازع:

- منذ أيام حدثت سرقة كبيرة في هذا المكان..

أشارت برأسها إلى خارج الغرفة وهي تُغَطس المنشفة في الدلو، ثم تعْصُرها بقوة فتبرزُ عروق رسغيْها مخضرّة ومضغوطة وكأنّها توشك على الانفجار:

- البارحة حدث نفس الشيء، وهذا الصباح اكتشف مدير القسم أنّ جزءًا كبيرا من المعدّات اختفى بالإضافة إلى الأدوية، أحدهم يقوم بسرقة الدواء ليبيعه في السوق السوداء.. ألم تلاحظوا شيئا غير عادي؟ تركتْ المنشفة المبتلة تنزلق على الأرضية وحدّقت إلى ماسي ثم حسين بنظرة محقق لا يُخْطئ حدْسه أبدا.

- لم نر أحدا ولكن...

قُطِعَ كلام حسين مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة لم تكن بختة هي من فعل ذلك، ففي تلك اللحظة ظهر مدير القسم على عتبة الغرفة، يقف بقامته الطويلة وكتفيه العريضين، يضع يديه على جانبي خصره منتظرا قدوم أحدهم:

- أعدّي ذلك السرير، فهناك شخص نريد نقله من الغرفة المجاورة.

توّجه نحو بختة بهذا الأمر، ولم يكَدْ يتمّ جملته حتى استدار بكامل جسمه نحو شخص آخر خارج الغرفة، كان الممرض رضوان يدير ظهره حين ظهر عند مدخل الغرفة، لمع شعره كمسدس مصقول. كان ينقل شيئا ما ويجرّه بعناد محاولا إدخاله إلى الغرفة بالقوة. ابتسم ماسينيسا وهو يتذكر انحناءة الجزار وهو يسحب الخروف من قرنيْه الملتويَيْن، كان ينتظر سماع الثغاء ولكن كل ما سمعه هو صرير عجلات السرير المتنقّل، الذي ارتطم بإطار الباب بعُنف فاهتزت جدران الغرفة، تركت بختة المنشفة وأكملت الحديث متمعّنة في الوافد الجديد.. رجلٌ لا يُعْرف سنه تحديدا، قدّرتْ بختة أنه يكون بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، شديد الضمور ذو بشرة صفراء، بدا كهيكل عظمي مطلي بالشمع، له شعر صيني داكن وأملس، عيناه غائرتان تبدوان كحفرتين وسط وجهه. برزت عظام فكّيه وصدغيْه، وظهر نتوء وجنتيه المدبّبتين مع تقعّر خديّه، فشكّلت تلك الطبوغرافيا العجيبة ظلالا داكنة على وجهه البائس، وبدا كجمجمة بحوث في قسم التشريح الطبي. استطاع حسين أن يلْمَح من بعيد تفّاحة آدم وهي تنزلق بصعوبة في حلقه، وكأنّه ازدَرَدَ شوكة عالقة هناك. نقل إلى المكان الذي أعدّته بختة بخفّة ومهارة، ثم قامت رفقة رضوان بمساعدته على الانتقال إلى السرير المعدّ له، ثم نقل وزنه الخفيف كما تُنْقل أكياس الطحين من المستودع إلى الشاحنة، ورُمِيَ فوق السرير، وخلال ذلك كان مدير القسم حْميدة يقف في منتصف الغرفة يضع يديه وراء ظهره. تحرّكت شفتا رضوان بسبّة بذيئة لم تصل إلى مسامع حميدة، ولكن بختة تلقّفتها ببراعة وصعّدت نظرها فيه، ثم تجاهلت الأمر لعلمها أنّ هذا الطاغية الذي

يقف هناك صلف ومتيبس الرأس، وهو سبب انزعاج رضوان. رفـــع حميدة حاجبا عن الآخر، وانزلقت زاوية فمه اليســـرى في محاولـــة لتلحق بالحاجب المرتفع. لوّح بيده في الهواء:

- انتهينا هنا.. هل كل شيء في مكانه؟
- نعم، كل شيء في مكانه، نقلنا جميع أغراضه.

عزّز رضوان كلماته بحركة يديه في الهواء معبّرا عن إتمام المهمة بنجاح.

- أرجو أن يكون الوضع ملائما ولا تتصرف بحماقـــة هـــذه المرة، فعلتَ ما فيه الكفاية يا دحّو..

تعمّد رفع صوته عند آخر جملة ليوضح موقفه من الأمر:

- هل سمعتني؟ التزم بالهدوء، نحن في مستشفى ولـــيس في دار حضانة.

ساد صمت مشحون ملأ الغرفة بالتوتر والتســـاؤلات، ودون أن يتلقّى أيّ إجابة واضحة هزّ رأسه الثقيل دون مبـــالاة وانصـــرف مغادرا الغرفة. قام الممرّض بوضع كيس المصل في مكانـــه المناســـب بعد أن جسّ نبضه وحرارته أيضا، سجّل كل ذلك ثم انصـــرف. لم ينبس المريض أثناء ذلك ببنت شفة، ساكنا في مكانه لا يـــريم يلُفُّـــه الصمت.

- كيف حالك اليوم صديقي؟

مطّ ماسينيسا رقبته، وتدلّت رجلاه على حافة السرير موجّهـــا كلامه نحو حسين، الذي اتّكأ هو الآخر علـــى الوســـادة ليســـمح لعضلاته المتشنّجة بالتمدد قليلا.

- لا بأس، مازلت أتألّم ولكن أفضل من البارحة..

- نعم، هكذا أحسسْت أيضا بعد العملية، سيخِفُّ الألم مــع الوقت، ولكن لا تحرّك جسمك بعنف لأن الجرح لم يندمل بعد..
- متى يقومون بتنظيفه؟
- لا أعلم، ربّما اليوم أو غدا.. المشكلة أنّ الأطبّاء في إضراب ولا أحد يهتم بالمرضى.
- ندخل في إضراب نحن كذلك ونتوقف عن المرض، هكذا لن يعود الإنسان بدون قيمة وسنُجبرهم على الخضوع لمطالبنا.

ابتسم ماسي بإيجاب ثم تابع حسين بخمول ولكن بشــيء مــن السخرية، ولسبب ما بدا أنه مهتم بالوافد الجديد، وأراد أن يعــرف رأيه في الموضوع وهو يتكلم.

- ندخل في إضراب ونطالب بحقوقنا كمرضى.
- وما هي حقوق المرضى؟

اختلج منخرا ماسينيسا وتحفزت أذناه لسماع الجــواب مــع ابتسامة مرتقبة.

- أولا يجب أن يكون هناك ممرّضة جميلة لكل مريض، وجهاز تلفاز مزوّد بقنوات الرياضة.. أقصد الرياضة بكل أنواعها..

هنا تبادلا نظرة ذات مغزى وقد ابتسم كلاهما ثم تابع:

- ثانيا يُمنع منعا باتا دخول الأطباء والممرضين الرجــال إلى غرفة رجل مريض.. الرجل يحتاج إلى الحنان والرقة وليس للغلظة والتّجهُّم.. لذلك يتوجب على المستشفى أن يُجنّد أكبر عدد من الحسناوات في خدمة المــريض؛ لأنّ أغلــب أمراضنا تأتي أصلا من الاكتئاب والقلق.

- ثالثا اللباس...

نظر حسين نحو ماسي وهو يطبع ابتسامة على وجهه ثم انتقل ببصره نحو الوافد الجديد.

- ما به اللباس إذن؟
- آه نعم، اللباس.. عليه أن يكون قصيرا جدا، ويتوجب على الطبيبات والممرضات أن لا يرتدين الجوارب.. فهي مضرة ببيئة المستشفى. إنّ الإنسان حين يمرض عليه أن يُعامَل كالملك؛ لأنك مهما اعتنيت بالمريض فسيحسّ أنه بحاجة إلى رعاية أكبر..
- ولكن الملوك يملكون المئات من الجواري وحريما مليئا بالنساء، ناهيك عن الخدم والوزراء.

رفع ماسي يده ملوّحا في الهواء محتجا.

- سيكون لديك أيضا خدمٌ وجوارٍ بمختلف الأنواع والأصناف؛ شقراوات وسمراوات، يعتنين بك ليل نهار، ويحقنَّ دمك بالمخدّرات تجعلك تطير في الهواء وتحلّق مع الملائكة في السماء.

اهتز جذع ماسي وقد برزت أسنانه المنخورة بثقوب سوداء، وأومأ له حسين نحو زميلهم الجديد في الغرفة دون أن يقول شيئا محددا:

- لا أعرف ما الأمر..

أجاب ماسي بصوت هادئ ثم استدار نحو الرجل:

- هل أنت بخير أخي؟

مرّت فترة صمت ثم أعاد السؤال:

- أخي، هل أنت على ما يرام؟ أتسمعني؟

خرج ماسينيسا خالي الوفاض من محادثته العقيمة، وكأنه يحدّث صخرة من البازلت. لم تتحرك ملامح الرجل قيد أنملة.

تبادل حسين وماسي الألحاظ برهة من الزمن واتفقا في الأخير على نفس الرأي.

- إذن فهو من كان يصْرخ طوال الليالي الماضية؟
- نعم، كان في الغرفة المجاورة.

صمت قليلا وهو يستقي حدسه من مظهر الرجل مرة أخرى:

- ودِّع النوم من الآن فصاعدا وانتبه لنفسك جيدا، فالرجل خطير.. عند دخولي للمستشفى في أول الأمر سمعتهم يقولون أنّه هاجم ممرّضا وكاد يحزّ عنقه بمقصّ استَلّه من عربة المعدات الطبية.

تعمّد مايسنسا خفض صوته لكي لا يصل إلى الجانب الآخر.

- سمعتُ البارحة صوتا غريبا في منتصف الليل، أكان هو؟

اتّكأ ماسي على الوتد المعدني ليقف على رجليه:

- نعم، إنه هو.

توقف ماسي والتفت إلى المريض وكأنّه يخشى مباغتته له بضربة قوية، ثم خفض صوته وحرّك شفتيه دون أن تتجاوز الجملة حنجرته:

- مريض نفسي..

لم يسمعها حسين جيدا رغم محاولته لذلك وطلب منه إعادة الكلمة.

- مختل..

رفع ماسينيسا يده الحرّة عند صدغه، نشر أصابعه وخلخلها في حركة لولبية ليؤكد على قوله. مشى خطوة إلى الأمام ولكنه توقف

فجأة، وشحب لونه فجأة، ثم ألقى بكامل ثقله على السرير مرة ثانية. غارت ابتسامته داخل وجهه، واختفى بريق عينيه وهو يكتشف عجزه عن مجّرد الوقوف. أحسّ فجأة أنه يزن طنا ولم يستطع تحريك يديه، صحيح أنه تحصل على كيس من الدم يوم أمس بفضل سعاد ولكنّه لم يعد يستطيع التحرك كثيرا، وبدأ التعب يُخدِّر جسمه بالكامل.

- ما بك؟
- لا شيء، أحسسْتُ بالتعب فقط.
- استرح ولا ترهق نفسك، أنت حقًّا في حاجة إلى الجواري والخدم يا مولاي السلطان..
- مولاك السلطان لا يستطيع تحريك حتى يده.. فما بالك بتحريك شيء آخر..
- ذلك الشيء سيتلوى كالأفعى في مخبئها عندما يرى الحسناوات أمامه كما وصفتهم لك، ستتحرك آخر شعرة من جسدك مطالبة بحقها من المتعة..

توقف حسين برهة من الزّمن يتَفَرّسُ في ملامح ماسي، وقد كان هذا الأخير متردّدا بين أفكارٍ متضاربة. كان يتمعن في الجدار وكأن اللغز يتسرّب بين شقوقه.

- لا تفكر كثيرا يا صديقي، دعك من التفكير.. ستُشفى قريبا وتخرج من هذا المستشفى مُعافى، ونشرب القهوة معا ذات يوم ونتذكّر حديثنا ونضحك من أفكارنا وتصرفاتنا..
- لا أظن أننا سنلتقي في يوم ما..
- لماذا؟

- لأنّي لن أعيش طويلا.. حالتي ميؤوس منها، تعرضت للعلاج الكيمياوي و لم ينجح الأمر.. عليّ أن أعيش ما تبقى لي من خلال تبرعات المحسنين..

صمت ماسينيسا وقد تاه عقله وهو ينظر إلى الحركة المتسارعة في الرواق.

- صحيح أن حالتك حرجة ولكن لا يوجد شيء اسمه مستحيل.. نحن لا نعيش من أجل الصحة بعينها، كل ما يقود البشر للهلاك هو اليأس والحزن والضجر من الحياة؛ لأننا توَقَّفْنا عن الحلم والأمل والرغبة في اكتشاف الأروع. الدهشة هي ما تجعلنا نستمر يا صديقي.. أجسامنا تقاوم وتستمر إذا أردنا نحن ذلك بالطبع.. ومن منّا سيُخَلّد في الأخير؟ لا أحد.. وهل سيحزن الشخص لعلمه أنه سيموت بعد بلوغه الثمانين؟ لا.. لن يحزن.. أتعلم لماذا؟ لأنه تعلّم أن يتصالح مع الموت أخيرا ويتقبله كشيء طبيعي، وتعلّم مع مرور الوقت أن ينسى ذلك من أجل مصلحته وما تبقى له من الحياة.. إذن لا فرق بينك وبين شخص سيغادر هذه الحياة بعد خمسين سنة أو أكثر، المهم كيف ستعيش هذه الحياة، المهم أن تستمتع بكل دقيقة فيها، أن تتمرّغ في السعادة وتُلطِّخ نفسك في وحل الرغبات؛ لأنّك يا صديقي لن تبلغ كل ما تريده من كمال، ولن تُحقّق كل هدفٍ سطّرته في حياتك. اِنسَ كل ذلك واستبدل القلق بالأمل.. نعم صديقي، الأمل هو كل ما تبقى لك، الرغبة في الحياة هي أملك الوحيد..

- قد تكون محقا، ولكنّي أنا لم أيأس من الحياة أبدا، بل الحياة هي من يئِست منّي وأمّدتني هذا الجسد الهزيل.. أحبّ أن

أعيش كجميع البشر، ولدي آمال كذلك وأهداف، حتى أني كنت أنوي الزواج من فتاة ولكن...

- لكن ماذا؟ سامحني على تطفلي وعفويتي معك يا ماسي، ولكنك مخطئ جدا في تفكيرك، وبدل أن تقاوم أنت تُسَلِّم نفسك لليأس.. إذا كنت تحب فمارس الحب كما ينبغي، وإذا أردت الزواج فيمكنك ذلك في أي وقت تريد.. المهم أن تأمل وترغب في تحقيق ما تريد..
- حتى ولو تزوجتُ لن أرزق بالأطفال؛ العلاج الكيمياوي الذي تعرّضت له هو السبب، ولا أشكّ أن امرأة في منتهى الصحة والجمال ستُضيِّعُ مستقبلها من أجل بضعة أيام مع نفاية مثلي..
- لماذا تقسو على نفسك يا صديقي؟ وما الفائدة من معاقبة نفسك بهذه الطريقة؟ ليس هناك مستحيل...

قطع ماسينيسا كلامه فجأة وهو يرفع قميصه ويظهر جلدا مليئا بالكدمات وكأنه جلد صفدع مستنقعات:

- هل رأيت الآن؟ حتى الطبيب يشمئز حين ينظر إليّ.. المرضون يتجنّبونني من أجل هذه الكدمات مع أنهم يتقاضون أجرا على ذلك.. هل عرفت الآن لماذا قلت لك أنني انتهيت؟ أنا الآن نصف جثة فقط.. وفي طريقي لأن أصبح جثة مكتملة..

صمت حسين حين رأى الكدمات تغطي جسد ماسينيسا بتلك الغرابة، وكاد فكّه السّفلي يسقط من شدة الذهول. تمتم بضع كلمات لم تصل إلى سمعه ثم أغلق فمه أخيرا وكَزّ على أسنانه بقوة:

"كيف لم أعلم بذلك من قبل؟ وما الذي دفعني إلى قول تلك الأمور الغبية حول الحياة؟ ألسْتُ يائسا من الحياة أيضا؟ هل نسيتُ أنني أكبر المتشائمين؟ ههههه متشائم ينصح متشائما آخر! لم أكن أعلم أنّني منافق أيضا.. متشائم ومنافق.. يا لها من خصال لمُرشِد! يجدر بي أن أصبح خطيبا في المنابر. لماذا تجرأت على إخباره بكل تلك التفاهات الفلسفية حول الموت؟ وماذا أعلم عن الموت غير تلك الكلمات التي قرأتها من الكتب؟ الموت.. حتى أنا أخاف من الموت أحيانا.. حتى أنيّ أرتعد من فكرة الموت.. آه يا للعار! يجب أن أخجل من نفسي، لقد آذيت الفتى بدون قصد، وها هو يجلس صامتا يحدّق في الفراغ. لم أكن أنوي ذلك حقا، أنا آسف فعلا.. في المرّة المقبلة عليّ أن أمسك لساني عن الكلام. المكان هنا لا يطاق.. آه.. ها هو ذلك الشخص الذي يرقد في آخر الغرفة يتحرّك أخيرا من مكانه.. ولكنه ماذا يفعل؟ هل يقوم بسرقة ماسي؟ الخبيث لقد مدّ يده نحو القفّة وأخذ منها شيئا ما، إنها علبة ممتلئة بالطعام.. الخبيث سرق غداء ماسي.. ماسي سادر في خياله وهو يُحدّق نحو الباب غير منتبه لما يحدث حوله.. اُنظر هناك، إنه بجانبك.. هل أنبّهه إلى ذلك؟ هل أقول له أنه يتعرض للسرقة في وجه النهار وفي وجه حسين؟ سأقع في المشاكل حتما بسبب تلك العلبة الحقيرة.. لماذا جاؤوا به إلى هذه الغرفة؟ لماذا؟ أليس من الواجب أخذه إلى مصحة للمجانين، هل عليّ أن أخبره بما يحصل؟ أنا جبان حقا.. كم أنا جبان.. أخبره عن الموت ولا أخبره عن اختفاء علبته الحقيرة.. وما الذي دفعني إلى قول تلك الأمور الغبية حول الحياة؟ عليّ أن أخبره.. تبًّا كم أجْبُن أمام الحقيقة.. الموت مخيف...".

-2-

مضى الوقت سريعا ذلك اليوم، ولم يدرِ حسين كيف غفا ولا كيف استغرق كل تلك المدة في النوم، فبعد أن استيقظ كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا، وانتصب أمامه البشير بقامته الطويلة وعينيه الضيقتين الحمراوتين بلا أهداب تقريبا ممتلئين بالطاقة والإخلاص، تفوح منه رائحة تبغ حادة:

- صباح الخير.. كيف حالك اليوم صديقي؟

وضع العربة بجانب السرير ثم تابع بلهجة خليطة بين العربية والفرنسية.

- صباح الخير.. أشعر بتحسّن ولكن الألم موجود..
- dorénavant يبدو أنك نمت متأخرا ليلة البارحة..

كان البشير قد سمع كلمة dorénavant في إحدى المقاهي وراقه استعماله لتلك الكلمة.

- بالعكس، نمت باكرا جدا..
- جيد، ولكن عليك أن تتحرّك من سريرك قليلا وتتعود على المشي، فهو مفيد لك في هذه الحالة.

لولا ذلك المئزر الأخضر الذي كان يرتديه لما عرف أحدهم أنّ هذا الرجل يمتّ بصلة إلى هذه المهنة؛ فمظهره العام يوحي بإهماله لهندامه، ونظرته البليدة تنطوي على لامبالاة، أمّا جبهته المنخفضة وعيناه الضيقتان سريعتا الحركة جعلتا منه يبدو كأنّه استنشق للتّو حفنة من الكوكايين.

- عليّ أن أقيس لك الضغط ثم أفحص لك الدم..

غرز إبرة في ذراعه وملأها بعيِّنة من دم حسين، ثم طوَّق ساعِده الأيسر بالرّقعة السوداء وراح ينفخ بآلته حتى اشتدت قبضتها على ذراعه، وعندها قرأ الأرقام في الساعة الصغيرة وأظهر أسنانه الصفراء بفعل التبغ:

- dorénavant حالتك جيدة..

تناول قارورة فارغة ووجّهَهَا نحو حسين دون أن يتكلّم مشيرا بذقنه إلى المرحاض.

- ماذا أفعل بهذه الزجاجة؟
- أعطنا قليلا من بولك لو سمحت..

أمسك حسين القارورة متردّدا لحظة، ليس بسبب الطلب وإنما الطريقة التي كلمه بها.

- هيا، ماذا تنتظر؟ من الآن فصاعدا تريد أن نأتي لك بامرأة لتحلبه منك؟

اختلج منخرا البشير المليئان بالشعر، وبرزت أسنانه حادة وصفراء مُظهرا ابتسامة خبيثة. نزع حسين عن نفسه الغطاء ثم اتّجه صوْب المرحاض، وخلال ذلك سجّل البشير بعض الملاحظات في ورقة الفحص المعلقة على جانب السرير. عاد حسين والقارورة ممتلئة إلى آخرها تقطر من حوافها بالسائل الأصفر.

- قلت لك عينة فقط.. هل تظنه عصيرا أم ماذا؟

استلم القارورة ممسكا إياها برؤوس أصابعه ووضعها بعناية بين المعدات، ثمّ استبدل المصل الفارغ بآخر ممتلئ. وفي تلك الأثناء دخل إلى الغرفة شخص آخر عرفه حسين على الفور، فبدأ قلبه في الخفقان،

لم تكن لصرامته أيّ حدود، في منتصف الأربعين من عمـــره، وقـــد اتّسمت حركاته بالوقار الذي يُحَفِّز دائما خيال حسين:

"من يكون هذا؟ هل هو طبيب آخر؟ ها هو أمـــير المـــؤمنين يدخل إلى بلاطه والخادم في انتظاره يحمل قوارير بسائل أصفر.. إنه يتقدم بهيبة، وخطواته قصيرة كطاووس يعرض ريشه للشـــمس ثم يجلس على عرشه المنقوش بحروف عربيـــة ومُنَمْنَمَـــات لنباتـــات مشرقية، عندها يرفع أصبعا ثخينا مُثقلا بخاتم ألمـــاس ليُشـــير إلى الجانب الآخر.. آه.. الجواري، شقراوات.. سمراوات.. من كـــل حدب وصوب، فيحرّكن أجسامهن اللدنة راقصات أمامي، تهتـــزّ المؤخرات بعنف، وتبرز السيقان مشدودة في رقصة شرقية شـــبقية مشحونة بالطاقة والرغبة.. هل أمير المؤمنين يرى كل هذا؟ هـــل فعلا يتشكّل نتوء عند أسفل بطني؟ هـــل أثـــارتني الشـــقراوات والسمراوات لهذه الدرجة؟ تهتزّ المؤخّرات بعنف وتبرزُ السيقان.. سيتفطّنُ كل من في المجلس إلى الأمر، ولن أفلـــح في الـــتحكم في قضيبـــي المتنامي الذي تُغذّيه حركة الأرداف المتلاطمة.. يا إلهي! يمين وشمال.. شمال ويمين.. دورة محكمة وميلان عنيف، وها هـــي الأرداف الثقيلة تهتزّ بعنف.. يا إلهي! يمين وشمال.. ما لهذا الرجـــل ينظر إليّ باستمرار وكأنه هو خليفة المؤمنين حقا؟ يبـــدو لي أنـــه لاحظ أنني أشعر بالملل وأنّ مكاني ليس هنا.. ههـــه.. مكـــاني في البلاط يا أمير المؤمنين.. ولكن أنصحُك أنْ تظهر لي وجهـــا أقـــل حماقة وإلا فإنني سأضع السائل في فمك.. ها هو قد أخذ ينظر إلى حاجبه المُخلـــص.. مـــا تلـــك الكلمـــة الـــتي أدمـــن عليهـــا؟ (dorénavant). من الآن فصاعدا سأضع السائل في فمك.. إنّـــه

مضحك فعلا، أسنانه قصيرة وصفراء وكأنّه امتداد للون أصابعه. ما لهما يخافان من نظرتي؟ (لك أجمل عينين رأيتهما في حياتي) هـــذا ما قالته لي زوجتي ولم تلاحظه سعاد، آه يا سعاد.. لو كنتِ هنـــا الآن لما جلست أتأوّه لساعات وساعات.. أنتِ وحدك الســـبب. إنّ وجه خليفة المؤمنين يحمرّ غضبا وينزُ عرقا، فيأمر البشـــير.. أو عفوا.. يأمر الجلاد بأن يستلّ سيفه من الغمد الذي داخل العربـــة ويقطع رأسي لعدم حيائي، ولكن خليفة المؤمنين يرفع يده عاليـــا ليلمع أصبعه بذلك الخاتم الماسي، فيسكت الجميع ويعُمّ الهـــدوء. هذا العاشق الأبدي، خليفة المؤمنين يُشير بأصبعه نحو حسين بعـــد أن تنامى عضوه حتى أصبح واقفا كالسّيف، مُتســـبّبا في اســـتثارة رغبة نساء الحريم والجواري.. يزيد ذلك من غضبه فيصرخ محْتدًّا: "اِقطعوا قضيبه.. اِقطعوا ذلك القضيب الآن، وآتوني به طازجا ثم اطبخوه له ليأكله بنفسه". ما لي أتيهُ في الخيال بهـــذه الطريقـــة؟! أفزعتُ نفسي بنفسي! عجب في عجب.. يا أمـــير المـــؤمنين، لا أرغب بحورك ولا بجمالهن.. اتركوني بســـلام.. أيـــن هـــي الآن يا ترى؟ أين أنتِ يا سعاد؟ أين أنت؟".

فزع حسين حين خاطبه أمير المؤمنين.. أو الطبيب، وكـــان في تلك اللحظات يُمْسِك بقضيبه فتدارك الوضع بسرعة وسحب يـــده، شاعرا بنظرة الطبيب المتذمّرة وضحكات البشير المختلسة.

- كيف حالك؟

لوى الطبيب شفته السفلى ليرْسُم على وجهه تعبيرا يُعبِّر عـــن تركيز عميق. وكان جواب حسين كالغارق في مستنقع من العـــرق يصرخ بدون طائل لطلب النجدة:

- أشعر بالألم والتعب أحيانا. حين نظر حسين إلى نفسه دهش بنُتوء بارز بين فخذيه، كان لا يزال تحت إثارة خياله الجامح، صمت برهة ورفع ركبتيه لمداراة النتوء، ولمح حركة خفيّة ثم أثر ابتسامة على ملامح البشير. شابك الطبيب ذراعيه أمام صدره، ثم وضع يده تحت ذقنه مفكّرا بتفادي النظر إلى منتصف جسمه.
- أين تشعر بالألم؟

"أين أتألم؟ من كل مكان؛ مؤخّرتي تآكلت بفعل الجلوس، وعقلي يُفْرط في الخيال، أمّا قلبي.. كل شيء فيه يضْطَرِم.. أصبع بطني هو العضو الوحيد الذي بقي وفيا لي رغم كل المصائب.. لا يزال صامدا ولم يخذلني في يوم من الأيّام، وها هو قد بدأ يرتخي ويتقلّصُ تائها داخل السروال. لماذا يا ترى كل الأطباء متجهّمون هكذا؟ لماذا لا يبتسمون وحسب؟ لماذا لا يسأل عن شخص سلّم له جسمه ليشقّه إلى نصفين ويتفحّص أعضاءه الداخلية بكل هدوء؟ ألا يحِقّ للإنسان أنْ يسأل عن أخيه الإنسان لمجرد أنهما ينتميان لفصيلة البشر؟".

- صدري و...

قاطعه الطبيب فجأة.

- لا بأس، إنه تأثير جانبي للعملية التي قام بها زميلي.. ولكن سوف نفحص عيّنة من دمك وبولك وسأكتب لك علاجا آخر إلى أن تظهر النتائج.

"أنت لم تسمع كل ما أردت قوله أنت يا صاحب الكتفين المنخفضين والرقبة الطويلة، ماذا فعلت بي يا رأس الملعقة؟ ماذا؟

ملعقة؟! صحيح، وجهك مُقعّر كالقمر في أوّل أيامه. كم أنت جميل يا أبا ملعقة!".

- ما الذي أصابك أخي؟ هل هناك ما يُضْحك في الأمر؟

صَعَّدَ نظره فيه ليحذّره من تماديه في الضحك وعدم احترامه للطبيب.

"تبًّا.. ما الذي أصابني؟ أصابني عشقٌ أم رُميتُ بأسْهُمٍ.. لمن هذا البيت؟ أصابني مرضٌ أم رُميتُ بملعقةٍ؟ ها هو ينظر إليّ من جديد.. أنا في ورطة حقا وعليّ أن أدافع عن نفسي ببسالة.. أين هو سيفي المسلول؟ لقد تحوّل إلى سمكة جمبري.. لماذا لا أكفّ عن الضحك هكذا؟ ها هو المُفَرْنَس يمُدّه بالملف الطبي ليُداري ضحكتي البلهاء. ما تلك الكلمة التي قالها؟ آه.. (من الآن فصاعدا).. يا له من إنسان طيب! شفتاه منتفختان كراهية ومليئتان بالحقد، حتى أنهما في طريقهما إلى الانفجار.. إنه ينظر إليّ شزرا من تحت حاجبيه الغليظين كنظرة أبو لهب من فيلم الرسالة. باسل ومغوار أنت يا أبا ملعقة!".

أمْعَن الطبيب النظر في نتائج الفحص الأخيرة، وقد ضاقت عيناه لتصبحا على حجم حبة فاصولياء وهو يُركِّز على الكتابة، ثم أعاد الملف الطبي إلى البشير، الذي انتقلت إليه عدوى الضحك هو كذلك، ولكنه كان أكثر تحكما في نفسه.

- هل تشعر برغبة في التقيّؤ؟

جوابه كان جافا، وطريقة توتّر حباله الصوتية وهو ينطق الحروف وشت بغضب وعدم ارتياح.

- لا.. أشعر بالتعب فقط وبعض الألم. **"خاصّة عندما يظهر وجهك يا أبا لهب، فإنّي لا أتمالك نفسي من التقيّؤ".**

- عليك بالاستراحة قدر المستطاع، وتناول الدواء الذي سأصفه لك.

"ها هو يُخْرِج قلما من جيْب صدره وينحنى فوق المنضدة.. ماذا يكتب؟ هل هذه هي الوصفة؟ هكذا فقط؟ ما تلك الكلمات وما معنى الخربشة اللعينة؟ كيف سأقرؤها الآن؟ تبدو أقرب إلى الهيروغليفية منها إلى اللاتينية.. لماذا يكتبون الوصفات بهذا الشكل السيء؟ أهي العجلة أم أنها موضة لعينة يتميز بها الأطباء الملاعين؟ حسنا، لابّد أنهم تفطّنوا إلى وجود شيء اسمه الكمبيوتر، يمكنهم كتابة وصفاتهم بسهولة بالغة وطباعتها بشكل سليم.. ماذا لو لم يستطع الصيدلي قراءتها كما أراد الطبيب؟ جرّةُ قلم في غيْر محلها قد تعني تغيير الدواء، مما يُشكّل خطرا على حياتي. وكأنّ إكسير الحياة سرٌ يكْمُن في تلك الطلامس الغريبة.. هذا الغبيّ يظن نفسه أبُقراط. ها هو يقِف مجددا.. أنهى خربشته الهيروغليفية على الورقة التي وضعها فوق المنضدة بعد أن تمعّن النظر فيها. يااااه.. وإنه فخور بنفسه كذلك! هذه الوقفة تدلُّ على أنّه قام بأعظم عمل على وجه الأرض!".

- اِحرص على شراء هذه الأدوية وتناولها بانتظام لتُساعدك على الشفاء.

كان هذا آخر ما قاله لحسين قبل أن ينصرف من الغرفة تاركا إيّاه عُرْضة للحيرة. التقط حسين الوصفة ونظر إليها ثمّ همس لنفسه تحت أسنانه الضاغطة على بعضها: **"هل سأبتلع كل هذه القائمة لوحدي؟! آه.. يبدو أنّها تكفي جميع المرضى في هذا المستشفى!".**

-3-

"إنّها الظروف التي.. ولكن ليس أمامي حل آخر.. يا إلهـــي! كيف أصبحت بهذه الحالة؟ ماذا سيقولون عنّي بعد ذلك؟ ولكنها الظروف.. إنها الظروف.. لم تعد لي قيمة بعد الآن، لم أعد كما في السابق، سيحتَقِرني الناس ويتجنّبون مصاحبتي، سأجلب لهم العار.. ولكن سأدخل هناك. يجب أن أدخل إلى ذلك الجامع وأطلب منهم المساعدة.. إنهم مُصلّون ويحملون الله في قلوبهم، ثم إنّ الله رحيم.. سأطلب منهم المساعدة. إنّه بيت الله ولم يعُد لي من طريق آخر غير هذا الطريق.. إنه طريق الله.. وها هو المســـجد علـــى الناصـــية الأخرى من الشارع.. هل أدخل من جهة النساء أم مـــن جهـــة الرجال؟.. لا.. لا.. إنه أوان العصر والنساء لا يأتين بكثرة في هذا الوقت.. الرجال إذا.. آه كيف أصبحت.. لن تعود لي قيمة بعـــد الآن. يجب أن أنزع هذا الحذاء الممزّق الأطراف وأضـــعه داخـــل محفظتي لأنّي لن أمكث هنا طويلا.. لستُ هنا من أجل الصـــلاة.. بل من أجل المال.. من أجل المال فقط.. ولكنّه ليس مـــالا.. إنّـــه صدقة.. أنا هنا من أجل الصدقة.. ماذا سيقول الناس عنّي بعـــد رؤيتي هنا؟ الجيران وأصدقاء المرحوم كيف سينظرون إليّ؟ مـــاذا سيكون شعور سعاد عندما تعلم كل هذا؟ لست أنا المذنبـــة والله شاهد معي.. إنّ القدر ظلمني وسلب منّي كل خيار.. لم أتســـوّل في حياتي كلها ولم أطلب مساعدة من أحد، ولكن هل يكون الخيار

لمن لا يملك مأوى ولا طعام؟ وماسي؟ ماسي لو يعرف المسكين هو كذلك.. ابني الوحيد يحتضر أمام عيني.. ابني يُودّع الحياة ولن تعود لي بعده أيّة قيمة.. قيمتي في أبنائي.. قيمتي فيما أملك.. ما فائدة القيمة إنْ كنّا لا نملك شيئًا؟ ما فائدة الكبرياء إن كنتُ أشاهد موت ابني بصمت؟ وما فائدة الشرف إن كان الشرف لا يقوى على مجابهة القدر؟ الشرف هو الحياة نفسها.. الشرف أنْ أحافظ على البسمة وأرعى أبنائي.. الشرف أن أقف كامرأة في وجه الموت.. تبًّا لكل هؤلاء الناس.. هم ليسوا أفضل مني.. أراهم ينظرون إليّ ساخرين في قلوبهم مندهشين من وقوفي أمام باب المسجد.. إنّها الأيام.. الأيام وما صنعت بي.. ولكن لم تعُد في اليد حيلة.. لا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين.. لا أستطيع أن أتوقف لأشاهد ابني يضيع من بين يدي.. لقد حملته في بطني تسعة أشهر كاملة وأرضعته، ثم رعيته لسنوات وكبر في حضني.. ماسي.. هل أنا أبكي فعلا؟ سينتبه الناس إليّ.. يجب أن أكفّ عن البكاء.. لابدّ أنهم يستهزؤون بي سرا، ولكن.. يجب أن تكفّ هذه الدموع اللعينة عن النزول.. هذا الرجل هناك ينظر إليّ بتمعن وكأنّه لا يُصدِّق أنّي أقف هنا لأتسوّل.. نعم أنا أتسول على عتبة الجامع وأرجوكم.. أرجو منكم المساعدة من أجل.. ولكن من أجل ماذا؟ ألأنني سأبيت في العراء هذه الليلة؟ أم منْ أجل ابني الذي يرقد محتضرا في المستشفى؟ أم من أجل سعاد التي لم يعُد لها أحد يقف بجانبها؟ المسكينة ضاع مستقبلها ولن يتقدّم لخطبتها أحد بعد أن يراني الناس واقفة في هذا المكان.. سامحيني يا سعاد.. حتى أنتِ ظلمك القدر.. سامحيني، فالموت أقوى من كل الأشياء، وألَمُ

الفراق أقوى منهم جميعا.. لا أقوى على فراق ابني وهي تعلم ذلك.. هذه الدموع لن تتوقف ولا أستطيع كبْحها بعد الآن فلأسَرِّحها لتنهمر بسلام، أدعها تُبلّل الخَدّيْن اللذين لم يعد لهما فائدة إلا لجذب الشفقة.. إنها تملأ عيني وتمنعهما من الرؤية، لذا عليها أن تفيض وتنسكب.. آه كم هي حارة ودافئة! ولكنها مؤلمة حين تخرج من العين.

لقد انتهت الصلاة وها هم يخرجون زرافات ووحدانا.. يرون أحذيتهم الحقيرة محشورة هناك ولا يرون امرأة تقف أمامهم تُمدّ يدها المرتعشة لأول مرة.. آه إنّها أوّل مرّة في حياتي أمُدّ يدي إلى شخص آخر.. حتى زوجي لم أطلب منه مالا، كان يعرف معنى الكرامة والعفة.. آه قلبي يتمزّق لسماع رنينها.. إنها قِطع باردة وثقيلة ولكنّها لا تكفي.. لا تكفي والجامع بدأ يفرغ.. ساعدوني في سبيل الله.. أختكم تعاني من الحياة.. أختكم بدون مأوى.. ابني يحتاج للدواء.. ابنتي متشردة.. أنا متسولة ولم يعد ينظر إليّ أحد الآن.. صرت مجهولة ومألوفة في آن واحد، كأيّ متشردة نراها كل يوم في الشارع ولا نعْرف عنها شيئا سوى أنّها تتسول كل يوم في نفس المكان.. المتسوّلة التي تقِف في المحطة.. المتسوّلة التي تقف على الطرق العامة.. المتسوّلة التي تطرق البيوت.. وأنا إلى أيّ نوع أنتمي؟ آه.. لن يقول الناس بعد الآن أنّي أرملة مختار.. لن يقولوا بعد الآن أنّي والدة ماسي وسعاد.. ولن أسمعهم ينادونني باسمي.. حتى الزهرة.. هذا الاسم لن يعني لهم شيئا بعد الآن، سيختفي من الوجود.. لم يعد لي وجه ولا اسم ولا مأوى.. ضاع كل شيء ولم يعد يُحيط بي ذلك النور.. نور العفة والشرف..

لقد ذهب كل شيء إلى الأبد، ذهب مع رنـــين القطـــع الماليـــة وإحسان المتصدقين.. سال الشرف مع الدموع.. واختفى الكبرياء عندما قبضت على الصدقات.. لم أعد بحاجة إلى الناس وليسْـــخر من يريد أن يسْخر... لأننا كلنا سنصير وجبة للدود.. الإنســـان دائما ما ينسى نفسه ليسْخر من أخيه الإنسان.. نحن تـــراب وإلى التراب سنعود ذات يوم، عندها سيدوسون علـــيكم بأقـــدامهم ويتبوّلون عليكم في كل مكان، ثم سنرى بعدها من سيسخر مـــن الآخر.. كل شيء يمرّ.. كل شيء يمرّ.. والآن عليّ أن أنقذ عائلتي من الضيّاع، عليّ أن أكافح من أجل ماسي.. المسكين.. لن أتركه وحيدا هناك.. لن أتركه يموت هكذا.. لا تزال أمّك حيّة ولم تُمت بعد.. والدتك معك وعليك أنْ تصمد.. لن أخجل من شـــيء.. لا.. لا.. لن أخجل ولا يجب أن أخجل أبدا.. إنّهـــا الظـــروف.. وسيعرفون ذلك عما قريب.. إنّها الظروف، وكان عليّ أن أفعـــل ذلك.. كلّ شيء يمرّ.. كل شيء..".

-4-

مضى الوقت متباطئا قبل أن تحلّ فترة الظهـيرة، وقـد عمّـت الحركة في الرواق وبدأت الغرف تعجّ بالزائرين. جلس ماسينيسا على حافة السرير مستندا على القضيب المعدني الذي بجانبه، حاول الوقوف ولكنه لم يقوَ على ذلك، وعندما أحسّ بالعجز مكـث علـى تلـك الوضعية متوجّها بنظره نحو الباب ومراقبة حركة السير هناك، وكأنّه في انتظار شخص ما. ارتدى هذا الصباح ملابس جديدة؛ عبـارة عـن قميص أبيض بِيَاقة زرقاء، مُقَلّم بخطوط أفقية زرقاء ليَظهر بحجم أكبر، وسروالاً من البوليستيران، تقطعه خطوط عموديـة علـى جانبـي الساقين وتنتهي للأعلى بعلامة (لاكوست) على أحد الساقين. حـرّك رأسه بسرعة نحو حسين متفحّصا، ثم نحو الرواق مـرة ثانيـة وقـد اضطربت أمعاؤه وبدأت كدماته الفخذية توخزه بشكل مرعب.

"**لماذا لم تظهر آمال لحد الساعة؟ قريبا ستأتي أمي وسعاد ولن أحظى بفرصة لقائها منفردا لأكلّمِها عن المستقبل، سأخبرها كـل شيء.. لم أعُد أستطيع احتمال هذا الذل، سأعلمها بالأمر لأُريـح نفسي وأحررها من الضمير وأجنِّبها الموقف الحرج. هي ليسـت مسؤولة عني، كما أنني لست مسؤولا عنها أيضا؛ لأنني لن أعيش طويلا وهي جميلة تستحق الأمل في حياةٍ أروع. لم تعد الأمور كما في السابق، فالفتاة لن تنتظرني دهرا بأكمله، وخاصة أنّي مفلـس منذ مدة وحالتي تزداد سوءا كل يوم.. ها هي الكـدمات تقـول**

ذلك بقوة، جسمي ينز عرقا ودما ولا أستطيع حتى الوقوف، ماذا تفعل برجُلٍ مثلي؟ فجسمي نفسه يرفض الحياة.. نعم.. أعلم أنها فرحت لذلك، عندما طلبتُ الزواج منها قبل سنتين، وافقت هي بكلّ سرور، بل وبكت بالدموع تحت نظراتي المتشوقة، وعدها بالزواج وهي فرحت لذلك رغم معارضة والدها وأخيها ذلك النذل، إلا أنني لم أتقدّم لخطبتها بسبب أخيها.. ذلك الحقير هو الذي يستحق الموت وليس أنا، آه كم هي ظالمة هذه الحياة! إنّ الحياة عمياء لا تميّز بين الجيّد والسيء. لقد أفسد كل ما خططت له، لقد فسخ خطوبتي ودمّر مستقبلي وها أنا أرقد في المستشفى أنتظر الموت.. كنت على وشك أن أتقدّم لخطبتها ولكن.. ذلك الاتفاق معه ما كان يجب أن يكون أبدا.. ما كان يجب أن أورِّط نفسي معه في تلك الشراكة البائسة. اِستأجرنا من عمّه ورشة تصليح السيارات وأخذتُ على عاتقي كل ما يتعلق بالجانب الميكانيكي، أما هو فكان الجانب الكهربائي من اختصاصه.. لماذا لم تصعقه موجة كهرباء لعينة؟ لماذا؟ يعمل في الخطورة ولا يصيبه شيء منها.. عملتُ ضِعْف ما كان يعمله هناك، وكان يعلم أنّي أعلم أنه لا ينجز عمله.. وعلمت أنه يعلم أني أنوي التقدم لخطبة آمال، آه يا آمال لولا المرض، لولا أخيك، لولا سوء الحظ، لكانت عارية أمامي الآن بكامل جسدها في سرير لشخصين، تتأوّه من اللذة وتنادي باسم الحياة وباسم ماسينيسا، لولا تلك الأمور لكان اسمي مرادفا لاسم اللذة.. آه ماسي.. اضغط.. آه أكثر.. أدخل قضيبك.. آه ماسي أنت ملاك.. أحبّك ماسي آآآه.. ماسي.. ولكن.. لا أستطيع حتى الوقوف على قدمي لدقيقة

واحدة.. لم أكن أتخيل أنّ حياتي ستنقلب رأسا على عقب بعد ستة أشهر من بداية الشراكة. احتفظ الخائن بنصيب أكبر من الأموال، وكان يُطيل غيابه عن الغراج عمدا بحُجَجٍ واهية؛ أحيانا المرض، أحيانا واجباته الأسرية التي لا تنتهي أبدا... ثم أصْبح يتمادى في التصرف بالأموال التي نحصل عليها من الغراج بحجة اقتطاع نصيب للكراء وفواتير الكهرباء والماء. عمّه ميسور الحال ولم يطلب في يوم من الأيام أي مبلغ كراء.. الناس شاهدون على ذلك، ولكن لماذا فعل ذلك؟ لماذا أصَرّ على تحطيمي بتلك الطريقة؟ ألم أكن صادقا معه؟ ألم أفتح له قلبي؟ ألم أعتبره كأخ ووثقت به كل تلك الثقة؟ ماذا فعلت له ليُقْدِم على خداعي؟ ما فعلت للرب لكي يعاقبني بشخص كهذا؟ لو أرسل لي الله شخصا آخر أقل لؤما وأكثر شجاعة لقبلت بالأمر وسلّمت له أمري، ولكن ذلك النذل.. حتى آمال تعلم بالقصة كاملة ولم تُدافع عني، لقد كانت حيادية وظلت صامتة طوال تلك المدة.. حتى هي خذلتني بصمتها. لازلت أذكر ذلك اليوم جيدا، أنا أسامح ولكن لا أنسى أبدا، لن أنسى ذلك الصباح، كان يوم أحد أو اثنين.. وضعت المفتاح داخل القفل ولكنه بقي عالقًا هناك، لقد قام بلعبته القذرة واستبدل الأقفال، ولمدّة ثلاثة أيام لم يظهر له أي أثر، بحثت عنه في منزل والده وسألت الأصدقاء ولم يظهر له أثر.. اللعين كنت أعلم أنه سيوجّه لي الطعنة ذات يوم.. كنت أعلم ذلك منذ البداية.. أخبرني الأصدقاء ولكن آمال أخته وهو في الأخير لن يغدر بخطيبها، ذهب النذل إلى وهران.. أخبرني الأحباب بذلك، ذهب في شاحنة محمّلة بخرداوات ومحركات ومعدات أخرى ليبيعها

في سوق شطيبو لقطع الغيار. أراد أن يبيع كل ما جهـــدت علـــى توفيره لمدة أشهر من العمل الدؤوب.. نسي أنه لعب بالنار، نسي أنه مع شخص لا يرحم، نسي أنني سأقتله إن وجدته وحيدا.. لقد تناسى كل ذلك وباع كل شيء. والآن لم أعد أملـــك دينـــارا في جيبـــي، أمي هي من تجلب النقود، المســـكينة أصـــبحت عاملـــة نظافة، ولا أدري في أي بيت تقوم بتنظيـــف مرحاضـــه الآن.. لا أستطيع تصوّر أمي.. تبًّا لهذا القدر اللعين، ألم يكتفِ بواحد منـــا فقط؟ هل عليه أن يحصد جميع أفراد عائلتي واحدا بواحد؟ وسعاد أين هي الآن؟ وماذا تفعل؟ هل مازالت تخيط في تلـــك الورشـــة؟ عليها أن تجد عملا يلائم تخصصها في برمجة الكمبيوتر.. هي جميلة وستجد زوجا ملائما، أفضل من ذلك المُتفرعن الذي ظنّ نفسه إلها علينا. كلهم سواء، ولكن بقالب مختلف، الغدر لونه أصفر مثـــل لون وجهه.. أراه دائما بهذا اللون؛ لأنّ الأبيض عندما يفقد نقاءه يتحول أولا إلى الأصفر.. الخداع أول مظاهر الخبث. ها هي تقِف أخيرا عند مدخل الغرفة، ذلك المئزر الأخضر الذي ترتديه يزيـــد من عمق نظرتها وفخامة مظهرها، وهو يحْجُب أيضا تلك العجيـــزة التي أحفظ تضاريسها عن ظهر قلب كما يحفظ الجيولوجي تمامـــا طبقات الأرض. العين تشتهي يا آمال والقلب يريد. هذه أغنيـــة المرحوم حسني.. لو كانت تسمع أغانيه لعلمت معنى الحب. ومن هذا الذي تبتسم لحديثه؟ أليس هو رضوان؟ ذلك الممرض الـــذي يرطن بالفرنسية وأشرف على معالجة حسين هذا الصـــباح؟ إنهـــا تبادل صاحب التسريحة العجيبة ابتسامة جذل، وتضع يدها علـــى ذراعه...".

أخيرا تخلّصت من رفيقها بعد أن رأت نظرات حسين مُصوّبة نحوها بطريقة عدائية، وها هي تأتي مُقْبلة نحوه بخطوات قصيرة متماوجة، تتصالب قدماها في الحركة، فما تكاد تلامس القدم اليمنى الأرض حتى ترتفع القدم الأخرى في رشاقة، تجعل من عمودها الفقري يتصلّب ويضغط على آليتها لتبْرُز بشكل مثير. أقبلت نحوه بقامتها القصيرة وضآلة جسمها المتناسق الأطراف، عيناها البنيتان وتلك الشامة فوق شفتيها الممتلئتين جعلت بشرتها تبدو فاتحة أكثر من حقيقتها، لتزداد خطوط وجهها الداكنة من التألق في ذلك الوجه البدري:

- مرحبا ماسي، كيف الحال؟

كانت تلفّ ياقة قميصها القطني بأصابع يديها وترسم على شفتيها ابتسامة باهتة:

- لماذا تجلس بهذه الطريقة؟ هل ترغب في المشي؟

تفحّصت مظهره صاعدة من أسفل قدميه حتى وجهه الآخذ في الانحلال. وضعت يدا في جيب مئزرها والأخرى حرّكتها أمام فمها بطريقة لولبية لتشرح خوفها وتعبّر عن قلقها. فأضافت آهة مبالغة في فتح فمها أكثر من اللازم.

- من الذي كنتِ تحدثينه هناك؟

أشار بذقنه دون أن يرفع نظره عنها، ولكن ما إن رأى شكلها وحركة دلالها حتى خمدت نظرته الحارقة اتجاهها.

- إنه زميلي في العمل، لماذا تسأل؟
- رأيتك تبتسمين له بطريقة لم تعجبني.. هل التحدث في أمور العمل يقتضي المزاح بتلك الطريقة؟!

عند هذه النقطة توقفت عن أداء حركات الــدلال، تجهّمــت نظرها وأصبحت نبرها أكثر صرامة وحِدّة:

- لا يحقّ لك أن تحكم عليّ، فهذا عملي ووالديَّ راضــيين عنّي، لذلك لا تُقلق نفسك كثيرا.

ارتج جذعه بالكامل لوقع كلماها التي أضعفت موقفه، وكأها صعقته بتيار كهربائي قوي، وما زاده ارتباكا أنه لم يكن وحيــدا في الغرفة، فهو رفقة مريضين آخرين. **"كيف تتجرّأُ على قــول هــذا الكلام لي بعد كل ما حصل؟ كيف سمحت لنفسها بأن تكلّمــني هذه الطريقة؟ لقد نبتت لها مخالب حادة وهي تكشر عنها الآن في وجهي. ولكن لماذا؟ ألم أعد أعني لها شيئا لهذه الدرجة؟!".**

- أعلم أنّه لا يحق لي التدخل في أمورك، ولكن هذا الفــتى لم تعجبني تصرفاته، فقط لا.. لا تلقي بالا لما قلته لك، انسَيْ الأمر.

لم تمر لحظات طويلة حتى تحوّلت تلك القطة المشاكسة فجأة إلى عصفور جميل ومدهش. ماسينيسا نفسه لم يستوعب حجم التغييرات التي طرأت على ملامحها، وكأها ليست هي التي صرخت في وجهــه منذ لحظات فقط:

- لماذا ترهق نفسك؟ عليك أن تستريح أيها الشقي..

ورنت إليه برجاء وتوَدّد جعلا من ماسي يذوب في غمرة الحنان الذي بعثته نظراها الواثقة. كان يودّ تقبيلها بشدة ولكن أعاقه حضور حسين، ودحو ذلك الغريب صاحب الأطوار الغريبة، فضــلا عــن وصول أمه وسعاد في أيّ دقيقة.. لذا قرّر تأجيل ذلــك إلى فرصــة أخرى:

– هل أنتِ بخير؟ تبدين منزعجة نوعا ما، هل ضايقك أحد ما؟

لم يكن سؤاله يمُتّ بصلة للواقع، وإنما كان امتـــدادا لهواجســـه المستمرة.

– لا، أنا بخير ماسي.

تعمّدتْ نطق اسمه في مجرى الحديث لتدليله، ولكنها الآن فتحت فمها وأغلقته ثم أطرقت إلى الأرض لحظات مفكرة وعادت تنظر إليه باضطراب:

– سألتُ عنك الممرض البشير فطمأنني وقال أنك أفضل مـــن السابق.

تجمّد الزمن بالنسبة لماسينيسا في تلك اللحظة وهو يتملى النظر في عينيها، مخترقا بريقهما ولون حدقتيهما، وكأنّه يريد قراءة ما يدور داخل رأسها:

– ولماذا لم تحاولي الاتصال بـــي مباشرة؟

حوّلت نظرتها القلقة إلى نظرة معاتبة وكأنه بكلامه خان ثقتها مرة أخرى، أطرقت برأسها إلى الأرض والغضب يغلي في عروقهـــا، حبست كلمات حادة عند رؤوس شفتيها:

– ماسي، الهاتف ممنوع.. ألا تذكر نصائح الطبيب؟

توقفت عن الكلام فجأة، وبدت وكأن شيئا من أعماقها يصعد إلى السطح ليظهر في نظرتها الجامدة وانخفاض حاجبيها فوق بريـــق عينيها الحالمتين.

– هل تدرين أمرا؟ تبدين جميلة أكثر وأنت غاضبة هكذا.

ابتسمت بصمت ولكن بريق عينيها ظل ثابتا. كـــان تنـــاقض ملامحها الصارمة والرقيقة يشكلان غموضا لكل رجل، وبهَيَام راقبها

ماسينيسا. شابكت أصابع يديها فوق سروال الجينز الضاغط على فخذيها بقوة، شخَصَت ببصرها خارج مجال المادة؛ إذ نظرت إلى الفراغ دون أن تشاهد شيئا. التفت ماسي نحو حسين المتشاغل بترتيب أغراضه فرأى الفرصة مواتية، مدّ يده نحو يديها فلامس جزء من أصابعه فخذيها، ولم تقم هي بأي رد فعل إزاء حركته، ضمّ يدها في يده بقوة وأحسّ بمبلغ نعومتها:

- انظري إليّ آمال.

ازدردت ريقها وشعرت بمغص في حلقها، وكأنّ يدًا قوية تشد على رقبتها وتمنعها من التنفس، فسحبت يدها برفق ثم تحاشت النظر في عينيه:

- ماسي، أريد أن أذهب الآن.. معك رفقة وأنا لديّ عمل ينتظرني..

وقفت أمامه مستقيمة كالسيف وانحناءات شفتيها تؤكد مزاجا معكرا، وقد استقام ظهر ماسي لهذه الحركة المفاجئة وتوترت حباله الصوتية، مترددا عن أيّ كلمة مناسبة يمكن أن يقولها:

- أنتِ تتجنبين رؤيتي، أليس كذلك؟ أعلم ذلك من خلال طريقة كلامك معي.. فعلها أخوك قبلك وها أنت تعيدين نفس العمل.. اذهبي، فأنتِ حرّة.

تصلّبت آمال في مكانها، مدهوشة أمام احتجاج ماسينيسا، وقد انحرفت شفتاها إلى اليسار وكادت تقف على رؤوس أصابع قدميها من الغضب:

- كان الأجدر بك أن تفكر قبل ضرب أخي بتلك الوحشية وإرساله إلى المستشفى، كيف تريد مني أن أخالف أسرتي

وكل ما تبقى لي من أجل متشرد مثلك؟

توقف الاثنان عن الصراخ، وكانت آمال تلهث، وتَملّت النظر في وجهه وحاجبيه المنخفضين وشفته السفلى المنحنية باستســلام إلى الأسفل، وندمت فورا على كلمتها الأخيرة.. ولكن الأوان قد فات، فقد لفت انتباهها في تلك الأثناء امرأتان كانتا تعبران المدخل وتشقان طريقهما نحوهما بثبات. اضطربت آمال لدى رؤيتهما. كانت الزهرة وسعاد تنظران إلى آمال والتي احمّر وجهها خجلا، تنحنحت وعملت بجهد مضاعف لتضبط صوتها.

- مساء الخير خالتي.

كادت تتلعثم وهي تتفوّه بهذه العبارة، مانعة نفسها من النظــر مباشرة إلى وجهي المرأتين اللتين عيّرَتاها بنظرتهما النسائية الخبيرة:

- اعذروني، أنا ذاهبة لمتابعة العمــل.. إن احتجــتم لشــيء فسأكون في المكتب على يسار المخرج.

ثم قفلت راجعة من حيث أتت، تاركة سحابة من التســاؤلات حامت فوق رؤوسهم جميعا.

- ما بك ماسي؟ هل حدث شيء ما في غيابنا؟

وضعت سعاد قفّة ينبعث منها شذى رائحة طيبة فوق المنضــدة المجاورة، ثم التفتت نحو الباب بارتباك لتتأكد من مغادرة آمال.

- لا شيء، فقط أحس بضيق في التنفس، قال الطبيب أنه من أعراض المرض.

"كيف لها أن تلومني على جرم وخيانة قام بها أخوها ميلــود؟ ذلك الخائن الذي تسبب في هلاكي وتدمير مستقبلي، هل بعد كل ذلك الظلم أُلام وأكافأ بالنكران للجميل؟ هي تعلم أنّ أخاها من

خدع وتمرّد عليّ في ذلك الجراج. اتفقنا كالإخوة، ولم يكن بيننا عقد؛ لأنّ الأخوّة الحقيقية لا تحتاج إلى إثبات ولا إلى عقود. وهكذا بدأنا العمل في ذلك الجراج المشؤوم. خانني.. وها هي الآن تتركني وحيدا، إنها خيانة رغم كل شيء.. خيانة للصداقة وخيانة للإخلاص.. خيانة لعُمْرٍ ضاع ولن يعود. أنا الذي لم أنتظر منها أكثر من كلمة طيبة...".

نظرت إليه الزهرة باهتمام مشوب بقلق امتزج مع شعور بالخوف. لم تكن تعلم مما هي خائفة بالتحديد. هل تخاف أن يسألها ماسي عن مصدر المال الذي اشترت به كل تلك الفاكهة والمأكولات التي لن يتذوق منها شيئا؟ أم عن تلك البدلة الجديدة التي تضعها الآن بجانب السرير مع ابتسامة خالية من الفخر اعتاد رؤيتها على محياها بعد كل هدية منها؟ جالت بنظرتها الغائمة على وجهه الأبيض الخالي من شعر الحاجبين. كانت قبّعته الصوفية تحجب فروة رأسه التي تساقط منها الشعر وبدا وجهه شاحبا. وكشعلة انطفأت أطبق جفنيه لوهلة ثم فتحهما على مشهد آخر سيكون الأكثر قتامة في كل حياته.

- كيف حالك يا ابني؟

لفتت هذه الجملة انتباه دحّو الغارق في السهو، وكان ينظر في تلك الأثناء إلى الزهرة بفضول واهتمام كبيرين وكأنه يرى جنّية أمامه، وبادلته هذه الأخيرة نظرة باسِمة. حاول ماسينيسا أن يغمز لها سرًّا ليُحذّرها من العبث مع ذلك الشخص، ولكنّها لم تره يفعل ذلك، بل تمعّنَت في شكله متذكرة نفسها هذا الصباح. والحقيقة أنّها لم تستطع النظر إلى ماسي طويلا خِشية ألا تمْنع نفسها من البكاء أمامه.

- جيّد.. ممتاز.. شكرا خالتي.
- لا شكر على واجب.. إن احتجت لشيء فقل لي.
- حسنا.. أريد بعض الفول السوداني.

التفت ماسي برأسه الثقيل وسدد إليه نظرة حادة من عينيه المتعبتين، ولكن دحّو كان منهمكا في التعبير عن ملذاته.

- وماذا أيضا؟
- شاي.
- أمي كفانا.. إنه لا يدري ماذا يقول.
- ماسي.. دعني..

ثم عادت تنظر إلى دحّو وشفتاها منفرجتان، وقد تحول الحزن الدفين داخل عينيها إلى بريق عندما لاحظت بعض أغراض ماسي داخل قفّة دحّو المصنوعة من نبتة الدوم.

- يسرّني ذلك ابني.. سآتي لك بهما بعد نصف...
- أمي..

تكلم ماسي بصوت خفيض ولكن الزهرة قاطعته:

- دعني على الأقل أكفّر عن ذنوبي في هذه الدنيا.. الفتى مسكين، ويبدو بحاجة لمن يعتني به.

-5-

في الطرف الآخر كان حسين يستلقي على ظهــره يحــدق إلى السقف تارة وطورا إلى جانبه. كانت سعاد تقف هنــاك بقوامهــا الأسطوري وشعرها المنسدل على كتفيها. تبــادلا الألحــاظ لعــدة مرات، ولولا ماسي لتحدث إليها، ولكنها رفعت يدها ولوّحت بهــا نحوه ثم ابتسمت، وقد أحسّ حسين بالنبض يــزداد داخــل قفصــه الصدري. وضع يده على الجرح الذي لم ينــدمل بعــد وفي أذنيــه سماعتان مصغيا إلى أغاني سعاد ماسي، شعَر بخفقان رهيــب داخــل صدره وكأنّ قلبه يرقص على إيقاع الموسيقى. (**موجة تجيب موجة.. موجة.. وأنا حبيبــي ما جاء...**). رفعتْ يدها لتبعــد خصــلات شعرها الكستنائي إلى جانبــي صدغها، ولكنه عاد إلى مكانه وكأنّه تحت تأثير حركة المد والجزر، أعادت الكَرّة فظهرت أذنها اليســرى صغيرة متّصلة بعنق أبيض كالحليب، واســتطاع أن يلمــح القــرط الفضي الذي زاد بشرتها نقاوة. لم يدُم ذلك المشهد حتى عاد الشــعر إلى مكانه مغطيا صدغها الأيسر وصفحة من رقبتها. (**موجة تجيــب موجة.. موجة.. وأنا حبيبــي ما جاء.. وحدي فــوق الرمــل.. الرمل.. غير فيك نتخيل.. نتفكــر في الأيــام، اللــي جــازت كالأعوام...**). وسط كل هؤلاء الناس داخل الغرفة أحسّ حســين نفسه في غربة قاسية، وسط الفلاة بين رياح التيــه يعــيش غُربــة المشاعر، غربة الحياة وانتظار المأمول، ولكن نظرة واحــدة.. نظــرة

واحدة كانت كافية لأن ترده من أقصى أصقاع الأرض إلى موطنه.. بأن ترُدّه إلى ذلك العالم الذي تاق إليه، ذلك العالم المليء بالورود والشمس المتوقفة عند الأفق إلى الأبد.

رأى والدة ماسي تغادر الغرفة بعد أن تحدّثت مع دحّو قليلا، ثم قامت سعاد بمساعدة أخيها على تخطي المسافة بين السرير والمرحاض.. (**وحدي تحت الشمس.. وحدي تحت الشمس غير عليك نحوس.. نتفكر في الأيام.. نتفكر في الأيام اللي جازت كالأعوام**...). أغلق ماسي المرحاض على نفسه وعادت سعاد إلى جانب السرير تنتظر خروجه، وفي تلك الأثناء دخلت الغرفة امرأتان ورجل يعتمد في مشيته على عكاز مُطرّز بخطوط فضية اللون، ويضع فوق رأسه طاقية، يرسل لحيته البيضاء التي مصّت كل بياض وجهه؛ لأنه بدا متفحّما ويابسا بسبب التغضنات التي رسمها الزمن عبر ملامحه ذات الستين خريفا. يسبقه عكّازه في مشية عسكري متبخترة في لباس قديم الطراز؛ سروال كاكي يصل حزامه فوق البطن ويكاد يبلغ الصدر، كانت تبدو ملابسه بالية ولكنّها مكوية بعناية. المرأتان اللتان سبقتاه كانتا بجانب دحّو، إحداهما في بداية الخمسينات والأخرى في نهاية الستينات. وجلس كلاهما على حافة السرير نظرا لضآلة حجمهما. المرأة الأصغر سنا وضعت قفّة مزوّدة بالطعام على الأرض، ثمّ باشرت بترتيب أغراضه واستفسرت بصوت مكسور وخفيض إلى أقرب شخص كان بجانبها:

- متى جاؤوا به إلى هذه الغرفة؟ وجَّهَت سؤالها لسعاد التي كانت تقف على مقربة من حسين.
- البارحة مساءً.

أجاب حسين عوضا عنها.

التفتت المرأة إلى دحّو وأخذت تمسد على رأسه:

- أرجو ألا يُسبّب لكم أي مشكل في هذه الغرفة.. هو خلوق وصبور، ولكن في بعض الأحيان... لقد أثّر فيه المرض..

زالت ابتسامتها سريعا، ومن خلال نظراتها المعتذرة بدا أنها كانت تخاطب سعاد وحسين كأنّهما زوجين. التفت حسين إليها وقال:

- تبدين جميلة هذا اليوم..
- شكرا لك.

شعر بخجلها وأراد أن يخفّف من انفعاله:

- هل الأمور بخير سعاد؟
- الحمد لله.. وأنت هل تشعر بتحسن؟

شعر أنها تحاول تبديل موضوع الكلام.

- الآن فقط في هذه الدقيقة بدأت أشعر بتحسّن كبير، وأخشى أن لا يدوم طويلا..
- إن كنت تريد ذلك فسيدوم طويلا..
- وهل تريدين أنت ذلك؟

تحرّكت عيناها نحو باب المرحاض، ثم حوّلت نظرها إلى حسين ويداها متشابكتان أمام خصرها الشبيه بتاج زهرة برية:

- لا أدري، هذا يعتمد على نوع مرضك وإرادتك في الشفاء..
- أريد أن أشفى وأن أعيش من جديد، ولكن الأمل هو الأهم.. شيء ما يجعلني آمل في الحياة وأرغب فيها..

- يمكنك أن تجد الأمل إن بحثت عنه..
- في الحقيقة إنه داخل هذه الغرفة.. لقد وجدته..

التصق نظرها بنظره وارتعشت شفتاها النديتان، وقبل أن تنطق أول حرف سمعت طكة الباب وهو يُفتح، خرج ماسي من المرحاض فذهبت نحوه لتساعده على الاستلقاء والتمدد على سريره.. كان يبدو متعبا، جزء من وجهه أرْبد، ثم ما لبث أن عاد اللون الأصفر ليطغى على لون وجهه من جديد، وكأنه محارب شارك في معركة الزعاطشة التاريخية وها هو يخرج منها جريحا مُضَرَجاً بالكدمات.

عادت الزهرة بعد نصف ساعة تحمل كوبا من الشاي وحفنة من الفول السوداني ملفوفة داخل ورق الجريدة. لم يستطع حسين أن يبعد نظره عن سعاد التي شابكت بين ذراعيها أمام صدرها وهي تحدق إلى الجدار المقابل، رفعت يدها دون أن تبدّل وضعية ذراعيها لتضعها على رقبتها وتلمس جزءا غير يسير منها، راقب حسين انزلاق يدها الرّقيقة الأصابع على جيدِها الناعم وكاد ينطق من التأثر.

- صباح الخير. سامحوني..

وضعت الزهرة كوبا ورقيا ساخنا مع حزمة ملفوفة بالورق:

- جلبت له قليلا من الشاي والفول السوداني.

ابتعدت الزهرة وعادت إلى جانب ماسينيسا، ومن هناك خاطبت العجوزَ التي تقف بجانب دحّو:

- إنه فتى طيب.. أتمنى له الشفاء.
- لماذا أتعبت نفسك يا أختي؟ شكرا لك.. شكرا لك..
- لا بأس.. لا بأس.. العفو.

التفتت الزهرة وقد عاد إليها النور من جديد، وأحست بالبهجة عند دخولها للغرفة، ولكنها وهي تنظر إلى ماسي رجع وحش القلق ينهش أعماقها من جديد. داهمها ماسينيسا بسؤال مفاجئ كانت تودّ تجنّبه بأي طريقة:

- أين تبيتون الآن أمي؟

تصنّعت مظهرا جادًّا وصادقا دون أن تمنع ارتعاشة رموشها المتوترة.

- لا تشغل بالك بمثل هذه الأمور.. تدبّرنا أمرنا أنا وسعاد، وتحدّثنا إلى عثمان جارنا القديم في المنطقة الثامنة ليبحث لنا عن مسكن ملائم من غرفتين.. إنه يعمل في مجال السمسرة. نظرت سعاد إلى أمها بعينين واسعتين وفم مفتوح، وفي لمحة قفز بصرها على وجه ماسي لتَجُسّ نبضه. تحكّمَتْ في أعصابها لمرور الكذبة بسلام، ويبدو أنّ ماسي قد ابتلعها جيدا:

- أمي، لا شيء بالمجّان، كيف حصل الأمر؟ عثمان جشع وأعرفه جيدا، هيا أخبريني الحقيقة، ماذا قلتِ له؟ هاه؟

تزحزح جسده وسوّى نفسه فوق السرير متّكئا على نمرقته المزركشة، وعندما وجد وضعا مريحا حرّك يديه في الهواء كممّثل إغريقي:

- لماذا أنت صامتة؟ هاه أخبريني.. أم أنّ المخادع مثّل عليكما دور المساعد.. لأنه إن تجرّأ على استغلالكما فسأقتلع حنجرته.
- يا ولدي.. اِهدأ ولا تُغضب نفسك.. لأنّ ما يهم الآن هو أن تشفى و...

انطلقت صرخة مدوّية في تلك الأثناء قطعت كل حديث آخر، وجعلت كل من في الغرفة يلتفت إلى الزاوية القصوى باتّجاه المرأتين اللتين ابتعدتا عن دحّو وكأهما أمام وحش مفترس.

- لا أريد أن أراكم...

لوَّح بيده فأصاب الكأس وانسكب الشاي على الأرض مبلّلا جزءا من ملابس الشيخ فأحسّ به ساخنا.

- غادروا.. لا أريد أحدا هنا.. هيا اغربوا عن وجهي.. لا أحتاجكم...

- تريّث يا دحّو..

تكلم الشيخ بصوت مبحوح رافعا العصا قليلا فوق الأرض وكأنه يتكلم بها.

- خذهما واذهب أنت أيضا.. أنا لست حفيدك ولا تربطني بك صلة بعد الآن..

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض ثم التفتوا نحو دحّو الذي برزت عيناه كحيوان مذعور، فتراجعوا منسحبين من الغرفة ببطء يُعزّي بعضهم البعض بتمتمات مبهمة.

-6-

أظهرت سعاد ابتسامة باهتة وهي تُوَدّع حسين بنظـــرة ثابتـــة وسريعة، وكأنّها تريد قول شيء ما. غادرت الغرفة وهي تتّبع والدها حاملة القفّة التي استبدلت فيها الأواني المتّسخة. أحسّ حسين بضيق في النفس ولم يستطع أن يُوجّه تفكيره نحو شيء آخر.. كلّ فكرة في دماغه كانت تنهي في الأخير إلى سعاد، مثل شبكة العنكبوت.. كل الخيوط تتشابك وتنحني ولكنها في الأخير تقود إلى المرْكز. أمّا دحّو فقد تشاغل بأغراضه، وأخذ يُصفِّر بفمه وكأنه ليس ذلك الشـــخص الثائر قبل بضع دقائق. نظر نحو ماسينيسا الغارق في التفكير لبرهـــة، ثمّ حمل حفنة من الفول السوداني ووجّهها نحو ماسينيسا:

- ماسي..
- ماذا؟

أجاب ماسينيسا بجفاء.

- خذ قليلا من الكوكاو.. إنه لذيذ..

لم يعره ماسينيسا ظاهريا أيّ انتباه وظل صامتا.

- هل أنت غاضب؟
- املأ به رجليك.. إنه مفيد مع النساء..

"هذا هو الكلام الذي كان ينقصني؛ يناديني باسمي وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، ثم يعرض عليّ الأكل.. كل هذا يحدث بسبب أمـــي، هي من جلبت له الفول السوداني ليملأ به ركبتيه ويفيده مع النساء.

لو قلتُ لها ذلك لما أشفقت لحاله.. الخبيث.. الْعَبْها مجْنون تشْبَع خُبْز.. يا له من مهرِّج.. عليه أن يصمت حالا وإلا.. أملأ به ركبتي؟ املأ به مؤخرتك.. آه من هذا الشخص الذي هنا..

الغرفة مكتظة وأحتاج للراحة.. لو أُعزل في مكان قصيّ حيث لن يراني أحد على هذه الحالة.. الكدمات تملأ جسدي ولا أريد لأحد أن يراني على هذه الحالة.. لقد سئمت من الشفقة.. سئمت من المرض.. سئمت من الحياة بهذا الشكل.. أيّة حياة أعيشها الآن وأي أمل انتظره؟ أنا غبي حقا لأني صدّقتُ نفسي، الكل يعلم أنّي منتهي لا محالة.. ولكن متى؟ أسبوع؟ شهر؟ إلى متى سأظل أنتظر؟ إلى متى عليّ أن أستحمل كل هذا العذاب؟ مللت من انتظار الموت.. لو يأتي دفعة واحدة فهو أفضل.. أنا مسْخرة للجميع.. الكدمات تملأ جسدي وعائلتي متشرّدة.. أنا على الأقل أنام في المستشفى أما هما فأين؟".

انتبه حسين إلى الشخص الذي دلف إلى الغرفة في تلك اللحظة، رآه يقترب بخطوته الواثقة وهو يحمل كيسا مملوءًا بالبرتقال.

- حمزة..
- أهلا حسين، كيف حالك؟
- أفضل منك بكثير.

هذا الوجه الرجولي والصبياني في الوقت نفسه جعل من حسين يسترجع بسمته الحقيقية، كان في عقده الرابع، يولي عناية فائقة لمظهره، يحلق ذقنه بعناية، ويشذب سالفيه بدقّة ليصلا إلى أسفل فكّه القوي. أدار عينيه الرّماديتين متفحّصا صديقه باهتمام، ثم انحرفت زاويتا فمه نحو الأعلى في ابتسامة وقورة:

- هناك سر ما؟

غمز لحسين وتطلّع إليه بنظرة مستقصية عن السر راسِما على وجهه ابتسامة رزينة. ثمّ غيّر حسين دفة الحديث:

- لا سر ولا هم يحزنون. قل لي، أين كنت؟ لماذا لم تأتِ باكرا؟

هزّ كتفيه دون مبالاة بعد أن وضع الكيس فوق المنضدة.

- ها أنا مكتّف اليدين أمامك يا أخ العرب..

كان حمزة يرتدي سروال جينز أزرقَ ليليّ، وقميصا أسودَ ذا ياقة من الصوف، فوقه سترة جلدية بنية استعملها طويلا، حتى بانت منها تجاعيد غيّرت من تضاريسها قليلا.

- عفوا، لقد نسيت.. أنت أمازيغي ولست عربيا.
- أنت مخطئ، أنا فينيقي الأصل لأني أهوى السفر.

حكّ أرنبة أنفه بسبّابته دون أن تغادره تلك الضحكة القصيرة، وانتظر تلك الكلمة التي توشك أن تتشكّل في فم حسين.

- أفضّلك أمازيغيا؛ لأن تمازيغ تعني الرجل الحر.. أما الرّجل الفينيقي فكان عبدا للمال والتجارة.
- كلّنا عبيد لأشياء ما.. قد تكون الغريزة أو الاعتقاد بشيء ما، وفي كل الأحوال نحن عبيد لهذا الجسد الذي هو بحاجة للمادة ليستمر.. نحن نريد الاستمرار، لذلك سنظل عبيدا حتى نموت.
- كيف أحوال صحتك؟ تبدو بخير.. ولكنك أقلقتني بحديثك هذا..

وضع حمزة يديه داخل جيب سترته الجلدية ثم لاقى بين جانبيْ السترة لتغطّي بطنه وصدره، وانكمشت ركبتاه تعبيرا عن شعوره بالبرد.

- أحِسُّ نفسي متعفنا في هذا المكان.. تخيّل أنّـــي لم أكتـــب مقالا واحدا منذ شهرين؟
- لا تقلق، سيجد القرّاء طريقهم إليك عندما تستردُّ عافيتك وتبدأ في الكتابة مرة أخرى.
- هل الأمور بخير هناك؟

مطّ حمزة شفتيه مُرجِّحا ثقله من رِجْلٍ إلى أخرى:

- لم أعد أعمل هناك، انتقلت للإذاعة الوطنيـــة وأقـــدِّم الآن نشرات الأخبار.

حكّ فروة رأسه بمجموع أصابعه وهو ينظر إلى صديقه بوجـــه صامت وعينين سادرتين: **"فعلا، إنه ذكي، دائما ما كانت ســـعدية تقول أني أقل ذكاء منه.. ولكنه صديقي على كل حال، ولا يحـــق لي أن أكرهه بسبب ذلك.. صحيح أنه لم يعانِ من المضايقات التي عانيتها، صحيح أنه لم يقرأ مثلما قرأت، ولم يكتب بـــالجرأة الـــتي كتبتُ بها، ولكنّه في الأخير يعمل في الإذاعـــة الوطنيـــة بقلـــب مطمئن.. لو كنت أنا في مكانه لأصبح كل مـــا حـــولي رمـــادًا.. الصحافة مهنة الذل والشقاء في هذا البلد.. (أنت جبان لأنّـــك لا تفكر في عائلتك وتهرب من الحقيقة) هذا مـــا كانـــت تقولـــه لي سعدية.. آه يا سعدية أين أنت الآن؟ لم أهرب من الحقيقة يوما في حياتي، بل واجهتها بكل ما أملك من قوة، وها أنا منسي في هـــذا المكان القذر.. عشرون سنة من الكتابة والكفاح وماذا ربحت؟ لا شيء.. خاطرت بحياتي وتلقّيت تهديدات، ورغم ذلك بقيت أكتب باستمرار.. ما نفع تلك القيم الآن؟ وما الذي جنيته من الكتابـــة عن الحرية الفكرية والتطرف الديني؟ ما فائدة العلمانية التي دافعت**

عنها؟ ما فائدة التسامح والتعايش اللّذيْن روّجت لهما في الصحف هه؟ حلُمْت بدولة تحترم أفرادها وحريتهم الشخصية، دولة تحمي الشعب وكل موروثاته الثقافية والدينية.. هه ماذا ربحت الآن؟ لا شيء. أين أنا الآن؟ مُلقى في هذا المستشفى بدون ضمان اجتماعي.. من سيتذكر الآن ما قمت به من أجل الحرية ومن أجل الدفاع عن حقوق الإنسان؟ لا أحد.. حقوق الإنسان؟ ههه أنا أهذي فعلا.. لابد أنني أغبى إنسان لأوهم نفسي بهذه الحقوق.. نسُوا حقي حتى في الحياة.. حقي في العمل بدوام مستمر وبراتب محترم يكفل مستقبلي ويصون كرامتي كإنسان.. كيف لم أنتبه إلى كل ذلك من البداية؟ العبثية والفوضى هي من تسنّ قوانين هذا العالم، كان عليّ أن لا أحارب أحدا، كان عليّ أنْ أنْقادَ وأكتُب لصالح أحد ما كما فعل جميع الصحفيين في هذا البلد، (لماذا تمشي عكس التيار؟ هل تظن نفسك أذكى من الجميع؟ أنت لست ذكيا أبدا، كل ما في الأمر أنك طموح وتملك إرادة قوية.. ولكنك لست ذكيا...) هذا ما قالته المرحومة عدة مرات، ولم أكن أُصغي إليها بسبب غروري وهي محقة في آخر المطاف.. الآن عرفت أنها لم تكن تخطئ في ملاحظاتها، فأنا لست ذكيا بما فيه الكفاية، أمّا طموحي وإرادتي فقد ذهبا أدراج الرياح، ولن يغنياني من الآن شيئا..

عشرون سنة من الكتابة والكفاح وماذا ربحت؟ لا شيء.. الأذكياء هم من يملكون الثروة الآن في هذا البلد، أمّا الحمقى أمثالي وأصحاب المبادئ التافهة فكل في همومه.. من بدّل المهنة بدّل، ومن انتقل إلى حزب معين انتقل، أمّا أصحاب المبادئ

فهاجروا بعيدا ولاذوا بالصمت للأبد.. أنا الذي بقيت وحيدا هنا، أنا الحشرة الحقيرة والوحيدة التي أرادت أن تظل ملتصقة بالوحل.

ما نفع تلك القيم الآن وقد خسرت كل شيء؟ ذلك اليوم المشؤوم.. كم من سنة مرّت على ذلك اليوم؟ عشر سنوات؟ أكثر؟ ذلك اليوم حين انقلبت بي السيارة تغيّر كل شيء، انقلبت حياتي رأسا على عقب، أمّا طموحي وإرادتي فقد ذهبا أدراج الرياح، كل شيء تلاشى فجأة، أستيقظُ وحيدا والألم ينخر عظامي، أمّا ساقي اليسرى فكانت معلّقة على سارية ثُبِّتت فوق السرير؛ لتحمل ثقل ساقي المشدود بخيط رُبِط في نهايته دلو ثقيل. لم أستطع رؤية من حولي جيدا بسبب تلك الضمادات التي غطت رأسي ووجهي، جُبِّرت ذراعي اليسرى وثُبِّتت على جانب السرير. عندما سألت عن زوجتي المسكينة وابنتي فلّة لم يجبني أحد.. ظل الجميع يتحاشى النظر إليّ مباشرة. حتى أتى ذلك الطبيب بوقاره وظلّه الثقيل ليرمي الخبر المشؤوم على وجهي مباشرة، لقد ظلّ وجهه جامدا وهو يزفّ إليّ تقريره اللعين (زوجتك توفِّيَت رحمها الله، ولكن ابنتك بخير.. فقط أصيبت بجروح بسيطة وستخرج غدا من المستشفى). عندها لم أعد أذكر شيئا.. فقط الدموع ملأت عيني وجعلت منّي مشارا للشفقة والرأفة.. اختلط الألم الحاد لساقي وذراعي فأغمي عليّ عدّة مرات في ذلك اليوم..

لا أصدّق أن ذلك حدث منذ عدة سنوات! وكأنه حدث بالأمس فقط.. لازلت أذكر تلك الوجوه التي كانت تتناوب على غرفتي.. أمي وأحمد رفضا أن يجلبا لي فلة وأنا في تلك الوضعية،

قالا أنها لا تزال تعاني من الصدمة وهي تزور طبيبا نفسيا.. ابنتي الوحيدة التي أحببتها كما لم أحب أحدا في حياتي.. هي كل ما تبقى لي.. ولكني كنت واهما.. فهي ترفض رؤيتي حتى اليوم.. أنا واهم ولم يبقَ لي أحد.. هي ترفض أن تسامحني على ما فعلته بحياتي.. هي تعلم جيدا أنها تعاقبني باختفائها.. تعاقبني على كل ما تسببت به من أخطاء.. ولكني أستحق ذلك.. أستحق بجدارة أن أعاقب. ابنتي تنقلب ضدي، وها أنا مقبل الآن على الموت ولم تزرني بعد، لم تأتِ حتى لترى والدها في أيامه الأخيرة.. "فلة".. لم أرك منذ سنوات، أين هي الآن وماذا تفعل؟ كيف أصبحت بعد كل هذه المدة؟ فلّة ابنتي الوحيدة.. انقلبت ضدي، وها أنا مقبل على الموت ولم تزرني بعد.".

- هل العمل هناك جيد؟

سأل حسين.

- نعم أفضل، ولكن مع قليل من الضغط.

مرّت فترة صمت قصيرة كان حمزة ينظر خلالها إلى وجه صديقه النحيل تارة ثم إلى حذائه الذي لطخه الوحل تارة أخرى.

- هاي.. أنا هنا.. في أي شيء تفكر؟

لوّح حسين بيده أمام وجه حمزة، وقبل أن يجيب كان أحمد يقف أمامهما، يحمل قفّة مليئة بالطعام الذي أعدته زوجته سمية:

- السلام عليكم.

تصافح الثلاثة وتبادل الرجلان كلمات اللباقة، ثم وضع أحمد القفّة بجانب كيس حمزة وعاد ليقف بجانبه، كان هناك شيء في ملامحه المنقبضة، وتقطيبة حاجبيه تُنذر بشيء عدائي تجاهه:

- كيف حالك؟ لم نرك منذ مدة طويلة..
- هنا دائما، فقط أصبحت منهمكا في العمل أكثر و لم أعد أخرج من البيت إلا للضرورة..
- ليس هناك أفضل من العمل.. بالمناسبة، لقد قال أحد الأصدقاء أنّك كنت تكتب مقالات تدافع فيها عن الانحلال الخلقي والشذوذ الجنسي..
- هل قرأت لي شيئا مما كتبت؟
- لا في الحقيقة.. ولكنّي أعرفك شخصيا، وأنت ابن عائلة ووالدك حاجٌّ لبيت الله، ولا يجب أن تلطّخ سمعة عائلتك بهذه الكتابات التي تدافع عن هؤلاء.. لقد أفسدوا المجتمع، وهم يستغلونك للدفاع عن هذه الأشياء التي يحرّمها ديننا الحنيف..
- المثلية الجنسية لا علاقة لها بالأخلاق يا صديقي، إنها حالة بيولوجية بحتة ليس لنا فيها أدنى قدرة للتحكم بها.. حتى لو فرضنا أشد العقوبات فإنها ستبقى، الله هو من خلقهم على هذا الشكل، فلماذا تريد أنت تغيرهم؟ ثمّ إنهم بشر مثلنا.. ألا ترى أن نعاملهم كما نعامل أي شخص آخر؟ لو...

كان يودّ قول شيء آخر ولكنه عدل عن قراره، وسحب فكرته بعد أن رأى نوال تتبختر بمشيتها البرجوازية، وتتأبّط حقيبة يد جلدية بلون الكريما بنفس لون خمارها، ترافقها امرأة معتدلة القامة، ترتدي نقابا أسود اللون يغطي أغلب جسمها إلا جزءاً يسيرا من وجهها ليُمَكِّنَها من الرؤية أثناء المشي. كانت تمشي بتردّد مختبئة خلف نوال، وتنظر بتوَجُّس إلى زوجها الواقف كالسيف ينتظر بفارغ الصبر مغادرة حمزة.

- المعذرة، سأنصرف الآن.

التفت حمزة نحو حسين:

- سأمر غدا لأراك في نفس الوقت.. هيا وداعا.

تعمّد ذكر الوقت ثم ابتعد ليغادر الغرفة.

لم يكن ليخْفى على حسين الحركة السريعة لعينيْ أحمد وحركة يديه القلقتين داخل جيبه مرة، ثم تشذيبه للحيته بأصابعه الغليظة.

- هل أمي بخير؟

سأل حسين وقد رأى شبح تقطيبة تَمُرّ على ملامح أحمد:

"إنه ينظر نحوي بتردّد ماسكا لحية التيس تلك بقبضته القوية ليُخرج منها عصيرا من أحاديثه الثقيلة.. أعرفك يا وجه التـــيس.. أعرفك متى تكذب ومتى تقول الحقيقة.. ولكن أيّ كِذبة ســـيقولها لسانه هذه المرة؟ وأيّ حقيقة سينطق بها قلبه الغليظ؟ هل يمكن أن تكون أمي هي السبب؟ لا.. لا يُعقل، فهي.. ولكن ربّاه.. أخشى أنّ وراء تلك النظرة المخيفة خبرا ما، ثكلتك أمك يا أبا عنزة".

- ساءت حالتها ولكنها تشعر بتحسّن، لا تقلق نفســـك.. ستكون بخير.

تكلّمت سميّة لتضيف إلى كلام زوجها:

- أخذناها البارحة إلى طبيبها المعتاد وقال أنها تحتـــاج فقـــط لقليل من الراحة.. إنها ترهق نفسها بالصلاة أثناء الليـــل، وقد نصحها الطبيب بالراحة والنوم باكرا.

"المسكينة بعد عبادة خمسين سنة ليلاً نهارًا ستلحق بأبـــي في الجنة أخيرا.. الله في نظرها ليس أكثر من مراقب يعتلي عرشه فوق السماء ولا يضيّع صغيرة ولا كبيرة. ولكننا كحبّة رمل في شاطئ بالنسبة للأرض والكرة الأرضية بكاملها.. كحبة رمل في صحراء

شاسعة في درب التبانة. والمجَرّة بدورها حبّة رمل أخرى في صحراء شاسعة لا حدود لها وتتسع مع كل ثانية تمر. هل الذي سيراقب كل هذا الكون الشاسع -وربما عدّة أكوان- سيكترث لهواجس كل شخص لا يعدّ شيئا بالنسبة للأرض فقط؟".

- هل تتناول دواءها بانتظام؟ إنها تنسى في كثير من الأحيان حتى إطعام نفسها..

سأل حسين دون أن يُهْمل تعابير وجه أخيه، ولمح نوال في لباسها الأسود الأنيق وحقيبة من ماركة "سلين باريس"، ترتدي خمارا بلون الكريما كامتداد لإشراقة بشرتها الفاتحة.. كانت تبدو ساهمة، تفكر بشيء آخر..

- لا تقلق.. نحن نعتني بها الآن.

أجابت سميّة بكل ثقة.

في تلك الدقيقة دخل إلى الغرفة أفراد جدد، وأحاط بماسي شابّان يرتديان قمصانا خضراء كتب عليها بخط أبيض (فاعل الخير)، حَدَجَهُما حسين بنظرة قاسية، وخاصة عندما شاهد الكاميرا والآلة المصورّة التي وجّهاها نحو ماسينيسا.

"**ما الذي يفعله هذان الشابان هنا؟ وما الذي يقولانه؟ دعوه إنه متعب، ألا يرون لون وجهه المصْفر وكيف نحف عوده وأصبحت رقبته كغصن يكاد ينكسر لثقل رأسه؟ آه لن أسمح لأحد بالاقتراب منّي إنْ أنا أوشكت على الموت. المسكين.. ماسي لا حول ولا قوة له، وها هم يُعِدّونه للتصوير وكأنّه سيُجري عملية جراحية أخرى.. كان عليك أن تخبرني يا ماسي، كان عليك أن تطلب المساعدة من جهة أخرى لا من هؤلاء.. سينشرون صورتك،**

وسيتسلّى الناس بك لأيام، ثم ينساك الجميع وكأنه لم يكـــن لـــك وجود. كل ما يُهِمُّهم ما الذي حدث لك كقصة مؤثرة وكم عـــدد المشاهدين الذين يمكنهم أن يحقّقوه.. الذي يفعل الخـــير يتجنّـــب الأذى أولا، وهؤلاء سيبدؤون مساعدتك بإيذائك، وبعد كل هـــذه التمثيلية سيتقرب منك متطوّعون محتملون من الأرجح أنهم أربـــاب مال، وسيكون ظهورهم أوْلى أمام الناس. علـــيّ أن أمـــنعهم مـــن تعريضه للذل أمام المئات والآلاف من الناس. ولكن ماذا ســـأقول لهما؟ وما دخلي في الأمر إن هو طلب ذلك؟ ربما لا يعلـــم بـــذلك مثلي، ولكن لا يحق لهم فعل ذلك على كل حال. ليس لدي الحـــق ولا أعرف من طلب منهما الحضور.. دعوه إنه متعب، دعـــوه إنّ لون وجهه مصفر.. ألا ترون ذلك؟ لماذا يظهرون متأخرين؟ حـــتى تستنزفنا الحياة وتجرّدنا من كل ما نملك يأتون مسرعين لاختطـــاف آخر اللحظات منا، وكأنهم يقومون باسترجاع ما فـــات. علـــيّ أن أطلب منهم الأبتعاد عنه وتركه وشأنه. ها هم يعدّونه للتصوير، آه لن يجرأ أحد على الاقتراب مني إن أوشكت أنا على الموت.. ماسي المسكين.. كيف يبدو.. وكيف ينظر إلى العدسة بحيرة طفل صـــغير، إنه غير واع لكرامته الضائعة، ضاعت حياته والآن ســـيودّع مـــاء وجهه إلى الأبد. إنه مضطر ومحتاج ولكن ليس هكذا، لـــيس أمـــام الملأ يا ماسي، أليس تعريض ألمه أمام الناس يعتبر ذلا له؟".

- هل تحتاج لشيء آخر؟

سأل أحمد دون أن تتلاقا نظراته مع حسين الذي كان يشـــاهد ما يحدث لزميله في الغرفة.

- لا، شكرا.. سأقول لك إن احتجت لأي شيء.

-7-

- أُدعى ماسينيسا يسعد، والدي توفي رحمه الله إثر حادث سير وتركني صغيرا رفقة أختي وأمي، وهي من تنهض بأعباء العائلة كلها، ولكن ذلك لا يكفي.. فنحن بلا مأوى الآن و...

توقف عن الكلام لحظة ثم حوّل نظره عن الكاميرا نحو الشابيْن اللّذيْن حثاه على الاستمرار بإيماءات مختلفة.

- أنا داخل مستشفى مسلم الطيّب.. قسم أمـــراض الـــدم.. أعاني من مرض في الدم يدعى اللوكيميا.. هو خلل يصيب الدم ويفقده مناعته.. أما زمرة دمي AB– وهي نادرة نوعا ما، وبما أنّي أحتاج للدم فـــ...

انحبست الكلمة الأخيرة داخل فمه وابتلعها بمرارة وهو ينقـــل بصره من عدسة الكاميرا إلى وجهيْ الواقفين بجانبـــه، وقـــد تـــردّد مطولا، حتى نطق أحدهما مخاطبا عدسة الكاميرا بوجه باسم بعـــد أن دنى من ماسينيسا أكثر حتى تلامس كتفاهما:

"هو مريض بنقص المناعة، وزمرة دمه قليلة جدا، لذلك نطلب من المحسنين أن يساعدوه في سبيل الله ولكم الأجر إن شاء الله. كلّ قطرة من دم هي حسنة والحسنة بعشر أضعافها، أخوكم ماسينيســـا بحاجة للمساعدة وإلى إحسانكم وتبرعاتكم بكل ما تقدرون عليـــه من مال.. ألف دينار أو مئتان.. مهما كان المبلغ فلا بأس.. المهم أن نساهم في فعل الخير ونقف وقفة رجل واحد مع أخينـــا ماسينيســـا

ونطلب له الشفاء إن شاء الله. لا تنسوا أن تزوروا صفحتنا (فاعل الخير) على الفايسبوك انستغرام ويوتـــوب، وســـتجدون كامـــل التفاصيل هناك.. تحياتي لكم، نترككم في رعاية الله وحفظه."

ارتخى كتفا ماسينيسا وسقط رأسه الثقيل على الوسادة باستســـلام دون أن يقول شيئا، انكمشت ملامحه داخل وجهه وأصـــبح شـــاحبا كشحوب الغرقى، ضاقت عيناه وكشّر عن أسنانه لألم مفاجئ ســـرى في كامل جسده كالرعشة. راقب بعينيه الضيقتين الشابين وهما يوضّبان أغراضهما بهدوء، ثم التفت إليه أحدهما مخاطبا إياه بلهجة واثقة:

- سنعمل على أن يصل الفيديو إلى أقصى عدد من الناس.

"فضيحة أمام الملأ".

- ناس الخير متواجدون في كل مكان وسيرون الفيديو.

"سيتسلون بـــي في كل مكان".

- لا تقلق، ستجد المساعدة بالتأكيد.. لأننا فعلنا ذلك مـــع عدة أشخاص من قبل ونجح الأمر.

"إذًا أنا ضحيتكم المقبلة".

- هناك قلوب رحيمة.

"لأثير شفقتها".

- مسألة وقت وستجد الدعم الملائم.

"مسألة وقت وسأكون فضيحة بين الناس".

- نسأل الله أن يُشفيك.

"نعم، اِسأله ما شئت فلن يجيبك".

- آميييين.

"آمييين".

-8-

يعجز الرّجُل عن التفكير في شيء آخر حين يكون قلبه معلقـــا بامرأة طالما حلم برفقتها واشتاق لشذى عطرها. لا شـــيء يفـــوق اشتياق عودة الحبيب، ولا شيء يتسحقُّ الصّبْرَ كالصَّبْرِ على مَشـــاقِّ الانتظار. أمّا انتظار حدوث شيء مستحيل فيتطّلب قلبـــا متحجّـــرا مهمته هي ضخ الدماء فحسب. لم يستطع حمـــزة الـــتخلص مـــن ذكرياته التي شغلت باله في تلك الأثناء بينما هو جالس على كرسي من الإسمنت ينتظر بفارغ الصبر. تحرّكت قدماه في مكانهما بتـــوتّر، وأخرج يده من جيبه ليفرك جبهته بأصابعه. شغّل الأيباد واســـتمع للموسيقى منعزلا عن العالم الخارجي، وعينه على الباب الرئيسي أين يلج الزوار مبنى المستشفى، تتردّد في أذنيه إحدى المقـــاطع القديمـــة للشاب خالد:

"نتي سبابـــي وسباب بلايا، آي وعدي واااه

وعلى جالك نتي راني نسوفري.. واااه"

حطّ طائر كناري أمامه، نشر جناحيه الملوّنين في الهواء، ثم أخـــذ يقفز من مكان إلى آخر كأنه يؤدّي رقصة ما.. ينقر الأرض هنا ثم يقفز ليحطّ هناك، بدون جدوى يطير مبتعدا عند اقتراب أحد الأشخاص.

"أنا المريول ياانا شارب لاركول واااه"

اقتربت امرأة ترتدي سروال جينز أزرق ليْليّ يكشـــف عـــن ساقين بديعتين، تشبه في مشيتها لاعبات التنس الرشيقات.

"نتي سبابـــي وسباب بلايا آي وعدي وااه
وعلى جالك نتي راني نسوفري"

كانت تلك المرأة تتأبّط حقيبة وتضع فوق رأسها خمارا بلـــون الكريما، جعل بشرتها تحت ضوء النهار تشرق بوضوح. تسّمر حمـــزة في مكانه وهو ينتبه للمرأة التي وقفت أمامه.

- حمزة.. أعلم أنك لا تريد أن تكلّمـــني ولكـــن.. عنـــدي كلمات أودّ قولها لك قبل أن أغادر.

توقّفتْ لحظة تنظر إليه وقد أربكتها رؤية السماعتين في أذنيـــه ونظرته السادرة. نزعهما من أذنيه بهدوء وتركهما تتـــدلّيان فـــوق صدره العريض، وقد أظهر ظل عينيه عمق تأثره:

- آسف، لم أسمعك جيدا.. ماذا قلتِ؟

وضعت يدها على محفظتها ومرّرتها فوق جلدها المـــنكمش، ثم لاقت بين يديها أمامها في حركة استعداد:

- أريدك أن تسامحني على كل ما فعلته لك يا حمزة.. لم أقصد ذلك.. لقد افتقدتك كثيرا ولا أعلم ماذا أفعل..

ساد صمت طويل بعد هذه الجملة.

- بعد كل ما جرى؟! بعد أن تـــركتني وحيـــدا ومـــن دون سبب؟! ولكنّي لست حاقدا عليك على كل حال.. يمكنك المغادرة الآن.. أغربـــي عن وجهي.

سمع شهقة كتمتها بوضع يدها اليسرى على فمهـــا الصـــغير. كانت الدموع تسيل من مقلتيها كالسّيْل الجارف، وتوقّع أن يراهـــا تغادر فورا ولكنها بقيت صامدة في مكانها، يهتز جسمها الرقيق تحت شدة البكاء:

- أنت لا تفهم شيئا.. أنت قاس جـــدا.. لم أكـــن أدري.. كنت أحبك ولا زلت كذلك.. هل تعلم هذا؟ لا أستطيع أن أغيّر الماضي ولا أن أستردّ الأيام لأصحّح أخطـــائي.. لديّ المستقبل وها أنت أمامي الآن، لا شيء سيمنعني مـــن قول ما أريد.. إن كنت تريدني أن أغرب عن وجهك فلا بأس، ولكن أنصت لما أريد قوله أولا وبعدها افعـــل مـــا شئت.. كل ما أعلمه الآن...

توقّفتْ لوهلة وهي تشهق باكية تحت أنظار زوجين من الزوار مرّوا بمحاذاتهما، وبضعة رجال سلكوا ممرًّا آخر لمّا رأوهما على تلك الحالة. أمّا نوال فلم تكن لتنتبه لأحد في تلك اللحظة، وكأنّها تقف أمام قدرها وحيدة في هذا العالم:

- كل ما أنا متيقنة منه أني أحبّك وسأبقى دائمـــا أحبـــك.. وداعا..

قالت ذلك وغادرت بخطوات مسرعة مطأطئة الـــرأس تمســـح دموعها بمنديل ورقي. وقبل أن تجتاز بضع أمتار شعرت بيـــد قويـــة تلفّ ذراعها، استدارت وبقي وجهها مقابلا لوجهه ولهاثـــه يمـــس شفتيها وخديها المبللين.

- حمزة...

أطبق على شفتيها بقبلة طويلة دامت دهرا بأكملـــه. افترقـــت الشفتان أخيرا ففتحت عينيها ببطء كمن يستيقظ من سُبات عميق، ووجدت حمزة واقفا أمامها، يشدّ يديها ويخترقهـــا بنظـــرة متأملـــة وصامتة مصحوبة بارتعاشة أجفانه وحركة أهدابه الســـريعة، الـــتي وشت بوخز الدموع في عينيه. تراجع حمزة أمامها وكأنه يرتكـــب

جرما لا يغتفر، ودون أن ينبس بكلمة واحدة أحسّت بقبضة يديــه ترتخي قبل أن يبتعد بين أشجار القيقب الجاثمة على حافــة الممــر. وقفت مرتابة في موقفها غير متأكدة مما حدث لها منذ لحظات قليلة. التفتت حولها لتتأكّد أنها ليست في حلم.. وجدت أنها محطّ الأنظار.. على الجانب الأيسر همست امرأة تلبس النقاب لمرافقتها التي بدت هي الأخرى كشبح في رداءٍ أسود، ثم وجّهتا إليها نظرات اتهام صامت. ارتسمت على بعض الوجوه بسمات اســتهزاء والــبعض كشّــر مستنكرا، ولكن من حسن حظّها أن الأشجار ونبــات السّــرخس ستروا ذلك المشهد المثير. رفعت يدها وتحسّست بأناملــها شــفتيْها النّديتين.. مرّرت أصابعها على خديها ببطء وشــعرت بحرارتهمـــا. تشاغلت بتسوية خمارها فوق رأسها ريثما تهدأ عواطفهـــا، ولكـــنّ مشاعرها الفائضة لم تتوقف عن استدرار الــدمع مـــن مقلتيهـــا.. مسحتهما بمنديل ورقي وهي تميس بين أشـــجار القيْقـــب تراقـــب خطواتها غير المتزنة مبتعدة عن الأنظار..

-9-

شعر حسين بالدّوار ينتابه ورغبة في القيء لا تفتأ ترغمه على استنشاق الهواء بعمق. نظر إلى ماسينيسا مطوّلا دون أن يجرؤ على مخاطبته بشيء. **"هل يكون هو؟ هل من المعقول أن.. هل يكون هو بالفعل؟ لابد أن أكون مخطئا.. لا.. لا.. ليس هذا معقولا أبدا.. إنها اللعنة تلاحقني أينما أذهب.. هل يمكن للصّدف أن تحمل هذه المفاجأة؟ آه ليتني أكون مخطئا فيما أفكر.. ليتني أحلم.. لكني لست مخطئا.. لا.. لا.. فما أراه أمامي حقيقة.. إنها الحقيقة بعينها.. كل شيء حقيقي في هذا المكان.. الجدران حقيقية والألم حقيقي.. هذا السرير الذي أستلقي عليه حقيقي، أيضا حتى ماسينيسا حقيقي تماما.. إنه ابن ذلك الرجل ولست مخطئا.. لا.. لا يمكن أن أخطئ في ذلك الوجه.. مات والده في ذلك الحادث وترك وراءه ماسي وسعاد.. كيف لم أتفطّن إلى ذلك من قبل؟ كيف غفلت عن كل ذلك من البداية؟ ها هي النتيجة أمامي بعد كل تلك السنوات..."**.

كان يزداد نحولا بعد كل يوم. أرهقه التفكير والقلق واستبّد به الإعياء، وببطءٍ امتدّ خياله ليتّسع ويمتزج بذكريات قديمة، ودون أن يدري انزلق كل ذلك إلى حُلمٍ غريب.. حلم سحبه إلى أعماق نفسه حيث ترْبض الذكريات بهدوء وفي صمت عميق. استغرق في النوم متمدّدا على ظهره وقد تشابكت يداه فوق صدره. سمع خطوات

تقترب بِتُؤْدة وعمّ المكان حفيف أشجار وارِفة. اِرتمى السهل تحت هضبة مرتفعة تُطِلّ على منظر لم ير مثله في حياته أبدا، يحيط بخصره نهر ذو مياه عذبة وداكنة الزرقة.. رأى هناك امرأة تمشي على أكتاف النهر وترفع تنّورتها فتظهر ربلتا ساقيها مشدودتين وناعمتين، تلاعب قدماها المياه لترشّها في الهواء حيث تتلألأ تحت ضوء الشمس كفقاعات ملونة. تميس بقَدِّها الرشيق متقدّمة نحو هضبة مفروشة ببساط أخضر من العشب. حسين الذي وضع كفا فوق جبهته ليحجب الشمس اللاذعة عن عينيه وهو يراقب تلك المخلوقة تقترب. حفيف أوراق أشجار الحور تشدّها الرياح يمينا وشمالا وكأنها ترقص على نغمة الطبيعة الخفية، ووقع خطوات هذه الحسناء التي بدأت تدنو شيئا فشيئا. يرتفع صدى خطواتها ولكنها تمشي فوق العشب بأعجوبة.. من أين يأتي هذا الصوت الغريب؟ سأل نفسه بصمت وراقب السماء الآخذة بالتجهم وكأنها تريد أن تلفظ شيئا من أحشائها. ومن خلال السّحب الداكنة انفلت خيط هائل من الضوء أشعل العالم بنوره بعد أن اختفى قرص الشمس تماما، وتلاه دويّ جعل من حسين يغلق أذنيه ويتكور على نفسه خوفا. الفاتنة تقترب وملامحها تتحدّد بعد كل خطوة تخطوها نحوه، كانت شديدة الشبه بشخص يعرفه.. ولم يسعه إلا أن يتجمّد في مكانه ذاهلا، بحيث بدت بكامل تجلّياتها وهي المرأة التي تملّى النظر في وجهها طويلا خلال أيام حياته.. هي نفسها زوجته سعدية الورعة والحزينة لسبب غامض، ينسكب من خلال عينيها خيطان أسودان من الدمع المختلط بالكحل. تشير إليه ليبتعد وتحثه على المغادرة متلهّفة لمعانقته في نفس الوقت، كل ذلك أرعبه، رفع يده ليمنع نفسه من رؤية ذلك المشهد المهيب، وكأنّ

الزمن يعيد نفسه من خلال ذلك الحادث المريع. رأى شاحنة تيوتا زرقاء اللون تقترب بسرعة جنونية، فاقدة مسارها المعتاد في الطريق وقد ارتفع صوت احتكاك العجلات مع الإسفلت، وارتفع خيط من الدخان، تلته رائحة المطاط المحروق الذي يزكم الأنوف. ولأول مرة في حياته يتذكّر ذلك الوجه الذي لم تُتِح له الفرصة أن يراه لأكثر من أجزاء في الثانية قبل أن يدخل في دياجير الظلام.. بدا في الأربعينات، أبيض البشرة، وقد جَحظت عيناه على اتّساعهما وتسّمرت حدقتاه كحيوان مذعور، يحدّق إلى وجه حسين الذي سيكون آخر إنسان يراه على وجه الأرض. صارخا بأعلى صوته، تتحرّك شفتاه بتراخ وكأنّ الزمن يتباطأ أمامه. حاول قراءة شفتيه ولكن جلّ ما رآه هو ذلك الفم المفتوح على اتّساعه، والحلق المرتجف داخله مع تيار الهواء المتدفق إثر صرخته الأخيرة، ومن خلال تلك الفتحة ظهر وجه آخر لم يستطع إلا أن يصرخ أمامه بملئ طاقته... لاااااا.

فتح عينيه فجأة والعرق يبلّل جبينه وصدغيه. اختلّت ساعته البيولوجية، وبقي لفترة ساكنا في مكانه يجوب الغرفة بعينيه يلحظ التغيير. نظر إلى ساعة اليد التي كانت في درج المنضدة، وكانت تشير إلى الخامسة مساء. **"كيف غبت عن الوعي كلّ هذا الوقت، هل كنت أهذي خلال نومي؟ لابد أنه سمع شيئا مما تفوّهت به، ولكن ماذا قلت؟ لا.. لا.. يبدو أني مازلت أهذي، فأفكاري مشوّشة وعليّ أن أهدأ، هل كان يراقبني أثناء نومي؟ إنه سادر في ملكوته يحاول أن ينام أو يفكر في شيء معين.. ربما يفكر في الرجل الذي تسبّب في موت والده.. لكنها ليست غلطتي.. سيارته انحرفت عن مسارها وأنا كنت الهدف.. من دخل إلى الغرفة أثناء نومي؟ يبدو**

أني أفكر كثيرا.. كل ما في الأمر أني نمت قليلا.. هذا كل شيء.. أفكاري مشوشة وعليّ أن أهدأ".

نظر حسين ناحية ماسي، وكان هذا الأخير يجلس على حافة سريره يوليه ظهره متّجها بنظره إلى النافذة، وكأنه يريد رسم لوحة فنية لذلك المنظر الطبيعي. كيف عادت تلك الصورة بعد كل تلك السنوات؟ هل شعوره بالذنب يعاوده أم أنه إحساس باطني طفى إلى السطح متقمّصا أحلامه التعيسة. كيف لم يخطر له أن يسأل عن ذلك الرجل طيلة هذه السنوات؟ فبعد أن خرج من المستشفى في ذلك الوقت حاول التقرب من ابنته ولكن جدّها رفض أن يتركها معه وحيدة، لم يستطع حسين أن يعارض مشيئته لشعوره بالذنب، وقد أحسّ أن والد زوجته أيضا يشاطره نفس الشعور، لذلك لم يجرؤ على أخذ ابنته رغم أنه تحرّق شوقا لها، ولكنه أكثر من زيارتها وعمل على أن يقوّي علاقتهما ولكنه فشل أخيرا.. غرق في الخمر وأصبح عاطلا عن العمل، وبذلك لم يستطع دفع مبلغ إيجار البيت فانتقل ليسكن مع والدته، وهكذا تدهورت حالته إلى الأسوأ. بعد عدّة أشهر خطر على ذهنه أخيرا ليسأل عن صاحب الشاحنة فأتاه الجواب صادما. حقيقة أنه تمنى له الموت كنوع من الانتقام لروح زوجته وحياته التي أصبحت مزرية، إلا أنه شعر بالذنب وأحسّ بالخجل عندما علم أن الرجل كان في نفس المستشفى الذي رقد فيه، وقد توفي بعد ثلاثة أيام فقط من الحادث متأثرا بإصابات بالغة. اتّكأ حسين على مرفقيه ليُقَوّم جلسته فوق السرير، ثم عدّلَ من وضعية الوسادة وجلس في هدوء مصغيا إلى الثرثرة التي كانت تأتي من مكان ما خارج الغرفة. رفع نظره نحو ماسينيسا مرة أخرى، كان قلبه يخفق بشدة وهو يتذكّر كلام أحمد

عندما أعلمه أن ذلك الرجل عامل نقل للبضـائع في شـركة أجنبيـة للمقاولات، وهو رب أسرة كذلك. كلمة أسرة ارتعد لهـا كامـل جسمه وازداد وجيب قلبه سرعة، أحس بقلبه يرزح تحت وطأة الذنب والحزن. ألا يكفيه حزنه على زوجته وروحه المشتّتة ليضيف إليها حزنا آخر على أسرة لم يكن يعرف عنها شيئا آنذاك؟ في الأيام التالية بـدأ يتقصّى خِفية من خلال زائريه وأصدقائه المقربين عن تلـك الأسـرة التعيسة.. علم أنها تقيم في المنطقة الثامنة، وقد خلّـف الرجـل وراءه ولدين صغيرين، فتاة وصبـي. أراد معرفة تفاصيل حياة كل فرد منها ولسبب ما أحسّ بمسؤولية تجاههـا. ودّ لـو يعـرف اسـم الفتـاة والصبـي، وكم عمرهما، وهل يدرسان، وما هو شعورهما تجاه فقدان والدهما في حادث سير كان هو أحد الشاهدين فيـه، وهـل هنـاك مدخول آخر يمكن للعائلة أن تعتمد عليه.. بعد ثلاثة أشهر من التّـردد قرّر أن يزور تلك العائلة، ولكن شجاعته خذلته وهو يصل إلى الحـي، فلم يكن مستعدا لمواجهة أرملة المرحوم بعد وهو يحمل أثرا من الصحة في الوقت الذي يرقد فيه زوجها في القبر. رأى عند مـدخل العمـارة أطفالا يشكّلون حلقة، تهتز أجسامهم الصغيرة برشاقة وحيوية، اقترب منهم متأمّلا وهم يرددون بصوت واحد:

"واحد زوج زوبيدة

ثلاثة ربعة ربيعة

خمسة ستة ستوتة

سبعة ثمنية يمينة

تسعة عشرة عاشورة

حداش طناش طيموشة"

لما دنى منهم متّكئا على عكّازيه، شكّل مظهره الغريب فضولا لا حدود له جعلهم يتوقفون عن الغناء ويلتفتون إليه، ثم باهتمام أكبر إلى جبيرة ساقه اليسرى وطوق عنقه.

- من منكم يعرف الحاج مختار؟

ساد صمت مطلق بعد نطق هذا الاسم، وتوجّهت إليـــه أزواج من الأعين الصغيرة في حيرة ورعب حقيقين، وكأن شبحًا مخيفًا يقف أمامهم. تفرّس في الوجوه الصغيرة الملطّخة بالغبار والأوساخ باحثـــا عن معنى لتلك النظرات المتوجّسة، ولمح من بينهم فتى كـــان يختبـــئ وراء صديقه ويطأطئ رأسه بطريقة خجولة دون أن تمنعه من النظـــر خلسة إلى حسين.

- الحاج مختار يسكن هنا.

أشار أحد الصبية إلى أحد الطّوابق في العمارة المقابلة.. تكلّـــم بصوت رقيق يشي بحيرة مضاعفة وكأنه يريد التأكـــد مـــن ســـؤال الرجل.

- اِخرس، أنت تهذر.

تكلّم صبـــي آخر بصوت آمر وكان الأكبر سنا بينهم.. ســـدّ منخريه مخاط جاف منعه من التنفس بشكل لائـــق، فـــتكلّم وهـــو يستنشق الهواء بعد كل جملة ينهيها:

- إنه يسأل عن شخص آخر؛ لأنّ هذا الرجل قد مات قبـــل أن نأخذ عطلة الخريف.

انقبضت معدة حسين وهو يسمع الطفل يتكلم.

- لا.. لا.. إنه هو.. أنا أبحث عنه، أرجـــوك قـــل لي في أي طابق تسكن عائلته بالضبط..

توقّف الصبية عن الثرثرة فجأة وأحسّ حسين بتواطـؤ خفـيّ يعقد بينهم، بحث في وجوههم عن سبب ذلك التّردّد الملازم لملامحهم الطفولية، ومن خلال نظراتهم البريئة والمتبادلة عرف أنهم يتشـاورون في أمر ما، وبدا ظاهرا أنّ الصبـي الخجول المختبئ وراء صديقه هو المقصود بنظراتهم البريئة، فقد توجّهت نحوه الأنظار في تلك اللحظة.

- هذا هو ابنه.

أشار الصبـي الأكبر سنا نحو الولد الخجول وقد دفعه الصِّـبية ليصبح وسط الدائرة، ثم ابتعدوا عنه عندما دنا منه حسـين وتمعّـن النظر في ذلك الوجه الصغير البائس. كان شعره الأشقر مشعثا، لـه عينان بنيتان وأنف صغير، وخيوط يابسة من الغبار التصقت بـالعرق على صدغيْه وخدّيْه.

كان يرتدي ملابس مكويّة ولكن التّراب اكتسـحها. انحـنى حسين بجذعه أمامه، واقترب من الصبـي بهدوء، وتمعن في ملامحـه برهة قبل أن يضع يده القوية على كتفه الصغيرة، أحسّ به سـاخنا وهزيلا، تبْرُز عظام كتفيه بشكل واضح، وإذْ رفع الفتى نظره وحدّق في حسين بدون خوف وكأنه ينتظر منه هدية ما. رفع يـده القويـة وببطء ونعومة مرّر أصابعه من خلال شعره المشعث:

- كيف حالك؟

سمع تمتمة الصبـي تصعد من فمه ولكنها لا تلحق واضحة إلى أذنيْ حسين.

- ماذا قلت؟ أعِد ما قلت لم أسمعك.

- بخير.

- ما اسمك؟

اغتصب حسين ابتسامة على وجهه، وأظهر أسنانا مدبوغة بالأصفر في وجه الصبي الذي توجّس خيفة من تلك الأنياب التي ابتسمت له فجأة:

- يسعد ماسينيسا.

إجابته جعلته يتذكّر أول يوم من الفصل الدراسي عندما تبدأ المعلمة في سؤال كل تلميذ عن لقبه واسمه كاملا. رأى الأسنان الصفراء مرّة أخرى مرفوقة بحركة من يد حسين التي دفنها داخل جيب سترته، ثم أخرج منه مظروفا أبيضَ يحتوي على رسالة مرفقة مع أوراق نقدية تصل قيمتها إلى المليونيْ سنتيم.

- أنا صديق والدك الحاج مختار، أريدك أن تسلّم هذا المغلّف لأمك.

وقبل أن يمسك ماسينيسا بالمظروف قاطعته فتاة في الثانية عشر من عمرها. وقفت بينه وبين الصبي تنظر إليه بعناد وتحدٍّ، وقد أمسكت بيد الصبي دون أن تبعد نظرها عن حسين. تصرّفها وشكل ملامحها وشى برابط الأخوة بينهما.

- اِنتظري، أنا أعرف والدك المرحوم.. وأحمل رسالة إلى أمك.

توقّف لحظة ثم تراجع خطوة للوراء:

- أنتِ أخته أليس كذلك؟

توقّفت في مكانها صامتة دون أن تترك يد ماسينيسا تفلت من يدها، محتدّة وشرسة تنتظر الصراخ في وجهه بعنف لأدنى حركة خاطئة. ولكن بعد أن نطق اسم والدها تبدّلَت نظرتها تماما، وشعر بتغيير جذري في ملامحها الجميلة. كانت بشرتها شديدة البياض،

يغطّي النمش كامل وجهها، ترتدي تنورة سوداء طويلة، وتمسك شعرها المفروق على الجانبين. في فمها دارت علكة لم تحرّكها طويلا لانشغالها بالموقف.

- هل تدرسين جيدا؟
- انتقلت إلى السنة أولى متوسط وأخي يدرس في السنة الرابعة ابتدائي.

زمّت شفتيها القرمزيتين وصعّدت خدّيها بخيلاء امرأة ناضجة.

- هذا أمر جميل، وما هو اسمك؟
- سعاد..
- يسعد سعاد إذن؟

هزّت رأسها بافتخار عكس أخيها تماما الغارق في الخجل.

- أريد منك أن تسَلّمي هذا المظروف لأمك، وقولي لها أنه من صديق الحاج مختار.
- من أقول لها؟

سألت بذكاء غير متوقّع.. وجعل حسين يحكّ الجبيرة وكأن الجواب يكمن هناك:

- شخص عرف زوجها في اليوم الأخير من حياته.

أوشك حسين على المغادرة لولا أن أتاه الصوت واهنا ورقيقا من ورائه:

- وما اسمك؟
- حسين..

بعد أن توارى عن الأنظار جلس على حافة سور قصير شُيِّد على حافة الرصيف تحت شجرة الزان، يتأمل الشوارع والناس بدون

سبب أو هدف معيّن، هبّت ريح خفيفة كنست الأوراق المتســـاقطة والغبار على الرصيف، وقد أحسّ حسين لوهلة مدى التّشـــابه بـــين قَدَرِه وتلك الأوراق التي تقودها الرياح أينما شاءت. صـــار مظهـــر الناس وضجيج السيارات حوله كلوحة سريالية حزينة، اختفى كـــل شيء واضْمَحلّ من خلال نظرة عينيه الغائمتين. وضع مرفقيه علـــى فخذيه وانحنى جذعه إلى الأمام بانكسار. دفن وجهه المرتجـــف بـــين يديه وبدأ بالبكاء..

-10-

بدأ الليل ينشر خيوطه حين نهض حسين من السرير بهدوء، سحب خطواته الثقيلة وراءه بمشقة، وكانت ذراعاه مقوّستين إلى الأمام. مُنّكس الرأس فتح الباب المؤدي إلى المرحاض، ودلف إلى الداخل ثم جلس بتراخ على كرسي المرحاض.. كان المكان ضيّقا وعفِنا، لامس صدره برؤوس أصابعه، ثم وضعها على عينيه وضغط برفق دون أن يفتحهما، وكأنه يفتش عن شيء فقده منذ زمن بعيد، معتمدا على ذاكرته القصيرة. هناك حيث تربّضَت أحلام الطفولة وطموح الشباب، ذكريات بقيَت تضرب في رأسه مثل كرات البليارد. مرّت أيّامه أمام عينيه في لمح البصر، ولم يفلح في تذكّر شيء ذا قيمة يمكن أن يُقيّم عليه حياته المليئة بالنكبات والمصائب. بعد أن كان وحيدا يجلس على ذلك السّور في الشارع خطرت له فكرة جنونية أراد تنفيذها فورا. لم يكن من الممكن أن يواصل حياته بتلك الطريقة المزرية، لم يعد يملك شيئا غير نفسه المحطمة، ماتت زوجته واختفت فلة من حياته، ولم تعد له أسرة يركن إليها عندما تضيق به الحياة، بقي وحيدا مشتّتا بين خواطره الحزينة تارة وأفكاره الكئيبة طوْرا، وفوق كل ذلك تسبّب في تشرّد عائلة أخرى. لولا أنه لم يلتفت في تلك اللحظة لرأى اقتراب الشاحنة ولتجنّب الاصطدام، وعاش سعيدا مع زوجته، ورأى ابنته فلّة لتصير امرأة، ولكنه للأسف غرق في نظراتها الهادئة، ونسي أن يقول أنّ لها أفضل عينيْن شاهدهما في حياته قبل أن يخطفها الموت منه.. ها هو الآن

في نفس الغرفة يجتمع مع الفتى وسيشهد موته كما شهد موت والـــده.. يراقب تشتّت الأسرة بأم عينيه دون أن ينتبه إلى دوره في كـــل هـــذا.. أسرة بلا مأوى وبدون مستقبل، تعيش على هامش الحياة وهو يقف من كل ذلك موقف المتفرج.. وسعاد.. ما الذي يمكن لحســين أن يقولـــه بصددها؟ ما الذي هو مستعد لأن يقدمه لها ولأسرتها؟ لا شـــيء.. إذن فما الذي سيفعله بعد كل ما حدث؟ قفل راجعا إلى بيت والده في ذلك اليوم، ثم دخل غرفته الخاوية من الحياة، الباردة كالموت، وقبل ذلك وهو في الطريق نحو البيت، اشترى خمس قنينات خمر من بائع غير قـــانوني في عمارة اشتهرت ببيوت الدعارة. عندما وصل إلى البيت تخطّـــى غرفـــة والدته التي تقع في البهو، يقابل باب غرفتها مـــدخل البيـــت مباشـــرة، كانت نائمة و لم تشعر بدخوله، انسَلّ من هناك إلى غرفته وأغلق البـــاب وراءه بالمزلاج. وقف مدة أمام الباب وقد ارتخت يداه بجانبـــه وتقـــوّس حاجباه وزاويتا عينيه إلى الأسفل. دفع القدم اليمنى إلى الأمام مستنشـــقا الغبار الذي ملأ الغرفة غير المرتبة، جلس على سريره وشرب قنّينة كاملة دفعة واحدة، ثم تنقّل بعد ذلك في كل ركن داخـــل الغرفـــة محتســـيا الشراب والدموع تهطل كالسيل من وجهه. جلس على الســـرير مـــرة أخرى يتأمّل صورته رفقة زوجته الموضوعة على المنضدة بجانب السرير. أراد لهذا العذاب أن يتوقّف مرة واحدة.. أراد أن يمحي الألم من ذاكرته للأبد، استسلم و لم يقدر على المواصلة، كانت آخر قنّينة تتأرجح في يده وهي مملوءة إلى النصف. ازداد ظهره تحدّبا وغاصت أخاديـــد وجهـــه عميقا لتحفُر تجاعيد جعلته يبدو كرجل محتضر. قذف القـــارورة بقـــوّة فدارت في الهواء، وارتطمت بالجدار فتفرّق الزجاج بعنف على أرجـــاء الغرفة، وتبلل جزء من الجدار ليصبح لونه الأزرق اللّيلي أكثـــر قتامـــة.

استمع لتنهّداته وهي تخرج من رئتيه على شكل حشْـــرَجات. نهـــض بصعوبة و لم يكن ليَتَّزِن لولا وجود الجدران ليستند عليها.. كان قد فكّر في نهايته قبل أيام وأعدّ عدّته لذلك الغرض، فجلب من الشـــرفة حـــبلا يستعمله مرّة في السنة لربط كبش الأضحية، ولكنّه هذه المرة سيستعمله للمرة الأخيرة لتقديم أغلى تضحية في حياته، إنها تضـــحية مـــن أجـــل السلام، أراد أن ينعم بالسلام فقط. صعد فوق السرير وربط الحبـــل في السقف متذكّرا عدد المرات التي فكّر فيها بالموت. ربط العقدة الأخـــيرة من الحبل ثمّ وقف على حافة السرير وقد لفّ الحبل حول عنقه. في تلك الأثناء سمع دقات على الباب:

- حسين.. ما بك؟ حسين..

كانت الدموع تبلّل خدّيه محاولا التركيز على رغبته الأخيرة، نظر إلى الباب وقد بدأ شكله يتماوج تحت تأثير دموعه وكلمات أمه.

- حسين.. هل أنت بخير؟.. حسين.. افتح الباب..

نقل ثقله إلى الجانب الآخر فتدلّت رِجلاه في الفراغ، واشـــتدّ الحبل حول رقبته وبقي معلقا لفترة لم تتجاوز عدة ثوان، فالحبـــل لم يصمد طويلا أمام ثقله وكمية الخمر التي في بطنه. هوى على الأرض بقوة متقيّئًا بذلك كل ما شربه على السجادة، بقي ممدّدا فترة علـــى الأرض دون حراك، وقبل أن يغيب عن الوعي رأى الباب يُفتح بقوّة ورجُلَيْن مكسوّين بالشحم يدنوان منه ببطء، ثم بعد ذلك رأى وجه أمّه المرتجف يقترب منه ويهمس بكلمات مليئة بالحنان:

- ابني.. حسين...

وقبل أن يسمع ما تلى ذلك غاب عن الوعي و لم يســـتيقظ إلا في اليوم التالي.

-11-

رفعت كفّيْها إلى مستوى وجهِها وتمعّنت في تشقّقات أصابعها المؤلمة، تضَرَّرْت أظافرها متأثّرة بمواد النظافة، في الحقيقة لم يأمرها أحد بالعمل في بيت عمّها الوحيد، ولكنها لم ترد أن تكون عبءً آخر يُضاف إلى ذلك البيت، وخاصة أنّ عمها متقاعد وذو مرتّب شهري بسيط لا يكفي عائلة من ثمانية أفراد. حبست نفسها داخل المرحاض الوحيد في الشقة وأخذت نفسها وتستبدل الفوطة، وأثناء ذلك رأت خدوشا على ذراعيها وفخذيها فتوقّفت لحظة، سقطت دمعة سخينة على وجهها، وحاولت الاعتماد على أحد الجدران القريبة جدا لتتمكّن من رفع إحدى القدمين، ولكنّها انزلقت فجأة وسقطت على ظهرها، وارتطم قَذالُها على الجدار.. ارتجف جسدها جرّاء الصدمة و لم تتمكن من الوقوف في تلك اللحظة.

"آه ما لي؟ أنا على الأرض ممدّدة؟! وفي المرحاض؟! ههههه.. ظهري يؤلمني ولا أستطيع الحركة.. لماذا لم يأتِ أحد لنجدتي؟ أنا ممدة؟ وفي المرحاض! آه.. ألن يأتي أحد لمساعدتي على النهوض؟ ولكن الباب مغلق ولن يستطيع أحد الدخول، حتى ذلك الوحش لن يتمكن من ذلك، ابني عمي الذي ظننته كأخ لي. أنا مجنونة لأنتظر المساعدة في هذا البيت، صرختُ وبكيتُ ولكنه كان أقوى منّي، كيف سمحت له بذلك؟ لقد اغتصبني في بيت والده ولم أكن أملك فرصة للدفاع عن نفسي.. ولكن هل فعلت كل شيء لأمنع

ذلك؟ لا.. لقد تركته يفعل بك ما يشاء بعد أن جرحك من ذراعك.. إنه الذل.. لقد أذلني.. آه ظهري.. عليّ أن أحاول، يجب أن أقف مرة أخرى. آخخ تبلّلت ملابسي بأكملها وهذه الفوطة لم تعد صالحة.. هيا إلى البالوعة.. الآن لا أجد ما أرتديه والدم بدأ يقطر.. عليّ أن أنظف الأرضية.. يا ربي هل أخرج من المرحاض على هذه الحالة وبهذا الشعر المشعث؟ وماذا سأقول لأمي وماسي الذي.. لا.. لا.. لن أذهب هكذا مستحيل، سأؤكد للجميع أنهم على حق، "ابنة شحاذة" هذا ما همست به ابنة عمّي عمدا، هذا ما قالته تحديدا وظنّت أني سأتعمّد الصمم وأتابع حياتي مُطرقة الرأس، ولكنني فاجأت الحقيرة بالصراخ.. نعم.. هكذا يجب أن أفعل، صرخت في وجهها لتوضّح كلامها وتعتذر.. الحقيرة.. عليّ أن أنظّف الأرضية الآن.. الدّم بدأ يُلوِّن الخزف بالأحر.. وها أنا أبكي من جديد.. لا.. لا.. كلامها خطأ في خطأ.. أمي ليست شحاذة طُرق.. ستنهض سريعا كما نهضتُ أنا منذ لحظات.. سيحتقرها الجميع كما تفعل عائلة عمّي.. الكل سيتبرّأ منها.. نحن وصمة عار في جبين هذه العائلة.. ولكن ما بوسعنا أن نفعل غير الرضا بهذا القدر الذي خصّنا به الله؟ إنّها مشيئته ولا يمكن لأحد أن يخالف مشيئة الرب.. آه أين هي الآن؟ لابدّ أنّها ستبيتُ عند حماة أختها، من سوء حظّنا أنّنا نسكن في هذه المدينة البعيدة عن أقارب أمي.. كان من الممكن أن نجد على الأقل بيتا نحتمي تحت سقفه.. عليّ أن أتوقّف عن البكاء حالا.. أنا قوية ولا يجب أن أتهاوى أمامهم.. لا يجب أن أدع فرصة للشامتين ليسخروا من وضعي، إنه يوم سيّء لا أكثر ولا أقل.. المستقبل لا

يزال أمامي.. نعم.. لازلت جميلة ومهمّة.. هذا ما قالــه لي ذلــك الرجل المريض.. كيف يدعى؟ حسين.. نعم هذا هو اسمــه.. لــه نظرات حادّة، وملامحه الثابتة تؤكِّدُ صِدقه.. أعرف هذا من خلال نظرة عينيه فقط.. لم ينظر إلى صدري ولم يبحث عن شيء آخر في جسدي.. ليس كالآخرين.. إنه مختلف، وعليّ أن أقول له شــيئا يجعله يعرف حقيقة ما أفكر فيه.. لا يُمكن أن أكذب على نفســي وأدّعي عدم المبالاة التي دائما أبديها لمعظم الرجال.. لا يمكــن أن أقسو على نفسي وأحاول تجاهل ما أشعر به.. غدا ســأذهب إلى هناك.. لا أملك ملابس جميلة لأرتديها.. رباه لم أنظر إلى نفسي في المرآة منذ يومين.. إنّه مختلف، يجب أن أصدّق أنه مختلف ولــيس كالآخرين. عليّ أن أقول شيئا، سألني بطريقته وسأجيبُه هذه المرة بطريقتي.. قال أنّه يعتمد على تواجدي في حياتــه.. وأنّ الشــيء الذي يعتمد عليه موجود داخل الغرفة.. أنا كنت هنــاك.. هــل يُمكن أن أكون أنا؟ هل يُعقل أن أعطيه أملا لا أملكــه.. أنــا لا أملك حتى فوطة، يا إلهي.. لازلت جميلة ومهمّــة.. كــم كانــت نظراته جميلة وكم هي صادقة.. سأعود غدا إلى هناك ولكن.. ليس لديّ ما أرتديه، وماسي بحاجة إلى الــدواء والــدم، ولا أســتطيع الاعتناء بنفسي.. ربّاه ارحمني.. ربّاه أصبحت لا أملك ثمن فوطة.. ربّاه أين كنت حين ناشدتك وأنا تحت قبضة ذلك الوحش؟ ربّــاه ألا ترى ما الذي يحدث لي أم أنك تنتظر حتى يأتي يــوم البعــث لتحكم بيننا؟ حرّمتَ الظلم على نفسك وتركته لعبادك.. اعتليتَ في ملكوتكَ وتركتني في ملكوت ذلك الــوحش دون عنايتــك.. يا ربّاه إن كنت تسمع دعائي فأحتاج لفوطة نظيفة ومكان هادئ

أستريح فيه من البشر.. ولكنّي داخل هذا المرحاض، مكان نجس لا يجب الدعاء في مكان نجس كهذا.. دعائي بدون فائدة.. ولكنه يعلم كل شيء.. نعم.. كل شيء وبدون استثناء.. إن كان كذلك فعليه أن يسمع دعائي، أو ربما رقيب وعتيد لا يدخلان المرحاض.. حسنا.. إمّا أنْ أُرْغِمَهُما على الدخول وسماع شكوتي أو الخروج وأُسْمِعَ كل من في البيت شكواي وأُطْرَد في هذا الليل البهيم. لا يليق بي أن أتكلّم فهم نائمون، الكل يرغب في اختفائي.. صرت متطفّلة أكثر من اللازم، غدا سأجد ملجأً آخر آوي إليه مع أمي.. يجب أن أغادر هذا المكان سريعا، لم أجد عملا بعد ولا أستطيع في نفس الوقت أن أستمر هنا.. لقد تعبت وانتهيت من هذا البيت الذي شهد على اغتصابي.. هذه الجدران اللعينة متواطئة بصمتها، لذلك أكره هذا المكان برمّته.. عليّ أن أغادر.. لم يعُد بقائي هنا ممكنا.. ولكن إلى أين؟ إلى أين المفر؟ لا عمل ولا مأوى ولا عائلة.. والآن إلى أين يا إلهي الكريم؟ غدا يجب أن أزور ماسي في المستشفى، إنّه في حالة حرجة وعليّ أن أقف بجانبه مهما كلّف الأمر، إنه أخي.. إنه أخي الصغير ولن أحتمل موته، قال الطبيب أنّه لن يعيش طويلا.. يجب أن أودّعه كل يوم.. أودّع أخي كل يوم وهو لا زال يتكلّم ويتنفس الهواء الذي أتنفّسه.. ولكن أنا لا أقوى على فراقه.. لماذا جاءني البكاء الآن؟ لماذا أبكي بينما الجميع ينعمون بالراحة في مخادعهم؟ لقد تعبت وانتهيت من هذا البيت الذي شهد على اغتصابي.. عليّ أن أغادر..".

-12-

- صباح الخير.
- أهلا، صباح الخير.
- هل أنت بخير حسين؟
- لماذا؟
- لأنك تبدو منزعجا نوعا ما، هل أتركك لوحدك؟
- لا.. لا، أرجوكِ تفضلي..

شعر حسين بالتّحسن هذا الصباح وحاول الخروج من غرفته لاستبدال هواء الغرفة، وربّما لأنّ الغرفة لم تعد تتّسع لخواطره المتراكمة. هزّ رأسه الثقيل إلى أعلى وأسفل كإيماءة. جلسَتْ على الكرسي المقابل ثم وضعتْ يديْها فوق الطاولة الخشبية، ولم يكن يفصل بينهما سوى بضع سنتمترات.

- المعذرة إن بدوت منزعجا، فأنا لم أنم هذه الليلة جيدا، ثم إنيّ شعرت بالضيق في الغرفة.

مظهر وجهه شبيه بملامح رجل بعد التقيّؤ أو على وشك. لوَت سعاد شفتيها ونظرت إليه من طرف عينيها، وقد اهتز قرطها لتلك الحركة فظهرت فتنة ملامحها:

- كنت أظن أنّ تواجدي في الغرفة قد أفادك بشيء..

ظهر على وجهه شبه ابتسامة سرعان ما استسلمت لارتخاء عضلات وجهه المتجعدة من التعب.

"ما الذي يحدث لي؟ هل كنتُ مخطئة في تقديري للموقف؟ ألم يكن كلامه واضحا لأفهمه بالخطأ؟ لقد قال أنّي أمله في الحيـــاة.. ولكن يبدو أنه ندم على قراره.. أو أنني نزوة من نزواته الشِـــعرية التي تقتضيها اللحظة فقط.. لماذا تسَرّعتُ في الحكم عليه؟ لمـــاذا مازلت جالسة هنا وأنظر إليه رغم أنه لا يقول شيئا؟ ولا كلمة؟ ما الذي يفكر به الآن؟ إنه يبدو متعبا وكئيبا جدا.. ولماذا يجلس هنا؟ بالتأكيد ليس من أجل تغيير الجو.. أنا محدودة الـــذكاء وقليلـــة الانتباه ولكنه.. قال أني أمله في الحياة.. مازلت جالسة هنا وأنظر إليه بغباء، رغم أنه لا يحاول التكلم معي..".

- آسفة إن كنت قد تطفّلت عليك هنا، ولكن ألا تـــرى أن تصَرُّف ماسي غريب نوعا ما؟ إنه لا يُعـــير لنفســـه أدنى اهتمام، فهو لا يأكل شيئا مما تأتيه به أمي.. إنه لا يتـــذوّق شيئا وكأنه ينتحر..

"ينتحر؟! هل قلتُ أنه ينتحر وأنّ أمـــي تأتيـــه بالأكـــل ولا يتذوّق منه شيئا؟ يا لي من سخيفة؟! كيف أمكنني قول مثل هـــذا الكلام؟ رباه ما الذي أصابني كي أذكر كلمة كهذه.. الانتحار؟! أنا مرتبكة على غير عادتي.. أوووف ليتني ما تكلّمت من البداية، لو تخطّيته وألقيت التحية لكان أحسن.. لا بد أنه انتبه لارتبـــاكي، ها هو ينظر إليّ مدقّقا في وجهي وكأنه يبحث عن معنى ما.. قلت لك كل شيء لم أكن أريد قوله، ولن أقول كلمة ممّا كنتُ أريـــد قوله لك.. أريد ذلك ولكن بدل ذلك أنا أقُـــصُّ عليـــه حيـــاتي البائسة، من المفروض ألا أقول له شيئا، لأنه صامت ولا يحـــق لي الكلام..".

- كلنا ننتحر في هذه الحياة يا سعاد.. العيْش على هذا الكوكب انتحار.. أليس الاكتئاب والهم نوعان من الانتحار؟ التدخين انتحار، تنفّس الهواء الفاسد انتحار، شرب الكوكاكولا انتحار، ممارسة الجنس والولادة باستمرار هما الانتحار الجماعي الذي سيُهلِك البشرية في يوم ما..
- لماذا أنتَ منزعج إلى هذه الدرجة حسين؟! قل لي.. هل هناك ما رأيته أو سمعته جعلك تبدو هكذا؟

اقتربت يداها من يديه وعبثتْ بأناملها تُدير خاتما في خنصرها وآخر في بنصرها، ثم ترفع يدا لتداعب قلادة تدلّت من جِيدِها العاجي.. ولأوّل مرّة يشاهد هناك شامة ظهرت كنقطة سوداء في صفحة بيضاء.. أغْرَتْه ليُلامسها ويقبّلها ولكن...

- أنتِ سبب كل شقائي.. هل تعلمين ذلك؟

اتّسعت حدقتاها وهي تنظر إليه غير مصدّقة لما تسمعه أذناها.. بحثت في وجهه عن شيء ما قد يُخبرها أنّ هذه مجرّد مزحة فقط، تملّت النظر إلى الملمح القاسي والمتجمّد، وإلى بريق عينيه الباردتين. لم يكن يمزح.. وضع حسين مرفقيه على الطاولة وأبقى رأسه بين يديه، ودون أن يرفع نظره نحوها تكلم:

- أنتِ وأخوك كل شقائي، أتمنّى لو أنني لم أصادفكما في حياتي..

ارتجفت شفتاها وتحوّل لونهما إلى الأحمر الفاقع، فاضت عيناها بالدّموع متأثّرة، تنظر إليه من خلال خصلات شعرها المتدلّية. ارتفع ذقنها وانكمش أنفها في تكشيرة ألم عنيفة، ودون أن تقول كلمة واحدة نهضت من مكانها مسرعة وغادرت نحو الغرفة.

استطاع حسين من خلال النافذة أن يـــرى أشـــجار القيقـــب والنخيل المتراصّة على جانبيْ الممرّ المؤدي إلى خارج المستشفى، رأى شخصين جالسين على مقعد إسمنتيْ يرتديان زيّ العمل، ممرّضًا شابًا يغازل زميلته في المهنة، لاحظ توتّر رِجليْه في حركة اهتزازيّة رتيبـــة، محاولا أن يضع يده خلف ظهرها على مسند المقعد.

"الحياة رائعة وجميلة، ولكنّها لم تعُد صـــالحة لي.. إذا أرادت الحياة فنائي فكلّ قوانينها ستعمل على تحقيق ذلك حـــتى ألاقـــي الموت. وما الموت أصلا؟ إنْ هو إلا توقّف الخلايـــا عـــن العمـــل وتحلّلها، ثمّ إنّ الموت بالنسبة لي هو نهاية العذاب الذي استمر أكثر من عشر سنوات.. إن كان الموت قد تـــأخَّر فعلـــيّ أنْ أصـــنعه بنفسي، أنا سيّد نفسي، أنا حرّ وإرادتي ملك لي، ويمكنني أنْ أضع نهاية لكل هذا.. لا أستحقّ الاستمرار في هذه الحياة.. كلّ ذلـــك الألم الذي تسببت فيه.. كل ما عشته يتهاوى أمامي كأوراق هذه الأشجار.. لكل شيء نهايته وعلى نهايتي أن تكـــون قريبـــة.. لا.. لا.. لا أملك القلب الذي يستمر في كل هذه الفوضـــى.. هـــذه الحياة التي عشتها لا يمكنها أن تستمر وتطول أكثر ممّا فعلت.. ما هي أفضل طريقة للموت؟ قطع شرايين الرسغ؟ لا.. إنه انتحـــار الضعفاء.. عليّ أن أفكّر في شيء آخر أكثر رجولة. ههه.. لا نريد أن نستغني عن الذكورية حتى ونحن على أبواب المـــوت.. أقطـــع الوريد في ذراعي ربّما سيستغرق الأمر عدة دقائق.. ولكن ذلـــك يسمح بطلب النجدة، كما أنني في مستشفى ولن ينجح الأمر.. آه نعم.. الأدوية تبدو فكرة مناسبة.. أتناولها جرعة واحدة، ولكـــن ذلك يستغرق وقتا وأنا ليس أمامي الوقت لذلك.. عليّ أن أنهض

الآن.. هذه الحياة التي عشتها لا يمكنها أن تستمرّ وتطول أكثر ممّا فعلت.. ها هي النافذة أمامي ولا أحد في الرواق..".

ارتخت يداه وتقوّست كتفاه نحو الأمام، أضحى جسدا يتداعى تحت وطأة الألم والتعب، استهلك العالم كامل طاقته ولم يعد يرغب في أكثر من أن يختفي وراءه في العدم. كان يحسّ به من قريب، نعم.. لقد أحسّ بأصابع الموت تنساب إليه من بعيد بعد أن تخلّى عنه القدر.. هذا القدر الذي ذاق معه مرارة المعاناة والألم، تركه يسلّم يديه نحو السماء. كيف له أن يعيش بعد كل ما حدث؟ كيف له أن يُبصر النور ولم يعد يقوى على رفع أجفانه ليشاهد العالم من حوله؟ كيف له أن يحيا إن كانت الحياة هي التخلي عن إنسانيته؟ ها هو الآن قدره يقوده نحو النهاية، لا.. بل يرافقه كما يرافق الجلاد المحكومَ بالإعدام إلى المقصلة.. خاضع، مستسلم، مقيّد بخيط وهمي إلى فنائه.. إنه القدر الذي على كل إنسان أن يخضع لمشيئته.. إنه السهم الذي يفقأ عيناً إذا عاندته. "اِستسلم له وستكون نهايتك رحيمة.. إن لم يكن الآن فغدا". هذا ما فكّر فيه طويلا.. الموت قبل الأوان لم يكن من بين خططه أبدا، أراد أن يستمر، أن يعيش وأن يكافح من أجل بصيص أمل، ولكن ها هو الأمل يغدو ألما، وها هو الموت يحدّق إليه من تحت النافذة راغبا في ابتلاعه. صمّام الأمان هو الموت، هناك حيث تختفي الحقيقة الأبدية، هناك تتوقّف الحركة حيث ينسى الجميع من نكون.. هناك لن تكون دموع ولا ألم، هناك يتوقّف الزمن وتُمحى الذكريات.. كلّ شيء يتكفل به الزمن مهما كان مؤلما أو جارحا. الزمن يشفي كل شيء، الزمن قلب العالم وهو إكسير الحياة.

لم يعد يعرف الأمل منذ مدة ولا حاجة به له بعد الآن، المعجزة هي كلّ ما يحتاجه الآن، ولكن هيهات.. فالمعجزات تليق بالأنبياء وهو المدنّس بجبالٍ من الخطايا.. هو يعرف أنّ أمثاله من البشر لم تعد تصلح لهم الحياة، ولا رجاء لمن انتهى من الماضي ويئس من المستقبل.

نهض من مكانه بهدوء يجرّ خطواته المنهكة، مُنكّس الرأس مكسور الخاطر، يكاد ذقنه يلامس صدره متّجها نحو النهاية. كان الرواق خاليا في تلك الدقيقة. نزع إبرة المصل من ذراعه وتركها تسقط على الأرضية، وكأنّه يتطهر من أردان هذا العالم.. فتح النافذة المطلّة على الحديقة تاركا رياح الخريف تدغدغ الإنسان الذي بداخله.. الإنسان الذي لم يعد يشعر بشيء. هواء بارد ورطب مضَمَّخ برائحة الأشجار. برز نصف جسمه العلوي خارج النافذة، مستنشقا الهواء العليل ومالئًا رئتيه منه، شاعرا بسكينة لم يسبق لها مثيل، أيكون هو الموت إذن؟ تدفّق الدم في عروقه بقوّة وأغمض عينيه تاركا جسمه يهوي في الظلام.. ولكن في غمرات اليأس والاستسلام التام أحسّ بقوة تجذبه إلى الخلف لتعيده إلى داخل الرواق.. انغرز إطار النافذة داخل بطنه وثبت المشهد أمامه، من المفروض أنه الآن في أسفل الهاوية.. من المفروض أن تلتهمه الجاذبية نحو قاعها.. لكنه لم يسقط ولا يزال شاخصا ببصره نحو الأرض، تلك النهاية التي لا تزال بعيدة عن نظره.. ارتدّ إلى داخل الرواق وفقد القدرة على التوازن، فسقط بقوة على الأرض بجانب ذلك الشخص الذي حرمه من الموت. انكمش على نفسه، كشّر عن أسنانه وضغط بقوة على عينيه، ماسكا صدره بكلتا يديه. **"هل أنا**

حي؟ آه صدري يؤلمني.. أنا حي.. هذه الأرض باردة وصلبة، لا أزال حيا، أليس من المفروض.. نهايتي كانت وشيكة وأمام عيني مباشرة، لم يكن يفصلني عنها سوى بضعة أمتار وينتهي كل شيء ولكن.. آه.. أنا حي.. نعم أنا حي، أشعر بالهواء يتدفّق إلى رئتي كما لم أشعر في حياتي.. كيف لم أمت بعد؟ كيف فشلت حتى في الموت؟ فشلت في الحياة وها أنا أفشل من جديد في اختيار قدري.. آه الحياة تأبى أن تتركني بسلام.. إنها دائما ضدي، كل شيء فيها يقف أمامي كالنِّد. لا أزال مستلقيا ومن المفروض.. آه.. هل حقيقة مازلت حيا ولم أمت بعد؟.. هذه الأرض باردة وصلبة، والبشير هنا أمامي ملقى على الأرض.. إنه هو من قام بجذبي إلى الخلف.. ظهر اللعين في الوقت غير المناسب.. كيف لم أمت بعد؟ إنها المرة الثانية التي يمتنع فيها الموت عنّي.. فشلت في كل شيء.. حتى الموت نفسه سخر منّي.. ههه.. أنا مجنون.. لابد أنّه سيقول عنّي أنني مجنون وهذا أكيد.. مظهره يدلّ على ذلك.. يبدو أنه لم يصدّق بعد ما حدث منذ قليل.. نعم.. كنت أريد أن أضع حدا لحياتي البائسة.. وماذا بعد؟.. إنه قراري اتّخذته منذ زمن طويل ولا يعود ذلك لأحد غيري.. يا لمظهره المريع! إنه فعلا مثير للشفقة؛ فعيناه جاحظتان، ولسانه الأزرق يتدلّى من فمه من الدهشة.. آسف لأني تسببت في كل هذا لك، وآسف أكثر لأنيّ فشلت في مهمتي كإنسان، فشلت في كل شيء.. حتى الموت نفسه..".

خرج الممرّضون من مكاتبهم ليروا سبب تلك الضجة التي تحدث في الرواق، ولكن البشير هدّأ الوضع مشيرا إلى أنّ حسين

انزلق على الأرض بعد أن فقد التوازن. كانت سعاد تقف عند الباب، فاغرة الفم ترتعد ركبتاها وتستند على إطار باب الغرفة. شاهدت كل ما حدث بأم عينيها، رأت كل شيء أمامها ولم تستطع أن تُحرّك ساكنا.. راقبت حسين والدمع يغسل وجهها وهو يدنو رويدا رويدا نحو غرفته. تخطّاها في تلك اللحظة نحو سريره بخطوات متذبذة وبطيئة، ماسكا صدره بكلتا يديه ومنكمشا على نفسه وكأنّه يخشى أن تهوى رئتاه على الأرض. ألقى بنفسه على السرير دون كلمة، متكوّرا في وضعية الجنين، صالبا ذراعيه أمامه وقد لفّ المكان صمت عميق.. بدا كروح تغادر قبرها لتعود إلى عالم الأحياء. سالت الدموع من مقلتيها بنفس الهدوء ولكن بإحساس عميق، ثم أطرقت رأسها أمام نظراته الثابتة والمتألمة:

- حسين.. لماذا؟

جلس دحّو على حافة سريره مراقبا حسين من وراء كتف ماسينيسا الذي حاول الجلوس هو أيضا.

- ما الذي يحدث؟

لم تنتبه سعاد لسؤال ماسينيسا، وظلت تنظر إلى حسين بعدم تصديق تنتظر الجواب بيأس.

- ما الذي حدث سعاد؟ هيا أخبريني.. لماذا أنت صامتة؟ ما به؟

- لماذا؟ حسين أخبرني.. لماذا تريد الموت بهذه الشدة؟ لماذا؟

اختنق كلامها بالدموع وسمحت لنفسها ولأول مرة أن تخاطب حسين أمام ماسينيسا.

- لقد حاول إلقاء نفسه من النافذة..

خرج دحّو عن صمته أخيرا، فالتفت الجميع نحوه وكأنهم سمعوا شيئا غريبا.

- اصمت يا دحّو.. دعوا الرجل بخير..

سدّ البشير فتحة الباب بجسده الطويل ولسانه لا يزال خارج فمه، وبرزت أسنانه الصفراء أثناء مخاطبته لدحّو:

- عد إلى سريرك ولا تزعج أحدا في الغرفة.. ماسي هل أنت بخير؟

أوْمأ ماسي رأسه بالإيجاب. وقف البشير مدّة ينظر إلى حسين بصمت، وظهر بريق لمعان في عينيه، ثم تحوّل ذلك اللمعان إلى تلألؤ كاد يفيض من عينيه، ولكنه اختفى في تلك اللحظة دون أن يقول شيئا آخر..

-13-

عصف البرق بومضات خاطفة، ثم أعقبه دويّ قويّ جعل من دحّو يتكوّر في مكانه ويغلق أذنيه خوفا من أن يخترقهما الصوت مرة أخرى. اِستيقظ هذا المساء قلِقا، يدور في مخيّلته صُوَر لأشياء كثيرة غريبة ومرعبة. أخذ يحرّك يده في الهواء ليُبعد شيئا غير مرئي من أمامه وهو يصرخ بحدة. اِستيقظ كل من في الغرفة بسبب ذلك. جاءت الممرّضة لتتفقّد الوضع ولكنها اكتفت بتوبيخه ثم تحذيره من الصراخ مرة أخرى..

بعد تلك الزيارة الطارئة للممرضة ساءت حالة ماسي بشدة، وتقيّأ على الأرضية دون توقف. سقط غطاؤه وانحسرت قبّعته عن رأسه الفارغ من الشعر، ساعدته سعاد على شرب الماء ثم تكفّلت بمسح الأرضية، لم تغادر الغرفة بعد زيارة الصباح، ظلت هناك تخطر الغرفة ذهابا وإيابا، ينْهُبها القلق والتفكير.. كان وجه ماسينيسا مُصْفرًّا بشدة، وأوداجه مرتخية، غار صدره وتقوّست كتفاه؛ بحيث برزت حدبة على ظهره وهو يحاول الاعتماد على مِرْفقه للجلوس. لم يكن في عينيه أيّ بريق، جفّ جسمه من الماء.. فرغم إلحاح سعاد له على شرب الماء إلا أنه لم يشرب إلا ليمرّر به الدواء داخل جوفه. انتبهت حواس دحّو إلى العربة التي تجرّها تلك الممرّضة الثّخينة. امتلأ رعبا وتزايدت وتيرة حركته، فأصدر صوتا حادًّا مزّق سكينة المكان، وجعلَ الممرّضة تصرخ في وجهه بحزم:

- ألم نمنعك من الصراخ؟ نحن لسنا هنا في روضة أطفال لنطلب منك السكوت في كل مرة.

صمتت برهة ملتهمة إياه بنظرة جنونية جعلته ينكمش في مكانه ككلب مذعور.

- لا تمثّل علينا دور المجنون هنا، كلنا نعلم أنك تثير المتاعب لجلب الاهتمام.

استدارت بعربتها نحو ماسي. كانت امرأة أربعينية يميل جسمها إلى البدانة مع قصر قامتها، لها وجه فضّي مستدير، يحف به شعر مصبوغ بلون ياقوتي عتيق. استطاع حسين أن يعرف هذه المرأة من خلال قلادتها الذهبية التي تكلّل نهديها العظيمين، إنها هي التي رآها أول ما استيقظ من غيبوبته. ولم تمضِ لحظات طويلة حتى تبعها على الأثر الطبيب عثمان بسحنته الأرستقراطية، متبوعا برائحة عطر ما بعد الحلاقة، وعُبوسه السرمدي، وجبهته المستوية كالأفق. غيّرت الممرضة سميرة المصل الفارغ بآخر ممتلئ وعدّلت تدفقّه. حرّك الطبيب شفتيه الرقيقتين بعد أن ألقى نظرة على التقرير الذي أعدّه الممرض البارحة، بينما فحصت سميرة ضغط ماسينيسا وحرارته.. كان خارج إطار المادة، تحرّكت أطرافه آليا وكأنّها مبرمجة تلقائيا للتحرك وفق أوامر الطبيب. انتبه أخيرا إلى الطبيب الذي تحرّك حوله وبدأ ينظر إلى سعاد منزعجا.

- نعم..

توجّه نحو سعاد ليذكّرها بحضور سيادته.

- من أنت؟

سأل بلهجة جافة.

- أنا؟ أخته.

أشارت بذراع مرتجفة إلى ماسي دون أن تتجـــرّأ علـــى رفـــع بصرها لتدرأ عنه نفسها نظراته المتهمة.

- أرجو أن تغادري الغرفة حالا.
- آسفة.. ولكن.. حسنا.

نظرت إلى وجه عثمان الأرستقراطي ووجدته أكثر قسوة مـــن كلامه. وبحركة واحدة دارت نحو الباب لتغادر الغرفة. مال عثمـــان فوق ماسي الذي كان كخشبة طافية فوق سطح الماء، وجّــه نحـــو وجهه مصباحا صغيرا، فحص به عينيه عن قُرْب، ثم عاد إلى هيئتـــه الأولى ناطقا بكلمات فرنسية غير مفهومة.

- ارفع قميصك واستدر.

"حاضر يا صاحب الجلالة، تطْرُدُ أختي أمامي؟ تطرد من أحيا لأجْلِهم وبتلك القسوة؟ من أنتَ؟ ومن يظنُّها؟ تريدُ ظهري؟ حسنا ها أنا ذا أعطيك ظهري، خذ مؤخّرتي اليابسة إذا أردت.. إنّ هذا الجسم كلّه مليئ بالكدمات.. هو لك، وأيّ شيء آخـــر تريـــده أيضا، أنا عبدك ابن عبدك ابن أمتك، افعل ما شئت.. أُؤْمُرْ وأنـــا قيْدُ إرادتك.. اُطرد أختي واملأ جوفي بسمومك القاتلة.. لا يهّم، كل شيء حُسِم من البداية.. اِفعل ما يحلو لـــك.. دواؤك لم يعـــد ينفع.. الحديد ساخن ولم يعد ينفع الضرب.."

- أعد قميصك وافتح فمك ولا تتحرّك.

"يا صاحب الجلالة، وجهك الأملس يقترب أكثر من اللازم، وجبهتك المسطّحة كالصبورة تزداد ضخامة، وتلك المِصطبة الـــتي هي أنفك تطلق زفيرا يلامس وجهي.. يا صاحب الجلالـــة أبعـــد

وجهك القذر عنّي.. يا إلهي تلك الهالة الزرقاء التي تحيط بعينيه تزداد حجما.".

- t'es encore fatigué? (هل مازلت تعبانا)؟

رنّت كلماته الفرنسية في أذن ماسي، ودغدغه إحساس عجيب جعله يفكر في تلك الإشهارات التي تعرضها القنوات الفرنسية للتّرويج لأشهى الوجبات، تذكّر أغنية لارا فابيان " je suis malade"، أخذ يستدرك الكلمات في مخيلته.

je suis malade.

Complètement malade.

Comme quand ma mère

Sortait le soir

Et quelle me laissait

Seul avec

Mon désespoir

- نعم، مازلت أشعر بالتّعب والإغماء، أحيانا تنتابني رغبة في التقيؤ، ولا أستطيع النوم بانتظام في الليل، معدتي...

قاطعه الطبيب بحركة من يده، ثمّ نظر إلى الممرّضة لوهلة وكأنه يفكّر في أمر يشغل تفكيره منذ مدّة. اِقترب من ماسي أكثر عندما ابتعدت الممرّضة في تلك اللحظة بتواطؤ خفيّ لتُعِدّ الحقنة.

- اِسمعني يا سي يسعد، حالتك لم تتحسن منذ دخولك إلى هذا المستشفى، لذا نصيحتي لك أن تدخل مستشفى خاصًّا، فهو أفضل لك من حيث العناية والإمكانات، وإذا أردت ذلك فسأرّتب لك الأمر بسهولة.

"مستشفى خاصًّا؟! هكذا إذن أيها الحرامي.. تريد سلبـــــي في مستشفى خاص إذا.. تريد أن تعتني بـــي بعد أن تجاهلتني كل هذه المدة.. إذن تريد تنفيذ سرقتك في مستشفى خاص؟ يا له مـــن لئيم..!".

- وأنت من ستشرف على معاينتي هناك؟

أحسّ بالمد والجزر الذي أحدثه غليان دمه داخل عروقـــه. أدار وجهه المصطبغ بلون برتقالي نحو الباب، وشاهد أخته تقف في الرواق تحدّق إليه بقلق وحزن. دارى الطبيب ارتباكه بتفحص وصفة الدواء التي كتبها قبل يومين:

- نعم، سأكون هناك مع مجموعة من أطباء مميزين، وســـتلقى العناية اللازمة.. لذا أنصحك بذلك، فصحتك في تـــدهور مستمر كما أنّ نظافتك...

عند هذه الكلمة لم يستطع ماسينيسا أن يتمالك أعصابه أكثـــر ممّا فعل. قفز على الأرضية بعنف وانقضّ على الطبيـــب كـــوحش مفترس، مال فوقه بكامل قوّته، يكزّ على أسنانه ولهاثه يرتطم بوجـــه خصمه. شدّ عضلات ذراعيه وأحكم قبضته حول عنقه، بينما سال الدّم غزيرا من ذراعه الأيسر بعد أن مزّقت إبرة المصل جدار عروقـــه ثم جِلْده المتقرّح:

- تريد العناية بـــي؟ هاه.. تكلّم يا ابن القحبة..
- توقّف ماسي..

ضاعت صرخات سعاد وسط الضجيج الهائل الـــذي أحدثـــه تصادم الجسدين. تطاير الرذاذ من فمه بالسب واللعن دون أن يـــدع ذرّة قوة في جسده تذهب سدى:

- لن أتركك اليوم يا ولد القحبة.. أيها الشحاذ سأريك العناية الحقيقية.. تعال.. خذ...

برزت عروق عينيه بشدّة، وتصلّبت عضلات ذراعيه حول رقبة الطبيب. كانت دماؤه تفور وتغلي، والصوت الوحيد الذي استطاع سماعه هو تنفّسه السريع وصوت الرعد في الخارج. لم يصله صراخ الممرّضة سميرة الذي ملأ المكان ضجة وجلبة وهي تنادي للنجدة. خرج الزبد من فم عثمان ومُنِيَتْ كلّ محاولاته لتخليص نفسه من جحيم الفتى بالفشل. تخبّطت رِجلاه عبثا على الأرض محاولا رفع ثقله. ألقى برأسه إلى الخلف في محاولة لجذب ماسينيسا معه والتخلص من قبضته بالاستناد على الجدار، ولكنّهما التحما أكثر، وقد دفعه الطبيب برفسة قوية بين فخذيه فارتطم كلاهما بالعربة، والتي انقلبت وسط الغرفة محدثة دويا مرعبا. ارتخت قبضة ماسي وبدأ الوهن يتمكّن منه ولكنّه لم يتركه تماما، وعاد إليه بلكمة أصابت صدره وأخرى خده الأيسر. ارتفع منسوب الأدرينالين في جسم ماسي وكاد يغمى عليه من الإرهاق.. فقد جحظت عيناه لشدة الضغط، وسالت الدماء من ذراعه بغزارة على حافة السرير. طريقة طرده لسعاد بذلك الشكل من الغرفة، والوضعية المزرية التي آلت إليها أسرته جعلته يشعر بالقهر لأول مرّة في حياته. وهو يحدّق في وجه الطبيب المحمر والذي قطع الهواء عن رئتيه في تلك اللحظة، أحسّ بأيادٍ قوية تجذبه إلى الخلف، وكاد يسقط على قذاله لولا أن أمسك بطرف العربة في آخر لحظة، ولم يكد يقف على رجليه حتى تلقّى ركلة وجّهها إليه أحدهم بعنف أصابت فخذه الأيسر. اغتنم عثمان فرصة تحرّره ووكزه في صدره بقوة. صرخ ماسينيسا من الألم الذي

عصف به في تلك اللحظة، ورأى كل ما حوله ضبابيا، بدأ يفقد السيطرة على نفسه. حدث كل شيء في لمح البصر، حتى أنّ حسين لم يملك الوقت الكافي لمنع ما حصل، ناهيك عن نفسيته المنهكة التي منعته من التحرك بسرعة ليتحرر من إبرة المصل.

التعب نال من ماسينيسا وقد حال دون رؤيته لخصمه رئيس القسم حميدة العياشي بجثته الضخمة. دفعه بكلتا يديه لينهار ماسينيسا تحت وطأة الإنهاك الذي نال منه هذه المرة، واجتنب السقوط على الأرض بالاستناد على حافة السرير. أراد القتال والانتفاض إلى آخر رمق، ولكن صورة آمال وهي تقف وراء الممرّضة جعله يفقد آخر رمق. وقفت وراء زميلتها تخفي نصف وجهها وتطلّ بالنصف الآخر على المشهد من بعيد، دون أن تنتبه للدماء التي بدأت تقطر على الأرض. امتلأ مدخل الغرفة بالمتفرجين وانهالت أفواج من الممرّضين وعمال المستشفى إلى داخل الغرفة. وصل رجل الأمن في تلك الدقيقة يرتدي زيًّا أسودَ كسواد هذا اليوم يشق طريقه بين الواقفين. اشْرَأَبّتْ الأعناق وشَخُصَت الأبصار نحو المشهد الدرامي، ووسط الضجّة ارتفع سعال الطبيب مما جعل الممرّضة تُقْبِل على تهدأته. تقدّم حميدة بخطوات ثقيلة من ماسينيسا وكان يرتدي قميص الممرّضين، إلا أن هالة غريبة رمادية كلّلت وجهه المتجهم، أظلمت جبهته وبرزت خطوط جبهته المستوية. رفع يده الثقيلة نحو ماسينيسا الذي كان لا يزال ينزف بشدة وقد تلوَّنّت يده باللون الأحمر:

- أنت في ورطة الآن.. هل سمعتني يا هذا؟

توقّف لحظة ليُضْفي أهميّة على كلامه، ثم شدّد على مخارج الألفاظ مستطردا:

- سنسلّمك للشرطة بسبب ما فعلته، اِنتظر وسترى كيف سنتعامل معك.. لقد عبثت مع الشخص الخطأ..

استدار نحو رجل الأمن وأشار إليه بإيماءة ووقف كلاهما ينتظر مبادرة الآخر. نظر نحوه في صمت استعراضي وهو يبحث عن كلمة أكثر تهديدا وتعنيفا ليبثّ الرعب في نفوس المشاهدين، ويؤكّد على جدارته كمسؤول:

- لقد اعتديت على الطبيب أثناء تأديته لمهامه، لن نتساهل معك.. هل تعلم هذا؟ لن نتساهل معك.. هل تعي ذلك؟ لن نتساهل معك أبدا.

لوى يده في الهواء مندّدا بفعلته. نزلت الدماء قطرة بقطرة متجمّعة في بركة صغيرة سرعان ما لوّنت الأرضية وجزءا من الفراش باللون القرمزي. تحرّك صدره إلى أعلى وأسفل راسما على وجهه تقطيبة حادة تحدّى بها كل من كان داخل الغرفة. تقدّمت سعاد بخطوات ثابتة نحو ماسينيسا، رافعة ذقنها ومصعّدة نظرها بعد أن تخطّت الجميع بكامل ثقتها وليونتها، بدت جميلة وفاتنة وهي تشدّ ذراع ماسينيسا الذي بدأ يفقد التوازن. ساعدته على التّمدّد ثم رفعت ذراعه المصبوغة بالدماء:

- من أنتم يا ناس؟! ألا ترون أنه ينزف بغزارة؟ توقّفوا عن التّحديق هكذا وضمدوا جراحه..

التفتت نحو عثمان الذي حكّ رقبته ببطء مكشّرا عن أسنانه.

- لو يتجرّأ أحدكم هنا على لمس شعرة من أخي فسأقلب هذا المستشفى على رؤوسكم، هل تفهمون هذا؟ أنتم من عليه أن يقلق.. وأنت الذي تحدّق إليّ بهذه الطريقة ألا تخجل من نفسك وأنت تصرخ في شخص مريض تنزف

دماؤه أمام عينيك؟ لو كنا في مكان آخر لما تجرّأت على النظر إليّ هكذا..

- سعاد.. كفى..

انفجر ماسينيسا فجأة.

- لا تتدخّلي في الأمر.
- حسنا.. سنتخذ معكم الإجراءات اللازمة.

رقصت عينا حميدة في الأرجاء، حكّ بأصبع يده اليمنى صدغه وكأنه يكشط عن فكرة ترقد في دماغه. كانت أزواج من الأعين تحدّق نحو ماسينيسا وسعاد. قامت آمال بحركة سريعة لمساعدة عثمان على الخروج من الغرفة، اِنسلّت من بين الجميع كحيّة رقطاء بين جنبات الصخور. كان حميدة العياشي في الخمسين من عمره، ضخم الجثة ثقيل الحركة، له ذقن نابت بالشعر وسوالف عريضة زاحفة إلى أسفل شحمتيْ أذنيه، يقصّ شعره بتسريحة الجندي. أوْمَأ للحضور بمغادرة الغرفة، فبقي رجل الأمن يسُّد فتحة الباب رفقة الممرّضة سميرة التي وقفت بهلع محتمية خلفه مباشرة.

- سميرة، أطلبي من بختة المجيء لتنظيف الأرضية، واطلبي من البشير أن يأتي ليعتني به، إنه في غرفة الدواء..

دار جسمه الضخم حول نفسه خمسين درجة، ثم ألقى نظر أخيرة نحو ماسينيسا متجاهلا سعاد وكأنه إنذار عن وقوع شيء ما. أدار عنقه الغليظ نحو الباب وتراجع خطوتين للوراء ليُفسح المجال للبشير الذي ظهر في تلك الأثناء. رتّب ما سقط على الأرض أثناء العراك من أدوية وأدوات بمساعدة سعاد. غادر حميدة الغرفة ثم تبعه على الأثر رجل الأمن.

جاءت عاملة التنظيف بعد دقائق إلى الغرفة للمرة الثانية في هذا اليوم. كانت على وشك المغادرة حين أتتها تلك السميرة لتكلّفها بعمل آخر تختم به يومها الشاق والطويل. دخلت مقطبة الجبين، حاسرة الذراعين وكأنّها تستعد لمعركة طاحنة. تمتمت ببضع كلمات غير مفهومة، ولما أتت على الموضع المراد تنظيفه هالها المنظر المشمئزّ، فتوقّفت مشدوهة لأثر الدماء التي غطّت جانب السرير ملوّثة الأرضية الغرانيتية الخشنة. لانت ملامحها المتخشّبة وانكمش الجلد على جانبيْ أنفها كالفنك، ولأول مرّة منذ سنوات تضع يديها على جانبي خصرها وترمي بالمكنسة جانبا، ثم تنظر إلى تلك الممرّضة نظرة جانبية جامدة، ارتفعت شفتها العليا وبرزت أسنانها الأمامية الدّقيقة معبّرة عن استياء لا حدود له.

- من الذي فعل به هذا سميرة؟ الفتى يبدو مريضا جدا..

كوّرت قبضتيها فوق خصريها وهي تصفع الأرضية بقدمها وكأنها تقول هيا تكلمي أنا أنتظر.. ولما طال الصمت زمجرت قائلة:

- لا تقولي أن عثمانك قام باستفزازه مرة أخرى؟! ذلك النذل؟ وأنت كنت توسوسين له عوض أن تساعدي هذا الفتى المسكين.. تقفين هناك ككلب حراسة.. ألا تخجلين من نفسك؟
- راقبي لسانك يا عاملة النظافة..
- ماذا تقولين؟! أيتها الوسخة، أنسيت ماذا كان يفعل بك الأطباء منذ سنوات في قاعة الأشعة السينية؟

تحوّلت عينا سميرة عن مواجهة بختة ودارتا متفحّصة في الوجوه بقلق.

- المرة القادمة فكري في ما تقولين قبل أن تطلقـــي لســـانك الطويل كالأفعى.. تفعلين كل ما يَخجـــل المـــرء منـــه ثم تتجرّئين على مخاطبة مولاتك بهذه الطريقة.

كان صوت بختة يصل إلى خارج الغرفة، ولم يجرؤ أحد علـــى التدخل. تحوّل وجه سميرة إلى القرمزي، واهتـــزّت القـــلادة فـــوق صدرها وتسارعت حركتها في جمع الدواء وإعادته إلى العربة.

- هيا غادري. نعم، ليس لديك ما تقولينه بعد هذا.. غادري المكان أيتها المنافقة.

جرّت سميرة عربة الدواء الثقيلة تزدرد ريقها لتمنـــع غصّـــة في حلقها من أن تشي بحنقها. تراكمت الدموع عند طرفيْ عينيها وهي تقترب من العتبة:

- ربـــي وكيلك على ما قذفتني به من كلام.
- ربـــي؟ أنت تعودين إلى نفاقك مرة أخرى.. لو لم أكـــن على حق لما ذكرت الله. تحتاجونه للتّملص مـــن واقعكـــم المزري فقط.. هيا اغربـــي عن وجهي أيتها الـــ...

خفضت صوتها حتى لم يعد مسموعا.. "قحبة".

كان الجو داخل الغرفة صامتا، مشحونا بالأفكـــار والخـــواطر، ووراء النافذة انتشر ضباب كثيف ليلفّ كل شيء ويصبح المظهـــر رماديا قاتما. بدأت الأمطار تخف في الخارج، تنشر رذاذا رقيقا بلَّـــلَ زجاج النافذة. وقفت سعاد أمام حوض الغسيل لتشطف الدماء التي بلّلت قميص ماسي. نظرت من خلال المرآة إلى وجهها، حاجبـــان مستقيمان وأنف صغير، احمرّت أوْداجها وفمها بشكل جعل من أيّ إضافة للماكياج عديمة الجدوى. رأت على جانب صـــورتها ســـرير

حسين.. كان يتمدّد هناك هادئا يحدّق إلى السقف، وذراعه فوق جبهته مغطيا جزءا من ملامحه. اغْرَوْرقت عيناها بالدموع وأطالت لحظات تواجدها أمام الحوض لتداري دموعها. كشّرت بختة عن ساعديْها وانحنت فوق البقع لتنظّفها بممسحة مبلّلة. الكل كان يعمل في صمت، حتى البشير لم ينبس بكلمة منذ دخوله الغرفة، وبين الفينة والأخرى يُلقي نظرة مرتابه على حسين. نظّف جرح ماسينيسا واستبدل الضمادات القديمة بأخرى جديدة، ثم حاول تعقيم بعض الجروح على مستوى الكدمات. "**كيف يحتمل كل هذه الكدمات؟! نظّفت له الجرح، ولكن لا يمكنني أن أعتني بكل هذه الجروح لوحدي.. إنه عملي، ولكن لا يزال بانتظاري مرضى آخرون، ودوامي سينتهي على الساعة الرابعة مساءً.. سأطلب من حميدة تغيير جدولي الزمني.. العمل في الليل هادئ ومُمرْض. كما أنّ زوجتي مشلولة بالكامل لا أستطيع مُجامعتها، ولو قُدِّرَ لي أن أستمني في الليل فإن أبنائي يرقدون معي في نفس الغرفة.. بنتي فاطمة هي الأكبر سنا فهمت والدها وذهبت لتنام في المطبخ، ولكن إخوتها الصغار يظنون والدهم بدون رغبة.. آه منذ متى لم أنم معها في الليل؟ خمس سنوات؟ لا.. بل أكثر.. زوجتي لم تعد تشعر بجسمها، وأنا أيضا لا أستطيع أن أتظاهر بعدم رغبتي في الجنس.. اشتقت إلى الدفء الذي كان يكتنفنا في السابق عندما كنا نمارس الجنس، ولكن الآن لا أمل أبدا.. قالت مرّة أنها تسمح لي أن أتزوج من امرأة أخرى.. وكم كنت غبيا حينما تظاهرت بالغضب لقرارها فبدأت هي بالبكاء، لماذا بكت يا ترى؟ لأجل حرماني من الجنس؟ أم لأنها كسرت خاطرها بدعوتي إلى اتخاذ خليفة لها في**

البيت بينما هي تراقب وتـــرى وتســـمع كـــل شـــيء؟ لا.. لا يا البشير.. لن تفعلها أبدا وخاصة مع العمرية.. إنهـــا في الأخـــير زوجتي وأم أولادي، ولو كانت مكاني لفعلت أكثر مما أفعل أنـــا الآن.. لماذا أفكر في كل هذه الأشياء الآن؟ لا.. لم تعد ترغـــب في الحياة، ولا يمكن لي أن أنهي حياتي أيضا.. بعض الأنانية لا تضـــر.. دائما ما كانت تملأ رأسي بتذمراتها وشكواها التي لا تنقطع أبدا.. تنادي بملئ صوتها.. البشيييير الثلاجة فارغة.. البشيييير المصروف.. زيت، بطاطا.. بصل.. حمص... كل يوم.. متى ينتهي هذا يا إلهي؟ لا أكاد أضع قدمي داخل البيت حتى كانت تبـــدأ بالصـــراخ.. البشيييير.. ماذا؟.. الحليييييب نفد.. أجرتي الشـــهرية لا تكفـــي فماذا أفعل؟ هل أسرق البنوك؟ أم أصبح رئيس وزراء وهذا أمـــر مستحيل؟ أمّا السرقة فممكنة، ولكن سينتهي بـــــي الأمـــر إلى السجن.. آخ آسف.. لقد آذيته دون أن أنتبه.. ضـــغطت علـــى الكدمة أكثر من اللازم ما لي وللحليييب؟ هذا المـــريض مضـــرج بالدماء وأنا أفكر في الحلييب.. صراخها لا يزال يضرب داخـــل رأسي كالمطرقة.. عليّ أن أتدبر أمري لأجد حلا مناسبا، فعملـــي هنا لم يعد كافيا.. خمس بنات وولدان وزوجة مشلولة! كيف لي أن أطعمهم جميعا والكراء من جهة ومصاريف الدراسة واللباس مـــن جهة أخرى؟ أففف من كل هذا.. تعبت.. تعبت.. عليّ أن أجـــد خطّة ملائمة.. العمل في الليل مناسب ولن يزعجني أحد.. ولكـــن هل من الممكن أن تنجح خطتي للمرة الثالثة؟ حتما فـــلا ســـبيل لمعرفة ذلك سوى المحاولة من جديد.. عندها سأشتري كمية مـــن سمك السردين وقطعة لحم غنم كبيرة تكفي لأسبوع، وأضيف لهـــا

قليلا من الدجاج والتوابل، إنها تحب سمك السردين.. وسأطعمها بنفسي.. أخخخ آس.. لقد ضغطت على الفتى مرة أخرى.. ظننته قطعة لحم كبيرة.. نعم.. سأنفذ العملية وأريح الجميع.. لقد انتهيت من هذه الغرفة، والآن يجب أن أقول كلمة لهذا المجنون الذي أراد أن يقفز من النافذة..".

- إن احتجت لشيء فأنا في خدمتك أخي. أتمنى لك الشفاء.

وقبل أن يغادر التفت مرة أخرى وكأنه يريد تبديد شكوكه:

- سنلتقي غدا..

في الزاوية القصوى من الغرفة انزوى دحّو في ركنه يصالب ذراعيه فوق صدره، ويدمدم بكلمات غير مسموعة وكأنه يرتل آيات من القرآن، لكن صوته بدا أغرب من الترتيل، كان شيئا مختلفا، خُفوت في الصوت ثم هياج في حركة جسمه الرتيبة. راقب ماسي ردحا من الزمن متعرّقا بشدة رغم برودة الجو، تسَمّر نظره على موضع الدماء فوق الأرضية، ثم تابع عملية كشطها من الأرض باهتمام يدعو للدهشة.

- الله يعطيهم مصيبة.. يظنونني خادمة أمهاتهم.

لم يكن صوت بختة مرتفعا، فبدا وكأنها تخاطب شخصا لا تراه إلا هي. نظرت بطرف عينيها إلى ماسينيسا الذي غاص في فراشه شاردا بذهنه وخياله إلى الجدار المقابل. صمتتْ قليلا ولم تكن تنتظر الجواب. جسمها النحيف وحركتها النشيطة جعلاها تبدو وكأنها بدأت دوام عملها منذ دقائق فقط، ففي ظرف وجيز نظّفت كل البقع التي على الأرض، وبقيت تلك التي على لحاف السرير والغطاء. وقفت منتصبة بجانب السرير وهي تتفرس في تعابير وجهه المحزنة. مرّت فترة طويلة لم تتعاطف مع مريض بهذه الطريقة. مصّت شفتيها

وأطبقت جفنيها مرّات متتالية. لم يسبق لها أن بكت أمام أحـــد في حياتها إلا يوم انهال عليها زوجها بالضرب بعد أيام من زواجهمـــا، ويوم طلاقها في المحكمة. أدارت رأسها وذهبت إلى مكنستها مع أنها لم تكن تحتاج إلى المكنسة في تلك اللحظة. ذهبت إلى ركـــن مـــن الغرفة وبدأت تكْنُس مع أنّ ذلك الركن لم يكن بحاجة إلى التنظيف. وقفت في مكانها ساكنة رغم أنّ سكونها لم يكن مـــبرّرا. اشـــتدّت قبضتها على المكنسة رغم أنها لم تكن تواجه عدوًّا. أخيرا استسلمت ونزل على خديها خيطان من الدموع.. خيطان رفيعان ومتوازيـــان شقا طريقهما بثبات إلى أسفل خديها. عادت إلى جانـــب الســـرير متفادية التكلم أو النظر إلى أحد. مسحت دموعها بطرف مئزرها ثم سألت سعاد برقة غير معهودة:

- دعيني أنظف له هذا الغطاء.

تزحزح ماسينيسا وتركها تنزع الغطاء دون أن تصدر عنه أيـــة حركة توحي بالحياة، شيء ما بداخله خمد للأبد.. سال مع الـــدماء على الأرض وتبعثر مع الكلمات الأخيرة التي قالها. رغم أنّ بختة امرأة كثيرة الكلام إلا أنها اكتسبت عبر السنين خبرة لا بأس بها في مخاطبة المرضى لا يضاهيها فيها طبيب نفسي. كانت لَبِقة لا تُظْهِر لباقتها إلا مع من يروق لها أو يرِقُّ له قلبها.. لبقة في التعامل مع الناس، ومـــع أحاديثها الكثيرة المسلّية صارت محبوبة من طرف الجميع، مما جعـــل الممرّضات يخشينها اتِّقاءً لحِدّة لسانها ولذاقتها المعهودة. كانت الدماء تغطي ظاهر كفها وبقعة حمراء على مئزرها الأبيض.

"ها هي تبتعد حاملة الغطاء واللحاف الملطخين بالدماء نحـــو حوض الغسيل. لماذا تفعل هذا رغم أنّ عملها انتهى؟ يمكنـــها أن

تغادر وهي مرتاحة البال، ولكنها بدل ذلك تعتني بـــــي رغـــم تواجد سعاد.. إنها كريمة ولم أكن أعلم ذلك من قبل.. ظلمتها في البداية عكس آمال التي انصرفت بكل برود ولم تســاعدني حـــتى على النهوض.. تركتني مكدود الروح دون أن تسأل عنيّ.. لقـــد تأكدت ظنوني فيها.. فهي عافتني.. نعم.. لقد اشمأزّت نفْسُها مـــن كل هذه الجروح والكدمات.. أمّا هذه المرأة التي لا أعرف حـــتى من تكون يرقّ قلبها لي. تنظّف سريري كما لم تفعل أيّ امــرأة في حياتي من قبل.. إنها قدّيسة.. إنها كل ما ينقص هذا العالم".

عندما رجعت بختة حاملة الغطاء واللحاف، قامت سعاد بترتيب السرير، بينما ساعدته بختة على النهوض ثم الاستلقاء مرة أخرى على السرير. لم ترفع بصرها نحوه وبالغت في اهتمامها. ألقت فوق جسمه الغطاء، بينما انحنت سعاد بجانبها لتُرتِّب المنضدة. وقع بصر بختة فجأة على الجروح والكدمات التي غطّت ذراعيها المكشـــوفين وأســـفل رقبتها، ولكن سعاد تداركت نفسها بأن سحبت كُمّيْها إلى الأسفل ودارَتْ جروحها، ثم التفتت ناحية ماسينيسا:

- ذلك الطبيب يدعى عثمان داود، وهو شخص متعجرف لا يعرف معنى للاحترام. إنه شخص متغطرس ويظن نفســه بروفيسورا ما.. نهض على أكتاف والده طبيـــب أمـــراض النساء وأستاذ جامعي.. قيل أنه هـــو مـــن توسّـــط لـــه ليتخصّص في أمراض الدم. لقد رأيتم، الجامعة لا تُصْدر إلا الحمقى ليتعلّموا في المساكين أمثالنا.

كانت تنظرُ في الهواء وهي تتكلّم وكأنّها تخاطب شخصا آخر غيرها.

- الكل يعلم أنّه لا يُتْقِن مهنته، مسيرته كلها غش في غش، اسأليني أنا أقول لك.. أعرفهم واحدا بواحد..

نقلت بصرها نحو ماسي لتتأكّد من جدوى مواساتها غير المباشرة، ثم تابعت بصوت عالٍ ومُعَبِّر كإمام خطبة مَلّ الحضور من عِظاته المتشابهة، يريد أن يجلب انتباههم ليُعْلِم الناعسين والنصف نائمين بانتهاء الخطبة لمباشرة الصلاة:

- ربي هو الرزاق وهو الشافي، بيده كل شيء.. الأطباء أداة في يده فقط، يستعملهم كيف يشاء.. كل شيء مسطر في الكتاب، ومن ظلم سينال جزاءه هناك.

أشارت بيدها نحو السقف، وطنّ صوتها في أرجاء الغرفة ليرجع صدى كلماتها، وقبل أن تغادر الغرفة انتبهت إلى حسين الذي بدا أنه سيثقب السّقف بقوة نظراته.

- أنت منصوري حسين، لست مخطئة؟

ركّزت نظرها على جفنيه المنتفخين، فلحمة شفتيه تشققت بفعل الجفاف، وفرّ لون وجهه وبدا كأنه عائد من الموت.

انتبهت حواسه فجأة، فقد أنعشه صوتها المعدني وهي تنطق اسمه كاملا.

- رأيت اليوم فتاة تقف في الرواق بصحبة صديقتها، كانت جميلة جدا بحيث انتبهت لها وأنا أمر من هناك، سمعتها تسأل إحدى الممرّضات عن مريض، فوقع اسمك صدفة في أذني فظننت أنها تقصدك، أردت أن أرشدها إلى غرفتك ولكني تردّدت خشية أن أكون على خطأ.. رأيتها تغادر من حيث أتت دون أن تكمل زيارتها التي أتت من أجلها..

لولا صِغَر سنها لظننتها من الشرطة.

أرادت أن تُشْبِع فضولها بمزيد من التلميح لتجبره على الكلام:

- ربما قامت بزيارتك و لم أرها.

أجابها حسين بالنفي دون أن تتغيّر سحنته المظلمة:

- لم تزرني أية فتاة.. ما اسمها؟ وكيف تبدو؟

بحركة متقنة أدارت عينيها، ونشرت أصابع كفّها تحت ذقنها وكأنّها تستدعي الصورة إلى مخيّلتها بالقوة:

- متوسطة الطول...

رفعت كفّها إلى مستوى كتفها لتُقَدِّرَ طول الفتاة معتمدة على ذاكرتها، أمّا فيما يلي فقد اعتمدت أكثر على خيالها:

- بيضاء البشرة، وهي متبرجة بدون حجاب، شعرها فاتح بنّي مثل لون عينيها، تبدو على أكثر التقدير في العشرين من عمرها..

- لا، لم أعرفها بعد..

هزّت بختة رأسها متفهمة، ومن خلال نظرتها له عرف أنها تشكّ في صحة كلامه. تمنّت له الشفاء ثم غادرت تاركة إيّاه نهبة لتساؤلات لا تنتهي..

"من تكون هذه الفتاة يا ترى؟ وهل يمكن للجمال والصحة أن تزور رجلا أقعده المرض ويئس من الحياة؟ هل يمكن أن تكون هي؟ لا.. لا يجب أن أفكر في مثل هذه الأمور.. أنا لست بخير ولا يجب التفكير في مثل هذه الأمور.. فهذا غير وارد أبدا وخاصة منها هي.. أعرفها جيدا.. أعرف عنادها الذي ورثته عنّي.. لقد سقطتُ من حساباتها ولم أعد أعني لها شيئا غير أنها تحمل جيناتي... أنا لوثة

سوداء في حياتها.. كيف لي أن أطمع في رؤيتها وهي التي نبذتني خلال حياتها.. كيف أطمع في احتضانها بعد أن أضعت فرصة الاحتفاظ بها وهي صغيرة.. تركتها بدون أمّ وهي ما تزال صغيرة.. بالتأكيد ستكون غاضبة، ولكن ألا يذهب الغضب مع الوقت؟ ألا يلين قلبها من أجل والدها؟ كم من مرة حاولتُ رؤيتها في بيت جدها، كم من مرة حاولت الاتصال بها ولكن جدها علّمها الحقد وملأ رأسها بالأكاذيب.. ولكنها غلطتي.. كل ما يحدث بسببي وحدي.. فعلتها بيديْ هاتين وها أنا ألقي اللوم على الجميع.. أنا من عاقر الخمر.. أنا ابن الكلب الذي خرّب بيته بيديه.. أنا الحثالة والقمامة التي استلذّت الألم وانغمست في الحزن كل تلك السنوات.. داريت الحزن بالخمر.. فكّرت في نفسي ولم أفكّر في ابنتي.. حاولت إنقاذ نفسي من براثن الحزن والألم ونسيت أنّ فلة طفلتي الصغيرة تحتاج لحضن والدها.. تحتاج لحنان يعوّضها عما فقدته في ذلك الحادث.. نسيت أن أخبرها كم أحبّها وكم من الأمور الجيدة التي يمكن أن نتشارك فيها لننسى أتراحنا.. كنت أنسى نفسي في الحزن ونسيتُ أنّ حزنها كان أشد.. فقدت والدتها وشهدت على فقدان والدها.. جدّها الحقير هو من زاد الطين بلة ونقل إليها حقده علي، وجعلها ترفض رؤيتي كل مرة.. معه حق.. له كل الحق.. وهل يسمح لها برؤية حثالة مثلي؟ كلب متشرّد يرقد في الشوارع ويلهث وراء شربة خمر.. كل تلك السنوات الضائعة التي لم أرها فيها.. كل يوم يمر سيكون ضدي ولن أستطيع تعويضها أبدا.. هذا مستحيل.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن تكون هي أبدا.. أعرف ذلك.. وأعرفه جيدا.. تُرَى من تكون هذه الفتاة؟

الجزء الثالث

-1-

اِستيقظ ماسينيسا من النوم مُغْمِضا عينيه. لم يرد أن يفتحهما على الألم والانتظار غير المُجدي.. الانتظار الذي يقود نحـــو المعلـــوم، نحـــو الضجر ونحو الموت.. في الحقيقة ضجّ العالم من حوله، وكـــان الـــرواق مشغولا من طرف مجموعة من الممرّضين. مرّ الوقت مسرعا بحيث أنه لم يشعر بعدد الأشخاص الذين دخلوا الغرفة خلال غفوته تلـــك. رفـــع المؤذن أذانه، وبِبَحّة في حنجرته رفع صوته صارخا ليغطّي ببشاعته عـــن الكلمات التي لم ينطقها سليمة. مالت الظلال في الخارج بزاوية حادة مما يدُلّ على أنّه توقيت العصر، لم يكن نومه مريحا، فقد شعر بتضعْضع في كامل أنحاء جسده. وضع أصابع كفه على جبهته وضغط على مكْمـــن الألم. فتح فمه ثم كشّر عن أسنانه بطريقة تدل على حدّة الصداع. شعر بقسوة الإبرة داخل ذراعه المجروح. سَوّى نفسه ليتمكّن من رفع ظهـــره وإسناده على نمرقته المزركشة، ثم التفت إلى يساره. وكان دحّو في تلك الأثناء يفتح عينيه الجاحظتين، ويحدّق بهما نحو الحائط المقابـــل دون أن تطرف أهدابه، التمعت بشرته الزيتية لتُبْرِز هيكل وجهه العظمي، وكان يلقي وراء ظهره وسادتين كوّرهما بطريقة عجيبة على شـــكل مســـند طري، صالِبا كفّيه فوق حِجره وكأنه بوذا على قمّة جبـــل. في تلـــك الأثناء تحرّك ماسينيسا من سريره شاعرا بجفاف شديد في حلقه. التفـــت إلى جانبه ولكنه لم يجد عبوة الماء فوق المنضدة.. فـــتّش داخـــل القفّـــة ولاحظ اختفاء عبوة العصير أيضا والفاكهة التي جلبتـــها ســـعاد هـــذا

الصباح.. سدّد نظرة نافرة إلى دحّو، ولكنه لم يستطع تحمّل ثقل رأسه فسقط ليغوص داخل الوسادة المزركشة، ثم أغلق عينيه وتنهّد بعمق.. ارتفع صدره وانخفض ببطء ولكن بعمق.. وخلال ثوان فقط تمكّن من فتح مقلتيه إلى النصف.. إلى النصف وليس أكثر من ذلك.

"أيمكن أن يختفي كل شيء أمامي فجأة ولا يمكنني معرفة ما أملك وما لا أملك؟ كيف لم أحس بذلك؟ الحقير فعلها وأنا نائم.. ابن القحبة يوهمني بأنّه مجنون ولكنه يفهم أفضل من الجميع.. تبًّا له.. والآن كيف سأسأله؟ إنه حتما في عالم آخر، يتواصل مع مخلوقاته الفضائية ربما.. يا له من غريب، حتى ملامحه تبدو منحوتة وقد رُكِّبت من طرف سكير لا يعرف للذوق سبيلا.. غريب أمر هؤلاء.. لابد أنه يعاني من أمر خطير..".

- صباح الخير أخي.. أخي...

كرّر مناداته دون أن يتحرّك بوذا قيد أنملة. ظلّ شاخصا ببصره إلى الحائط وكأنه يشاهد كل آلام البشرية أمامه في تلك اللحظات.

- عفوا أخي، أريد شربة ماء..

ظل على حاله دون أن تبْدر منه أيّ حركة تشي بانتباهه أو سماعه لسؤال ماسي.

"ما به هذا المخبوط لا يريد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؟ ولكن إلى ماذا ينظر هناك؟ لا يوجد شيء في الجدار ليسمر عينيه هكذا.. آه أنا متعب ولم أقدر.. لو أستطيع النوم لأستريح.. آه لقد تعبت ولم أعد أقدر.. عليّ أن أصمت لأنّ الكلام أصبح متعبا جدا.. لا أستطيع الاستمرار هكذا.. شربة ماء ستكون مريحة، ولكني لا أستطيع حتى أن أخدم نفسي بنفسي.. ولكن أين

هي سعاد؟ أتكون ذهبت إلى بيت عمي كالعادة؟ نعم أكيد.. هذا ليس وقت الزيارات وعليها أن تنصرف كالجميع، ولكن من يعتني بـــي الآن؟ أنا في حاجة للماء ولمنوِّم قوي.. تعبت يا إلهي ولا أحد يريد الاقتراب مني.. أين الجميع؟ لا أحد.. الهواء أصبح ثقـــيلا في هذه الغرفة ولا أستطيع استنشاقه بسهولة، حتى أني أكاد أختنق.. هل يغمى عليّ؟ هل أنا أفقد الوعي؟ لا.. لا.. عليّ ألا أرتبـــك.. كل ما في الأمر أنّ الصورة أمـــامي تتـــراقص وأحـــس بالتعـــب الشديد.. آه الهواء.. حتى الهواء لا يأتي بسهولة.. لا..".

غاب ماسينيسا عن الوعي، فالتفت دحّو في كل جلاله وهيبتـــه وعلى طريقة التصوير البطيء الذي تعتمده القنـــوات التلفزيونيـــة في تصوير المباريات الرياضية. اِنحنت زاويتا فمه، ثم ابتسم بمكر وكأنـــه يقرأ أفكار ماسي وما يدور في ذلك الرأس المغطى بالقبعة الصـــوفية. كان صدر ماسي ينخفض ويهبط بتواتر، وبين الفينة والأخرى يفتح عينيه محاولا الإمساك بحزمة هواء هاربة من فمه المفتـــوح، والريـــق يشكّل خيطا على جانب فمه ليسيل على الوسادة ببطء:

- ما الذي يُضْحِكك أيها الغريب؟
- رأيت والدك مبتسما...

أظهر دحّو عدم اهتمام لا يتوافق مع ما قاله للتّـــو، ثم واصـــل الكلام بكلمات متمهلة دون أن يفقد نظرته الزائغة. حاول ماسينيسا رفع رأسه والتركيز ولكن كمية الهواء لم تسعفه لذلك، وعلى الرغم من تعبه إلا أنه تمكن من سماع بقية الرؤيا.

- كان يفتح يديه على وسعهما ينتظر قدوم طفليْـــه إليـــه.. يهرولان باتّجاهه مع بكاء وشهيق..

توقّف لحظة وكأنه يسترجع ذكريات حلم قديم:

- لقد رأيت طفلا يجري بسرعة أمام طفل آخر لم أعلم من يكون، ولكنه كان قريبا جدا منه حيث كان الآخر في منتصف المسافة..

اِنسَلّت من بين ملامحه الصّلبة بسمة مخادعة وكأنّه ليس هو من تكلّم منذ لحظات، ثم أظلمت جبهته تماما وزاغت عيناه نحو مشهد غير مرئي.

- هاااي اُنظر إليّ.. أنا أتكلم معك يااا.. لماذا لا تدعه يستريح؟ إنه متعب ويجب أن تصمت لأننا مللنا من تحملك.

أغمض عينيه نصف إغماضة، والتقط كمية هواء ملأت رئتيه، ثم عاد بذكرياته إلى الوراء حيث تراءى له وجه والده يطلّ من خلال كفن أخضر. لم ينسَ ماسي ذلك الوجه الهادئ بِمسحة غير دنيوية. كان أبيضَ وشاحبا، أجفان ملتصقة وفم مزموم مشوب بزرقة خفيفة.. الشيء الوحيد الذي بدا طبيعيا فيه هو شاربه الفضّي.

"يحاول الدفاع عنّي.. ولكن ربما يكون هذا المجنون محقا فيما يقول! فوالدي ميّت حقيقة ولا يوجد إلا أنا وسعاد، مما يعني أنه محق في أمر الولدين، ولكنها هي ما تزال فتية وبصحة جيدة لذلك ستتأخر كثيرا.. أما أنا فقريب.. نعم.. هذا ليس جديدا عليّ.. أنا قريب من الموت.. لماذا يحاول حسين التدخل في الأمر وإسكاته؟ ثم إنه فعل شيئا بالأمس جعل سعاد تبكي طيلة النهار، ظنّت أنّي لم أرها وهي تخفي ذلك عني بحذر.. هل حقا أراد أن يقذف نفسه من النافذة؟ يا لها من فكرة! كيف تخطر له فكرة كهذه؟ تبدو مغرية

وبطولية ولكنها قاسية نوعا ما.. ما الذي يجعله يبدو غاضبا وحزينا هكذا؟ ولكن ما ذنبـــي أنا في كل هذا؟ إن غَضِبَ فليغضب بعيدا عني، ليس هناك وقت لهذه الأشياء، فالأمر على وشك أن يحدث.. الظلام يقترب ويمدّ أطرافه نحوي، والكل يعلم بذلك ولا يريـــدون الاعتراف.. ولكني أعرف أنهم يعرفون أني أعرف ما يفكرون به.. الكل تخلّى عنّي وها أنا وحيد الآن وبدون عناية.. أين هي ســـعاد وأين هي آمال؟ لا يحق لي أن أتذكّرها في آخر عمري..".

عادت سعاد في تلك اللحظات وفي يدها عبوة ماء وأخرى من عصير برتقال. وضعتهما بجانب سرير ماسي، ثم مالت نحوه تســألە برقّة وارتباك طفيف ظهر في حركة رموش عينيها السريعة.. وكأنهـــا فراشة ترفّ أجنحتها بخفّة في الهواء:

- كنت عند صديقتي، بدّلت ملابسي وحمّلت على هاتفـــك موسيقى جديدة كما وعدتك.. مـــن حســـن الحـــظ أنّ الحارس سمح لي بالدخول في هذا الوقت.. لذلك سأمكث خمس دقائق هنا ثم سأنصرف.

ثبّتت خصلات شعرها خلف أذنيها ثم مسحت أنفها الصـــغير والمنمش:

- هل أملأ لك كأسا؟

وافق ماسينيسا بإيماءة محتشمة من رأسه، وقامت هي بملءِ قدح ماء، ثم وضعت حافته فوق شفته السفلى:

- بصحتك.. أرجو أن لا تكون بحثت عن المـــاء والعصـــير أثناء غيابـــي؛ لأني أهديتهما لهذا الرجل بينما كنت أنـــت نائما.

- شكرا لك سيدتي.. ولكن انتبهي من الطرقـات، فهـي خطيرة في هذه الأيام.

قاطعها دحّو من وراء ظهرها، فحانت منها التفاتة مفاجئـة إلى الجانب الآخر. فتحت فمها لتتكلّم ولكنها زمّت شفتيها واكتفـت بتأمل دحّو.

"ماذا يقول هذا الرجل؟ كيف خطرت له هذه الفكرة؟! وفي نفس الوقت الذي فكرت فيها! لا.. لا يمكن.. علـيّ أن أتمالـك نفسي، فأنا لا أؤمن بمثل هذه المصادفات.. قلبـي يخفـق بقـوة وكأنه يستجيب رغما عنّي لما يقول.. عليّ أن أنزع تلك الفكـرة من رأسي لأنّها حالة ومرّت، ولن أعود إلى مثل ذلك الـتفكير.. يا إلهي! إنه يبدو مجنونا في بعض الأحيان..".

نظر إليها دحّو من خلال زاويتيْ عينيه بسرعة، ثمّ حوّل بصـره نحو مدخل الغرفة، أين رأى حسين واقفا يعتمد على القضيب المعدني ليتّجه خارج الغرفة بخطى وئيدة ومثقلة.

لم يمضِ وقت طويل على خروج حسين من الغرفة حتى رأى سعاد تمرّ أمامه، ويبدو أنها لم تنتبه له أو تجاهلته بسبب ما حصل بينهما، كـان منهكا يقاوم الألم، استند على الجدار وارتعدت ركبتـاه تحـت ثقـل جسمه. خرج الصوت من فمه واهيا لم تسمعه في بداية الأمـر، ازدرد ريقه بصعوبة ثم رفع عقيرَتهُ ليصل الصوت ضعيفا، ولكنه كـان كافيـا ليجعلها تقف في مكانها وتلتفت نحوه ثم تحدق بصمت.

- سعاد.. سعاد..

من خلال ميلان رأسها إلى اليمين وكيفية وقوفها وتأمّلـها في مظهره عرف أنها لم تعد غاضبة. أقبلت نحوه وقد لمح حركة ردفيهـا

وهي تمشي بطريقة مرنة. طلب منها الجلوس ثم استّعد للحظة الحاسمة. أراد أن يقول لها الحقيقة، أن يُلقي هذا العبء الذي أرهق كاهله وعذّبه طويلا:

- أنا من تسبّب في قتل والدك يا سعاد.

توقّف الزمن لحظة، وساد صمت رهيب، وانتظم قرع الطبول في صدرها، وارتفع صداه إلى أذنيها.

- ماذا تقول حسين؟! أبي مات منذ عشر سنوات.. وما دخلك أنت في الموضوع؟

ضاقت عيناها وهي تنظر إليه باحثة عن سبب لهذا الحديث الطارئ.

- أنا كنت صاحب السيارة التي اصطدم بها.

اتّسعت عيناها بشدّة ووضعت كفها الأملس أمام فمها المفتوح على اتّساعه.

- أنت ذلك الشخص الذي سلّمني المظروف في ذلك اليوم، أليس كذلك؟

نظرت إليه بشكل مختلف وكأنها تراه للمرة الأولى:

- كيف لم تقل لي من قبل؟ كيف جعلتني أتحدّث إليك كل هذه المدة وأنتَ تعلم أنّ والدي...

فرّت الكلمات من لسانها ووقفت على رأس فمها غير قادرة على نطقها.

- لم أكتشف ذلك إلا متأخّرا، حين سمعتُ لقب عائلتك من خلال ماسينيسا. كنت غافلا في البداية.. وآسف لأني لم أنتبه، فكلّ هذه الأحداث مرّ عليها عشر سنوات.. ولكن

عندما أتيت إلى هذه الغرفة ورأيت ما وصلت إليه عائلتك من ضائقة أحسَسْتُ أنّي المُلام، وأنّ كلّ ما يحدث لكم الآن بسببي فقط.. لك أن تقولي ما تشائين، فلستُ راغبا في هذه الحياة أبدا، والحقيقة أنا لا أستحقها. آسف لأني أفسدت عليكم هذه الحياة.. الآن يُمكِنُكِ المغادرة...

لم يتحرّك أيٌ من الاثنين.. وبقيت تنظر إليه مدهوشة:

- ذلك اليوم الذي سلّمتني فيه المظروف أرسلتني أمي في طلبك، كانت تودّ شكرك على الهدية ظنا منها أنك صديقه ولكنك...

صمتت لحظة أطرقت خلالها رأسها وغطّت أنفها بباطن كفها لكي لا يصدر عنها أي صوت. تركت دموعها تبلّل وجهها الملائكي الذي ازداد بياضا ونقاءً:

- ولكنك أيضا فقدت زوجة وكدت تموت في الحادث...

غلبتها الدموع فحاولت تمالك نفسها:

- أبي كان في حالة سكر، لقد أثبت التّحقيق ذلك بعد وقوع الحادثة، انحرف عن الطريق لأنّه كان سكرانا، وأنت لست إلا ضحية وضعتك الأقدار في طريقه هناك.

توقّعتْ أن ترى ارتياحا على وجهه، ولكن الذي رأته لم يكن سوى حزنا متجسدا في هيئة آدمي. مدت يديها ولمست كفّيه، أحسّت بدفئهما وضعفهما:

- أريد أن أعيش حياتي.. الماضي مُرهق جدا لدرجة أنني لم أعد أطيق التفكير في مستقبلي. صحيح أنّ حياة أبي كانت مليئة بالمتاعب والشقاء، وموته لم يؤثّر كثيرا على

العائلة، ولكن غيابه عنا جعلنا مستهدفين من الجميع.. أنـــا الآن بدون مأوى وأخي يحتضر وأمي... أمـــي في بيـــت جارتنا وسوف تطردها عاجلا أم آجلا.. لا أحد يرغـــب في مساعدتنا، وكل الطرق مسدودة، ولكن أؤكد لـــك أنّ والدنا كان سيزيدنا شقاءً لو استمر على قيد الحياة.. لذلك لا يجب أن توجّه اللوم إلى نفسك وتُقْبِل على عمل بـــائس كالذي فـــ...

أطْرقتْ صامتة لوهلة، ثم رفعت عينين تتألّقان ببريق نقي. تأمّل منظرها ساكنا دون أن يرتد طرفه، كانت شفتاها ترتعشان، وقد ظل صامتا يُحِسّ بملمس أصابعها تلامس باطن كفّه تدغدغه انزلاقاهـــا فوق بشرته المتيبسة:

- لا يجب أن تيأس، لأنك إن يئست فسينقطع بذلك أملـــي الوحيد، وأنا لا أريد أن أفقد آخر ما لدي في هذه الحياة.
- اليأس أقوى من الأمل يا سعاد، اليائس يمكنه أن يقـــدِّم أي تضحية في سبيل أن يموت كيفما أراد. الآمِلُ سيخسر أمله في الأخير إن خاطر بحياته من أجل هدف ما. ليس هنـــاك أشجع وأقوى عزيمة من اليائس حين يُقبل علـــى هـــدف معين.. عند تلقّي خبر موت زوجتي تمنيت لو أنـــني مِـــتُّ معها في ذلك الحادث، وصرت أتخيّل نفسي جبانا لأنـــني فررت من الموت بعدما شاركتهم تلك اللحظات الأخيرة. الإحساس بالذنب يثقل على صدري دائما، ولا أســـتطيع الحياة بكل هذا الشعور.. هل تفهمين ما أعنيـــه؟ أنـــا لا أطلب شيئا غير الراحة، ولا يمكن للراحـــة أن تتحقّـــق إلا

بالموت.. الموت وحده كفيل بأن يُخَلِّصني من كل ذنوبي.. من كل ما أعانيه من ألمٍ وحزنٍ وكآبة.. لا أستطيع أن أسامح نفسي لمجرد أنك تطلبين مني أن لا أيأس.. هل تعلمين لماذا لا زلت حيا؟ لأني تخلّيت عن الأوهام، وهذا ما عليك فعله أنت كذلك.

- تبدو متشائما جدا، ألا تعتبر نجاتك من الحادث فرصة ثانية للحياة؟
- لن يغيّر ذلك شيئا من مصيري أو مصير البشرية.. ما نحن إلا آلات معقّدة صنعتنا الطبيعة، غرضنا ضمان استمرار الجينات عن طريق التناسل.. ماذا سيَضُرّ لو متّ أنا أو أيّ شخص آخر في هذا العالم الشاسع؟
- لا تقل هذا يا حسين، لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة وتتكلم عن الموت وكأنه أهم من وقوفي أمامك؟

رسمت على وجهها ابتسامة هادئة ورمقته بنظراتها الحارقة والمتلهّفة. أحسّ بأصابعها تتشابك مع أصابعه، وقد تسرب ذلك الإحساس بالخدر إلى جميع أنحاء بدنه. نظر إليها بالمقابل وتبادلا الألحاظ لمدة طويلة. أمسك بيدها ورفعها نحو فمه ليطبع عليها قبلة طويلة، ثم أطبق شفتيه على شفتيها الطريتين وترك لسانه يعبث داخل فمها، وقد تمازجت أنفاسهما واختلط اللعاب واللهاث، حتى سمعا صوتا صدر من الغرفة المجاورة، ابتعدا عن بعضهما البعض لوهلة. كانت الغرفة شاغرة ولكنها أقفلت بسبب أعمال الصيانة التي طالتها، وهو السّبب نفسه الذي دعا مسؤول القسم لينقل دحّو إلى الغرفة المجاورة.

- نعم، هذه الليلة أكيد.. أكيد.. نعم لقد فهمت.. ولكن أنت تعلم كيف تجري الأمور.. الحراسة مشدّدة ولا أستطيع المجازفة.. ماذا؟ بالطبع أنا في أمس الحاجة إلى المال..

افترق حسين عن سعاد وانتقل انتباههما إلى الجانب الآخر، ومن خلال النافذة المطلّة على الرواق برز ظل رجل طويل، بدا أنه يتكلّم في الهاتف مع أحدهم، ضغط الهاتف على أذنه بقوّة، ومسح بكف يده الأخرى ذقنه النابت بالشعر. ولكن لم يستطع حسين تمييزه من خلال الستائر السميكة.

- حسنا.. سأقوم بالمطلوب، أمهلني مدة وسأقوم بالأمر..

ساد السكوت فجأة، وانتظرا ذهابه لكنه وقف.. بقي هناك على بعد خطوات فقط من الباب. لمدة ظن حسين أنه يهذي، ولكن نظرة واحدة إلى سعاد جعلته يتيقّن من صحة اعتقاده. كان الرجل ينتحب بصمت داخل الغرفة، ومرّت ثوان من الصمت قبل أن يسمعا خطواته تتحرك داخل الغرفة. افترقت سعاد عن حسين وودّعته بصمت، ثم حثت خطواتها في الممرّ لتختفي في المنعطف تحت نظرات حسين. لم يرد الذهاب إلى الغرفة مباشرة، أحسّ بالخجل من ماسينيسا، ولكن تعبه لم يترك له خيارا.

-2-

هبّت ريحٌ عاتية حركت معها أغصان الأشجار بعنف، مُصْدرة نغمة موَحَّدة في موجات موسيقية متفاوتة، وقد اهتز زجاج النافذة داخل إطاره مما جعل من حسين يستيقظ من نومه فجأة يتصبّب عرقا، وصدره يعلو وينخفض من شدة الفزع. التفت حوله ليتأكّد من أنه في عالم الواقع، وقد بدأ تنفّسه ينتظم تدريجيا. كانت الغرفة غارقة في الصمت، رأى ماسينيسا يرقد بهدوء وينبعث من فمه المفتوح صوت واه أقرب إلى الحشرجة. وحده مصباح النيون في مكان ما أصدر أزيزا منتظما.

نهض حسين من فراشه واتّجه نحو دحّو الذي كان جالسًا فوق السرير كتمثال بوذا. صالِباً كفّيه أمام صدره، وتحرّك أعلى جسمه إلى الأمام والوراء في حركة آلية منتظمة محدّقا إلى الأرضية الغرانيتية في غموض.

– مساء الخير دحّو، كيف حالك؟

لوّح حسين بيده أمام ناظري دحّو، وظهر شبح ابتسامة على وجهه سرعان ما اختفى وتجهّمت ملامحه بطريقة غريبة. تحرّكت عيناه يمنة ويسرة، واستقَرّ بدنه في وضعية استعداد تام، رفع نظره إلى حسين لأول مرّة. جحظت عيناه واتّسعت حدقتاه كحيوان مذعور، ولكنه ظل صامتا وهادئا عكس مظهره. تراجع حسين خطوتين إلى الوراء، واحترس من أيّ حركة مفاجئة قد تصدر عنه:

- هل تسمح لي أن أتكلم؟

نظر إليه بهدوء دون أن يتحرك قيد أنملة.

- أستطيع مساعدتك صديقي.. درست علم النفس لسنتين قبل أن أتحوّل إلى العلوم السياسية. وإذا سمحت يمكنني أن أساعدك بطريقة ما..

رفع دحّو رأسه ببطء وأدار رقبته بطريقة آلية نحو الجدار. تبادر إلى ذهن حسين شخصية روبوكوب الخيالية وطريقته النصف آلية والنصف بشرية في الالتفات. كان في ملامحه شيء جديد لم يره حسين من قبل. تبدّدت تلك النظرة الغائمة من عينيه وحلّ محلّها تركيز تجلى في حركة الجفنين والشفتين.

- ولكن كيف ستساعدني؟ أنا مصاب بالمس، لا يمكنك مساعدتي فلسْتَ طالب قرآن.
- أعلم.. أعلم ذلك يا دحّو، ولكن لي طريقة أخرى..
- طريقة أخرى؟ هل أنت ساحر؟

كاد حسين ينفجر من الضحك، ولكنه بدل ذلك سوّى وقفته وكأنه يستعد لتأدية النشيد الوطني:

- لا، لست ساحرا، ولكني أعلم مما تعاني تقريبا، لأنك إن استمررْتَ في شذوذك عن العالم فستغيب نفسك في أعماق سحيقة من المتاهات، ولن تكون عودتك إلى العالم الواقعي محتملة، إذ ستصبح مجنونا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.
- مجنون؟ لا، لست مجنونا.. أنا مسكون بعفريتة اسمها علجة. ولكنها مسلمة وتخاف الله...

"مسلمة وتخاف الله؟! ولها اسم كـذلك وتـدعى علجـة؟ أوووو.. هذا الرأس مليء بالغبار. ماذا سأقول له يـا ربـي؟ مولانا فرويد لديه تعويذة جيدة لمحاربة السحر.. لا.. لا يجـب أن أسخر منه بهذه الطريقة، إنه يفهم الأمور جيدا لذلك سيعرف عمّا أتكلم".

صمتَ قليلا.. ورأى أثناء ذلك تغيّرا طفيفا على ملامحه تمثّل في ارتعاش شفته السفلى وكأنه أراد أن يتفوّه بشيء ما. حبس كلمـة كانت تقف عند رأس شفتيه.

- لقد راقبتك منذ مدة، وقد لاحظت أنك هادئ الطبع، و لم أرَ أيّ انفعال قويّ يشي بهلوسة معينة، حالتك أقل خطـرا وهذا أمر مُبَشِّر.. أرى أنك شخص مسالم، ولو سـاعدتني قليلا فربّما أستطيع معالجتك.

جَمُد تعبير دحّو بغتة، وكانت نظرته بلهاء لا توحي بـالفهم. ولكن حسين أصرّ على المواصلة:

- هل تسمعني دحّو؟ أريدك أن تعطيني موافقتك قبل أن نبدأ.

مرّت بينهما لحظة صمْت أنهاها دحّو بكلمة واحدة:

- أوكي.

أعقب ذلك بإيماءة موافقة، وغرق في الصمت مركّزا في الجدار. أخذ حسين تلك الإشارة كموافقة تامّة، وبحذر شديد وضع يده على كتف دحّو وحاول أن تكون لمسته رقيقة لكي لا يثير ارتباكه:

- الآن يمكنك التّمدّد والاستلقاء على السرير بهدوء، أريـدك أن تسترخي لأنك متعب.

قال ذلك بهدوء وهو يحاول مساعدته على الاستلقاء:

- أنت مرهق وتحتاج إلى الراحة والعناية.

تمدّد دحّو على سريره مُذْعِنا لأوامر حسين المهدّئة. أراد أن يبدأ عمله من نقطة مركزيّة لاحظها عند المريض، فمنذ دخوله إلى الغرفة وهو لا يكفّ عن التحديق بغرابة إلى الجدار تارة وإلى السّقف طورا. أراد أن يلج من تلك النقطة، فقد لاحظ حسين في أعلى الجدار شقًّا ناتجا عن تَفَسُّخ طبقة الملاط. أشار إليه بواسطة سبّابته ثم طلب من دحّو قائلا:

- ذلك الخط المتعرّج هناك.. أتراه؟ هناك في الجدار.. أمامك مباشرة.. هناك نعم، أريدك أن تركّز عليه نظرك.

لم يخرج دحّو من صمته ولكن حَرَكَة عينيه السريعتين دلّت على أنه يتّبع تعليماته. استولى القلق على حسين وهو يقبل على هذه المغامرة الخطيرة، إذ لم يسبق له أن جرّب الأمر مع أيّ أحد كان. صحيح أنه كان مدمنا على أفلام علم النفس التي تتناول مواضيع مثيرة من وراء الشاشة، حالات مرضية كالهلوسة والعصاب الذهني وحتى الهستيريا.. إلا أنّ انغماسه في المطالعة جعله يدرك بعض الأسرار التي ينطوي عليها علم النفس. حاول ضبط أعصابه وإفضاء سِمَة الهدوء على نبرة صوته، كان يدرك أنّ الوسيط لن يستجيب للإيحاء إن خامَرَه قلق ولو بسيط، فمجرّد حشرجة قد تفسد الأمر برمّته.

- سأعدّ حتى عشرة.

كان الهدوء ملائما والليل يكاد يبلغ هزيعه. تسلّل شعاع خافت من الضوء صدر من المصباح الذي فوق سرير ماسينيسا.

- واحد. اثنان.. ثلاثة.. أربعة... عشرة... خمس وعشرون...

استرجع حسين ذاكرته في ظرف وجيز، وأخذ يملي عليه ما حفظه من تلك الجلسات.

- أنت تشعر بحرقة في عينيك، وثقل أجفانك يتزايد أكثر فأكثر.. أنت الآن ترى غشاوة أمام عينيك، وتنطبق أجفانك لازدياد الثقل عليها، إنهما ثقيلان، ثقيلان...

كان من المفروض أنّ أجفانه قد انطبقت في تلك الآونة، فأحسّ حسين بالشك يتسرب إليه فجأة وأعاد المحاولة من جديد:

- أنت تشعر بثِقَل وارتخاء في جميع جسمك، أعضاؤك رخوة تطفو فوق سطح بحرٍ هادئ، جسدك يطفو باسترخاء، أنت تُحِسُّ برغبة في النوم، النوم يستولي عليك رويدا.. رويدا.. رويدا..

عند هذه النقطة توقّف حسين مرتبكا و لم يكن دحّو قد أغلق عينيه بعد، بل نصف إطباقة. وضع يده بعناية فوق عينيه وأغلقهما. بقيت أصابعه فوقهما لمدة من الزمن ثم نزعهما ببطء دون أن يشاهد حركة ما، وأخيرا نجح في تنويمه. لم تدم نشوته بالنصر طويلا، إذ حدث ما لم يكن في الحسبان.. تسَمّر في مكانه محملقا بعينين متّسعتين على أشدهما وهو يرى أغرب مشهد في حياته. أحسّ بثقل في جسمه منعه من التّزحزح ولو سنتمترا، وعلى حينٍ ارتفعت درجة الحرارة بشكل غريب، أمام عينيه الشاخصتين رأى شيئا غريبا يخرج من جسم الوسيط، بَهُتَ للمنظر، وكان ذلك الشيء أشبه بمادة رمادية على شكل هلام ضبابي. ارتجفت أوصاله وتحرّك كل عضو من جسمه رهبة وخوفا، انسلّت قطرة عرق باردة على ظهره، واهتزّ زجاج النافذة في إطاره بعنف، كما تدحرج كيس المصل من

القضيب الذي كاد يسقط من الاهتزاز. ارتفع صدر المريض وانخفض وبدا أنه ينازع الموت، أو أنّ روحا ما تجْتَثُّ منه انتزاعـــا. تشـــكّل الضباب الرمادي في الجو، ورسم خطوطا متعرّجة وانسيابية.. كـــاد حسين يفقد رشده وهو يرى هذا المشهد الغريب. ازدرد ريقه وحمْلق في ملامح دحّو المتغيّرة، إذ أصبح وجهه لا يحمل صفات بشـــرية، أو أنّ نظرته فقدت دقتها في تلك اللحظـــات. استمســـك بأهـــداب الشجاعة ترتعد ركبتاه رغما عنه. وفي غمرة الانفعال وتدفّق الـــدماء إلى عروقه، كان الضباب ينبعث من جسم دحّو مشـــكّلا جســـما هلاميا غريبا، يتحرّك كسحابة فوقه، تحرّكت شفتا دحّو دون إيحاء:

- زليخة تريدني خارج البيت.

أنصت حسين مرعوبا للصوت المختلف تماما عن الذي اعتاد سماعه، وقد وقف شعر رأسه من الدهشة، لم يستطع تصديق ما سمعه للتو.

- ما الذي تشاهده دحّو؟! من زليخة؟

- أمي.. وهي تريدني خارج البيت لتُدْخِل الرّجُل هناك.

كان دحّو يتصبّب عرقا، تخرج كلماته من فمه بمشقّة بعـــد أن تتصلب عروق رقبته، وقد اكْفهرّت ملامحه بشدة، وأظلمت جبهتـــه حتى ما عاد دحّو نفسه الذي يعرفه الجميع.

- ولماذا تريدك خارج البيت؟

نطق بهذه العبارة بأقصى ما يمكن من الهدوء.

- يريد أن يجامِعَها في غرفة والدي.

سقط فكّ حسين إلى أسفل وهـــو يصـــيخ الســـمع، شـــاعرا باضطرابات غريبة تحْدُث على مستوى معدته، ولكنه حاول التركيز على كلامه والاستمرار في الجلسة:

- تقصد أنّ زليخة هي والدتك؟
- نعم.
- وهل علم والدك بالأمر؟
- لم يعلم أبدا.
- هل مازالا متزوجين؟
- ذبحته فرقة "الجيا" أمامي في يوم قارص.. كان دمه أسودَ ودافئا يصعد منه البخار في ذلك الصباح. كنّا في طريق عودتنا من بلدية المحمّدية.. أركعوه أرضا وهو يتوسّل إليهم باكيا.. وبضربة سيف واحدة تدحرج رأسه بين أرجلهم، وتركوني أفِرّ مع عجوز اغتصبوا ابنتها أمام عينيها ثم أطلقوا رصاصة على صدرها.

لم يستطع حسين أن يتحكّم في مشاعره، وبدأ يحس أن المريض في حالة ضغط وعليه إيقاظه فورا، ولكن سؤالا آخر تبادر إلى ذهنه:

- هل تعرّضْت للأذى من طرف أحد هؤلاء؟
- قام صديقها القصير بضربي.. يحبّ ممارسة أفعاله مع الصبيان، وأمّي تركته في البيت من أجل التزود بالحليب ليوم غد.
- كيف يقوم بضربك؟ تقصد ممارسة الجنس معك؟
- أجبرني على مص قضيبه.. وإن رفضت أتعرّض للضرب.
- ولماذا لم تحاول إخبار أمك؟
- أمي علمت بكل شيء.. فبعد رجوعها وجدتي هبة للبكاء، وعندما سألتني لم أتوقّف عن البكاء، ولكنها علمت لاحقا من أشخاص لا أعرفهم أنّ الرجل يحب مجامعة القصّر.

ولكنها لم تستطع فعل شيء إزاءه، فهو وكيل جمهورية.

- هل مازلت تعيش معها؟

سمع الصوت يقول مرة أخرى:

- كانت والدتي، ولكنها لم تعد الآن.. تزوّجت من رجل آخر ولها أولاد غيري.

بدا الأمر محيرا بالنسبة لحسين، فكيف يُعْقَل لكل هذه الأحداث أن تقع لشخص واحد؟! ارتعدت فرائصه عندما شاهد حركة في الهواء، وكأنها تنْقُل كلماته بهذه الحركات المتموّجة، وانتشرت حول جسده هالة رمادية، أحسّ حسين بالثّقل ينزاح عن كاهله وهو يشاهد اختفاء البخار داخل الجسم من جهة الرأس، مُتَّخِذا مَسْرَباً داخل فتحة فمه وأنفه وأذنيه، كان انفعال حسين في ذروته؛ بحيث أحسّ بضربات قلبه السريعة في أذنيه. عادت الأوضاع إلى سابق عهدها واختفى ذلك الجسم العجيب، وقد تقوّست كتفا حسين من التعب وانحنى ظهره قليلا. وخزته حبّات العرق في عينيه، وتداخلت ركبتاه بحيث لم تعودا قادرتين على حمله. كان كل همّه الآن مُنْصَبًّا في إيقاظ الوسيط من نومه بأمان. بدأ الإيحاء العكسي، وحين أنهى العدّ التنازلي فرقع بأصابعه. فتح عينيه ببطء وبمظهر طبيعي كمَنْ يستيقظ من نوم عميق، بحيث لم يبقَ عليه أيّ أثر لانفعالاته العنيفة التي حدثت أثناء الإيحاء. مسح حسين العرق المتجمّع على جبينه بكُمِّ قميصه متنفّسا الصعداء، شاعرا بالارتياح والامتنان في نفس الوقت:

- هل أنت بخير؟

- نعم.

رمقه بنظرة سريعة ثم خفض رأسه نحو السرير المقابل. غابت تلك النظرة القاتمة والساهمة من ملامحه، وقد بحث بين أغراضه تحت المنضدة وكأنه يفتش عن شيء ضائع.

- ما الذي تفعله دحّو؟

ارتفع حاجبا حسين للأعلى، وبرزت أسنانه الأمامية وهو يتابع حركاته الغريبة.

- أشعر بالجوع، أريد أن آكل شيئا..

-3-

ركن حسين إلى الصّمت وتزحزح من مكانه تائها بين أفكاره، لم يشأ قعودا ولا وقوفا، ضاق به الوضع واعتراه هيجان روحي ألحّ عليه بالحركة والطواف، إحساس غريب هيْمن على شعوره، حفّزه على المُضِيِّ قُدُما إلى حيث تقوده قدماه بعيدا عن هذا المكان الذي يكتنفه الحزن واليأس. رغم تعبه وألمه المستمر فقد حاول تغيير الجو. غاب في سكرة أحلامه، وطفت ذكرياته القديمة على السطح ساحبة معها كل آلامه وهمومه القديمة، ووجد نفسه في الرواق النصف مظلم مُرْغَما، هائِما متخطيا غرفة المرضى المجاورة والمنغمسة في الظلام. كان الرواق خاليا من أيّ شخص، ولما رأى أنه قد ابتعد كثيرا عن غرفته قرّر الرجوع، ولكن قبل أن يتحرّك تناهى إلى سمعه صوت خافت أقرب إلى الهسْهسَة منه إلى الصوت البشري، ركّز حواسه والتفت إلى يساره؛ حيث رأى عند المنعطف الذي أمامه مجموعة من الغرف التي أُعِدّت للمرضى، بجانبها غرفة أخرى تستعمل كمكاتب وصيدليات، أو كمكان لحفظ مواد التنظيف. إحدى تلك الغرف فُتِح بابها قليلا وتسرّب منها شعاع المصباح، تحرّكت ظلال شخص ما هناك حيث سقط ظله على الأرضية أمام الباب. حركة غير عادية جعلت من حسين يقف متردّدا، يريد تقديم رِجْل إلى الأمام ولكنها تسمّرت في مكانها. توتّرت عضلاته فتقدّم بضع خطوات نحو الظل المتحرك، وعندما اقترب ظهر أنها ليست غرفة للمرضى، وتناهى إلى سمعه صوت ارتطام أشياء ما

على الأرض. تقدّم ببطء وثبات، حَذِراً من أن يَصْدُر منه أيّ صوت قد يشي بتواجده هناك. ظهر من خلال فتحة الباب طاولة معدنية تتوسّط الغرفة، تنتصب وراءها خزانة مفتوحة على مصراعيها، دفع الباب برِفْق، فظهر في الغرفة رجل لم ينتبه لحضوره نظرا للجلبة التي أحدثها وهو يفتش عن شيء ما هناك. كان يدير ظهره للباب، ويقف أمام الخزانة داسا رأسه بين رفوفها المكدّسة بالدواء، وضع في يده الحرّة كيسا أسودَ كان على وشك أن يضع بداخِله علبتيْ دواء. وإذ هو يقوم بذلك سمع دقّة خفيفة على الباب، فدار عنقه بعنف.. ولما رأى الواقف عند العتبة أفلتت العلبتان من يديه لتقعا على الأرض.

"ماذا؟! البشير..؟! ما هذا الذي يحمله في يده؟ ولكن كيف يمكنه أن يقوم بعمل كهذا؟ لا.. لا يمكن أبدا.. لا.. لن أصدق.. ها هو أمامي يبدو مضطربا بعد أن باغته بهذه الكيفية.. ما كان عليّ أن أزعجه. اللعنة عليّ.. ما كان عليّ أن أغادر غرفتي؛ لأني أدس نفسي دائما في حياة الآخرين من دون قصد. ذهبت لزيارة صهري فماتت زوجتي، والآن أقيمُ في المستشفى لأجد مثل هذا الشخص الطيب يسرق الدواء؟ ولكن ما الذي دفعه إلى فعل ذلك يا ترى؟ إنه هو سارق الأدوية الذي يبحثون عنه.. عفوا.. ها أنا أغادر لأتركك تنهي عملك بهدوء وآسف على المقاطعة. اصطبغ لونه وجهه باللون القرمزي، وظل ساكنا على حاله وكأنه صنم هبل. يا إلهي! وكأنه لقطة من التلفاز أجمّدها من خلال كبسة زر.. ولكن.. لماذا؟ لماذا يفعل ذلك ولماذا هو؟ لماذا؟ ألا يخاف على مهنته؟ ألا يفكّر في أولاده إن كان لديه عائلة؟ كيف يمكن لرجل مثله أن يخاطر بعمله من أجل كمشة دواء؟ آه لقد تعبت حقا.. ما كان يجب

أن أغادر غرفتي أبدا. آه لقد تعبت حقا، ولكن من هذا الذي يقف هناك في الغرفة المظلمة؟ يبدو أنني عرفتها.. إنها فتـــاة ماسينيســـا.. آمال، إنها هي ولا أحد غيرها.. اللعنة عليّ.. كان يجب أن لا أغادر غرفتي أبدا.. إنها هي بشحمها ومؤخرتها، ولكن من هذا الذي يقف معها هناك في الظلام؟ لا يمكن أن يكون إلا ذلك الخنزير.. عليّ أن أقف عند حدودي وأواصل طريقي إلى غرفتي فأنا متعب.. آه تعبت حقا ويمكن أن أسقط في أي لحظة.. ولكن ماسينيسا المسكين ينتظر الموت وحيدا ولم تقم بزيارته هناك للتخفيف عنه على الأقل.. عليّ أن أعرف ما الذي يحدث في هذه الغرفة اللعينة.. أنا أتجول في الليل كالمجانين، هذا الباب المفتوح في منتصـــف الـــرواق يلِجـــه ذلـــك الشخص دون أن ينير المصباح، ما الذي يفعلانه هنـــاك؟ رجـــلاي ترتعدان ولا أقوى على تحمل ما سأراه.. ليتني أكون مخطئا.. ليـــتني كنت نائما، أحلم بموت هادئ.. ليتني بقيت في الغرفة.. ليت قدمي هاتين تتوقفان عن الحركة، ولكن ها أنا أتقدم رغم ذلك نحو الغرفة بثبات.. أكاد أسمع تنفّسهما، أكاد أراهما بأذني في هذا الظلام.. بقي أن أدفع الباب الموارب لأرى بشكل جيد.. أووو.. هـــي وهـــو.. ورفقة من؟ رضوان! لا أكاد أصدق.. اللعنة عليّ واللعنة على هـــذا المأفون، يمارس الجنس في غرف المرضى.. هل أنا من صـــرخ دون وعي أم هي التي تأوّهت فزعا لظهوري.. ماذا يقول؟ لقد قـــال لي: "من الآن فصاعدا عليك أن تلزم غرفتك" ولكن لم أقصد تعطيلكما، آسف.. يمكنكما أن تمارساه مرتاحين بعد الآن، كل ما عليها فعلـــه هو أن تتجاهلني وتعود إلى ما كانت تفعل، هي حرة في الأخيرة ولا شأن لي في حياتها.. ولكن ماسي.. بالنسبة لي لقد تعبت مـــن كـــل

شيء.. لم تعد لي رغبة في معاشرة هؤلاء البشر.. علـــيّ العـــودة إلى الغرفة لأني لم أعد أثق حتى في ركبتي هاتين، آه الألم قد زاد حدة، ما كان يجب أن أغادر الغرفة، ما كان عليّ أن أقوم بهذه الجولة أبدا.

لماذا كل هذا يحدث في ليلة واحدة؟ ولماذا دائما أنا من يمشي على النار؟ أبقى مستيقظا بينما الكل نائم، أعيش وحيدا وكل من يحيطون بـــي يتساقطون كأوراق الخريف، الكل يتـــهالك ويفـــنى لأبقى وحيدا كشاهد قبر".

دخل غرفته غير آبه بالغطيط الذي صدر عن دحّو الغـــارق في النوم، ولا بالفوضى التي خلّفها وراءه بعد تناوله وليمته الدّسمـــة. رآه ممدّدا فوق سريره بعشوائية، يسقط نصف الغطاء ليلامس الأرضـــية. ارتخت أوداجه واحمّر وجهه بشدة.

استلقى حسين على ظهره فوق السرير بعد أن علّق كيس المصل بجانبه. بقي ذهنه مشتّتا لفترة مـــن الـــزمن، كـــان نهبـــة للشـــك والاضطراب، ينتابه إحساس غريب عذبّه من الـــداخل، تململـــل في سريره باحثا عن وضعية ملائمة تساعده على النوم.

امتد به الليل إلى جوفه العميق، وتداخلت سريالية الأحـــداث الماضية مع غرابة الأحلام. رأى نفسه طفلا صغيرا يقف على رابيـــة مفروشة ببساط أخضر من العشب، يرنو ببصره إلى ما وراء الأكمـــة والتلال، تظهر فجأة ذكرياته القديمة وراء هضبة قريبة من الســـماء. جدّته فاطمة بشعرها البني المتموج ووشمها الذي يشـــق جبهتـــها إلى نصفين. تشير بأصابعها المعروقة إلى طائرته الورقية، تقودها الريـــاح بعيدا نحو السماء، إلى الحد الذي يسمح به الخيط المتحكّم في الطائرة، لتلامس السحب البيضاء كما تداعب أصابعه الرقيقة كُتَـــل قطـــنٍ

متفرقة، يتابعها ورِجْلاه الصغيرتان تجتنّبان الحصى الكبيرة والشوك اللاذع، تقف جدّته عند صخرة صمّاء وتضع كفّها فوق عينيها لتمنع نور الشمس الباهر من حجب المنظر الأخّاذ. تحدّق نحو الطائرة الورقية التي بدأت في الارتفاع أكثر فأكثر، وفجأة انفلت الخيط من يديه الصغيرتين ويبدأ نباح الكلاب ليصدح في الأرجاء، أين الطائرة؟ هل اختفت؟ وبالتدريج انقلبت شفتاه وتشّوه ذقنه الصبياني وانخرط في بكاء مرير على ضياع بهجته. برزت جدّته فاطمة بمظهرها الوقور وبذلك الوشم على جبهتها وهي تبتسم له بوداعة ورِقَّة لا حدود لها، وكماءٍ نمير يتلألأ تحت أشعة الشمس الساطعة. تنظر إليه بغرابة وتتّسع ضحكتها شيئا فشيئا، ثم تبدأ ملامحها في التلاشي ليظهَر مكانها وجهٌ أكثر بياضًا ونصاعة، تتدلّى منه لحية كثة بيضاء تسر الناظرين، ثم ينشق عن ذلك الوجه ابتسامة ماكرة، ويبسط إذ ذاك جناحيه وكأنّه ملك الموت متجسدا في هيئة آدمي. حدّق في عنان السماء، وأشار إلى نقطة حيث تتشكل قطع متناثرة من القطن لتشكّل وجهين، أحدهما كان لزوجته سعدية والآخر لم يتضح بعد، وعندما رمشت عيناه ودقّق في النظر ظهر أن تلك الغشاوة لم تكن إلا انعكاسا لشخص ماسي، يقبع هناك في أديم السماء. انتقل فجأة إلى غرفة فسيحة يجلس أمام طاولة مستديرة للعب الورق، محاطا بأناس مجهولين قد أخفى الظلام وجوههم، ثم سمعهم يتهامسون في السر وينظرون إليه خفية. رفع الأوراق بين يديه ورأى من بينها الملكة والقلوب الحمراء، جلست الممرّضة سميرة في شماله، والطبيب عثمان داوود عن يمينه، وأمامه مباشرة جلس رئيس الفرع حميدة العباسي. كانوا جميعا يحدّقون فيه بنفس الطريقة، تميل شفاههم بنفس

الزاوية، وتتحرّك أناملهم بسلاسة بين أوراق اللعب، يتطلّعون إلى خطوته القادمة وكأهم يريدون الانقضاض على فريسة. برزت أنيابهم وتحوّلت أوراق اللعب إلى إبر وشفرات حادة. قذف أمامهم مجموع الأوراق فزاغت الأبصار واهتزّ المكان بمن فيه، وعلى حين غرّة انشقت الأرض فسقط في حفرة عميقة لا قرار لها، صرخ بملءِ صوته، وتزايد هلعه واضطرابه مع وقوعه في دياجير الظلام.

استيقظ من نومه مرتعبا ووجهه يشعّ بالعرق. كان الهدوء ضاربا أطنابه في المكان، وحدها أشعة النيون الغامزة في الرواق دلّت على وجود حركة في هذا العالم. حين التفت إلى يساره ظهر ظِلٌ لشبح مع كل ومضة من الضوء. غمز المصباح مرّة أخرى، وكان حسين يشُدّ عضلات عينيه ليركّز على الظل بجانبه على اليسار. تدلّى من فوق السرير الغطاء الذي لامس الوسادة المرمية على الأرض. بجانبها تحت المنضدة مباشرة قفّة يظهر من فتحتها منديل أحمر يلفّ قطعة خبز، وبجانب القفّة كيس أسود يظهر في قمة فتحته سدادة لقارورة زجاج فارغة تقريبا. رفع حسين نظره وصوّبه إلى ما فوق السرير، وكان ذلك دحّو متكئا بظهره على مسند السرير، مرتخي الأوْداج والأطراف، انحسر طرف سرواله عن رجله اليسرى فبانت عظام ركبته الهزيلة. وفُتِحَت سحّابة سترته الرياضية إلى النصف، ليظهر منها قميص أبيض نصفه مبلّل. في تلك اللحظة بدأت أولى خيوط الفجر تبشّر باقتراب الصبح.

- دحّو...

اشتد خفقان قلبه وهو يعدّل من وضعيته ليتمكّن من الرؤية بشكل جيد:

- هل أنت بخير؟

التفت دحّو نحو حسين بوجه خال من المعنى، وانتظـر هـذا الأخير حتى يغمز الضوء مرة أخرى. أوداج منتفخة، جبهة مظلمـة، ولون بشرة أصفر شمعيّ. كانت نظرته زائغة مبهمة. قفز حسين على قدميه، وكاد ينسى أمر المصل والقضيب المعدني وهو يتّجه نحوه:

– ما هذا يا دحّو؟ أنت تدمّر كل شيء حولك.

انبعثت رائحة كحول حادّة مع اقترابه. جثى على ركبتيه ورفع قارورة زيت الزيتون المرمية على الأرضية ثم وضعها فوق المنضدة.

– أنت مريض، وقد عانيت بما فيه الكفاية.. فلماذا تفعل هذا بنفسك يا أخي؟ ألا ترى الفوضى التي خلّفتها؟ لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟

"ألن تكف هذه الحياة عن دعاباتها القاسية؟ هذا الرجـل دُمِّـرَ كليا، وها هو يعاقب نفسه بنفسه.. ولكن لماذا؟ لماذا نحن دائما؟.. لماذا نحن هنا في هذا الشقاء بينما أشخاص آخرون ينعمون بالسـعادة في مكان من هذا العالم؟ أليس هذا تقصيرا من الحياة؟ يولد الأطفال جميعا أبرياء، فيأتي دور الحياة لتقوم بدورها الأعمى الذي يتمثّل في تيْتِـيم هذا، أو تفقير ذاك... وفي حالتي أنا شقائي على كل الوجوه! لمـاذا؟ ماذا فعلتُ لأستحق كل هذا العذاب؟ ألسنا أبناء الحياة نفسها الـتي أعطت للآخرين كل ما هو جميل دون أن تطلب منهم عرفانا؟ أليست الحياة ظالمة لأنّها حرمت الأشقياء من كل شيء، ثم جعلتهم تـابعين لهؤلاء أو تابعين لعقيدة ما رجاءً في تحسين ظروفهم البائسة؟ الأقوياء لا يحتاجون إلى إله ولا إلى متبوع، الضعفاء هم يحتاجون لـذلك. لمـاذا دائما ما يُعَوِّلُ الحكام أو الأنبياء أو أيّ رجل عظيم على الضعفاء؟ إنهم السواد الأعظم من الناس، ولأنهم أيضا لا يملكون ما يخسرونه، لذلك

هم شرسون في القتال، ويمكن أن نعدهم بالكثير.. نعدهم بالجنـــة، أو الغنى، أو التعليم، أو الفوز بمنصب حقير.. هؤلاء لا تمثّل لهم الحيـــاة أكثر من بضعة أيام إضافية من الشقاء.. أمّا الأقوياء فلا يمكن التعويل عليهم؛ لأنهم أرباب ولا يحتاجون للآخرين بينما تبتسم لهم الحياة، لا يستسلمون لإغراء الآخرين ولا تستهويهم الوعود لأنهم ينعمون بكل ذلك. هل هذه صدفة ما لعينة أن أكون في هذا المكـــان الآن أم أنهـــا قوانين هذه الحياة المستهترة؟ ها هو دحّو مثال أمامي.. القمامة تحيط به من كل مكان؟ ها.. آه أنا أقف فوق الأكل؟ لقد تلطّخ كعب قدمي اليسرى ودحّو لا يقول شيئا غير النظر إليّ بعيْنٍ نصف مغلقة.. لمـــاذا كل هذا يحدث لي وحدي؟ هذا المكان البائس الّذي سيشـــهد علـــى موت الإنسان بداخل كل واحد منا. ماسي يحتضر من ورائي ودحّـــو يُجنّ من أمامي، وبين هذا وذاك لا أستطيع التفكير بوضوح. كيـــف أنسى ما حدث قبل الآن؟ كيف أنسى وجه آمال وهي تقف كالبلهاء أمامي وكأنها ترجّتني أن لا أخبر أحدا بعينيها.. قالت ذلـــك بعينيهـــا وهي تعلم أني قلت لها "نعم، لن أخبر أحدا" بعيني.. قالت لي أنها آسفة ويجب أن أغادر، وأجبتها بأني أحتقرها وأشمئز من إنسانيتها المنحطّـــة. كلانا يعلم هذا وكلانا فهم أنّ الكلام لم يعد ينفع بعد الآن.. كمـــا لم يعد ينفع الكلام مع دحّو، هذا الصامت كالدهر والساهم كالشمس في الأفق. إنّ معاملة الإنسان وهو صغير بتلك القسوة قد تجعل منه في بعض الأحيان صلبا كالحجر.. لا يطرف له جفن ولا تتحرّك أهدابـــه من أجل مشاهدة منظر جميل أو امرأة فاتنة حتى لو ظهـــرت الجنـــة بنفسها. ولكن أن تكون الحياة بكل هذه القسوة المفرطة فإن ذلك لن يتسبب إلا بالدمار.. الدمار وحده وفقط.. وهذا ما يحـــدث لـــدحّو

الآن، إنه يدمّر نفسه بنفسه لينسى ماضيه، ليبني إنسانا جديدا على أنقاضه المتهالكة، لكي لا يعود له وجود في الأشياء التي تحيط به. إنه يدمر كل ما يذكّره بالألم.. آه كم المنظر جميل وراء النافذة! السماء تتدثر ببطانية من السحب وتبول على الأرض، إنها مترفعة وشامخة ومتكبرة، بولي يا سماء فأنت تستحقين ذلك.. بولي فنحن لا نحتاج للبول إلا لنُطَهِّر أنفسنا.

الساعة شارفت على بلوغ الثامنة صباحا، وقد يدخل في أيّ وقت شخص ما من عمال المطبخ أو التنظيف أو الممرضين، وسيكتشفون الفوضى التي خلّفها دحّو في المكان. عليّ أن أحمل القارورة وأخبّئها بين أغراضي؛ لأن دحّو قد يقذف بجنونه أيّ شيء يعترض طريقه ولاحقا سأتخلّص منها. اِرفع رأسك جيدا، آه.. هكذا نعم.. ارفع يديك.. نعم هكذا فقط.. رغم ضمور جسده إلا أنه ثقيل جدا، ورائحة البول العفنة تملأ فراشه، هل بلّل نفسه للتّو أيضا؟ آه يا ربي كيف سأتصرف الآن؟ عليّ أن أسحبه للمرحاض ولكنه لا يريد، تبًّا لا يريد التزحزح من مكانه.. آه لقد آلمت نفسي بهذه الحركات.. أخخخ صدري.. حسنا لا بأس.. على الأقل هو مستلق في وضعية ملائمة، ثم إني ألقيت فوقه الغطاء وسوّيت الوسادة تحت رأسه. عليّ أن أرجع لمكاني فورا، فأنا متعب جدا ولا أستطيع الاستمرار في الوقوف.. هذه البطّيخة فوق الوسادة الثانية هي رأس ماسي المسكين، لا شَعْر يستر فروة رأسه، وها هو يبلّل الوسادة باللعاب.. عليّ أن ألبِسه قبّعته التي انزلقت فوق رأسه.. رأسه خال من الشعر.. وأنا أيضا سأكون مثله قريبا.. حسين رأس البطيخ.. آهٍ كم أنا مرهق.. عليّ أن أستريح.. عليّ أن أتمدد..".

-4-

كانت عاملة المطبخ فايزة مخلوفي أوّل من دخل إلى الغرفـــة في صباح ذلك اليوم، تركت وراءها عند العتبة عربة الطعـــام الثقيلـــة، كانت مهمّتها توزيع وجبات فطور الصباح، وجاء الدور على هـــذه الغرفة الغارقة في الصمت والحزن. سألت حسين أولا بما أنه أول من وقع بصرها عليه، كان متّكئا على مرفقه الأيسر ومنكبًّا على توضيب أغراضه. سألته عن ما يوَدّ أن يتناوله، فطلب القهوة. مالـــت فـــوق المنضدة لتملأ كأسه، وانتشرت رائحة القرنفل من ناحيتها وروائـــح أخرى حادة لم يحدّد حسين نوعها أو مصدرها. رنت ببصرها نحـــو نهاية الغرفة وسألت دحّو:

- قهوة؟

حدّق دحّو في المرأة وهو يفرك عينيه الناعستين. فتح فمه على سعته ليتثاءب وكأنه حيوان الغويان الكسول. تعرّج خط فمها الرقيق وانحرف حاجباها باشمئزاز وهي تَحْدجه بنظرة استفهام. ظلّت نظرة دحّو ثابتة لا تتغير كالزمن، إلا أنه هزّ رأسه قليلا كإشارة مبهمـــة لم تفهم معناها تماما.

- قهوة بالحليب.

نطق هاتين الكلمتين بفرنسية رشيقة، جعلت حسين يعتقـــد أنّ هذا الرجل ليس دحّو نفسه. ثم لم يلبث أن أضاف برطانة مدهشة:

- هل يوجد خبز فرنسي أو ميلفوي؟

"لا يا رجل! قال أنه مسكون بجنية مسلمة اسمها علجة، ههه.. أظنُ أنه مسكون بشيطان اسمه هبل.. الشيطان فقط من يقول مثل هذا الكلام في موقف كهذا.. هه قهوة بالحليب إذن؟ عجيب أمر هذا الرجل، يظن نفسه في فندق خمس نجوم. هه المرأة تغلي من الغضب ثم هل سيطلب لاحقا الكافيار على الغذاء أم ماذا ههه؟".

ترك حسين الابتسامة تمر على شفتيه بهدوء، ورأى فايزة تعود إلى عربتها الفضية بخطوات متزنة بعد أن وضعت كوبا فارغا فوق منضدته. التقطت ابريقيْ الحليب والقهوة وقطعة من الخبز الفرنسي ثم اتجهت نحو دحّو، عند هذه النقطة بالذات انفلت حبل الهدوء: فلو أنها لم تحمل في كلتا يديها ابريقيْ الحليب والقهوة، ولم تقم بحشر الخبز الفرنسي داخل جيب مئزرها، ولو أنّها لم تُوسِّع بين خطواتها لتتخطى حسين نحو نهاية الغرفة، ولو أنّ دحّو الذي عبث بالمكان ليترك الزيت يبلّل الأرض، لما وضعت رِجلها فوق تلك البقعة الزلقة، لما فقدت توازنها، لما انفلت الإبريقان من يديها، لما ارتفع رجلاها في الهواء وبان فخذاها كعودَيْ أكل صينيين. في تلك اللحظة الزمنية تجمّد الزمن وخُيِّل لحسين أنها تمثل إحدى لقطات بروس لي القتالية. فقد ظلّت معلّقة في الهواء لبرهة وكأنها تمارس الركمجة على الأمواج. طار الإبريقان في اتّجاهين متعاكسين، ووِفْقاً لقانون نيوتن -الذي لم يخطئ لحد الساعة- ارتطمت الأجسام الثلاثة (هي، إبريق القهوة ثم إبريق الحليب) على الأرضية تباعا، مصدرة صلصلة وضجيجا تردّد صداه في كل مكان. انسكبت القهوة على الأرض وتمازجت مع الحليب، وسقطت قطعة الخبز الفرنسي وسط كل ذلك. أطلّ حسين من جانب

السرير ورآها تُمْسِك بأسفل ظهرها ملتصقة بالأرضية، تسبح رجلها اليسرى وسط القهوة بالحليب، أطلقت صفيرا حادا وأنّة صدرت من أنفها، ثم نهضت ببطء وهي تشدّ على رجلها اليمنى. زعقت بصوت منفر مستنجدة بالآخرين وكأنها تنازع الموت. لم تكد تتقدّم بضع خطوات حتى سدّ فتحة الباب رجلان يرتديان زيّ الممرّضين.. كان أحدهما قد نسي قفل أزرار مئزره مما يبين أنه وقت المناوبة وانضم إليهما للتو، ممرضات أخريات تجمهرن أمام الغرفة وطفِقن يسألن عن الذي يحدث في الداخل. انكبّ أحدهم على المرأة يتفحّصها ويسألها بقلق مزيّف عن حالتها وعن المكان الذي تتألّم منه. انشطر الجمع إلى نصفين، وظهر بينهما حميدة العباسي.. لم ينظر إلى المصابة أولا، وإنما جال نظره في الغرفة كحيوان مفترس جائع يحاول غرس أنيابه في طريدة طالت فترة اقتناصها:

- ما الأمر؟ أخبروني ما الذي يحدث هنا؟

حملق في الجمع بنظرة تَقْدَحُ شررا. لم ترْمُش عيناه خلالها وهو يطلب إجابة مستعجلة.

- تعثّرت في طريقها فسقطت على ظهرها.

تكلّم الممرّض الذي انحنى فوق فايزة، التي تأوّهت بشدّة وهي تعضّ على شفتيها، ثم أشار إلى المكان الذي انسكبت فيه القهوة مع الحليب:

- اِنزلقت في طريقها نحو نهاية الغرفة.

ظهر بريق لامع في عينيْ حميدة الزّجاجيتين وقد ظهر في بياضها عروق حمراء. اِكتفت المرأة فايزة بهزّ رأسها إلى الأعلى والأسفل. ثم تقدّم حميدة إلى وسط الغرفة في هدوء وهيبة.. جلاد تنتظره الجماهير

لِيُقَدّم استعراض قطع الرؤوس. حفر الأرضية بعينيه الملتهبتين، ولوهلة جَمدَتْ نظرته عند نقطة معينة.. أحْنى جذعه العلوي والضخم ليتفحّص تلك النقطة عن كثب. كانت فتحتا أنفه تتّسعان ثم تضيقان بالتناوب، وتتحرّك عيناه وفقا لنوع الرائحة. انتصب واقفا وقد أظلم وجهه فجأة، ثم حدّق نحو ماسينيسا الذي كان لشدّة تعبه لا يزال نائما.

– من تسبب في هذه الفوضى؟ هكذا إذا.. حسنا.

زأر بقوة في ذلك السكون الغريب، وقد دوّى صوته في الآذان ليصمّها ويخرص أصحابها المذهولين أمام هذه الأحداث المتسارعة. انتصب واقفا كعمود إنارة حيث أن رأسه لا يزال مائلا للأمام. لم يكن ماسي يشعر بما يدور حوله، فقد كان غارقا في النوم، بل حتى أن غطيطه كان يسمع في ذلك الهدوء المخادع. أدار رأسه نحو حسين بطريقة منْ يريد تبرير التهمة:

– من تجرّأ على فعل هذا الشيء هنا؟

لم ينبس حسين بحرف، بل فضّل الصمت واكتفى بالمشاهدة مع الجميع.

"لماذا لم أرَ تلك البقعة من قبل؟ لماذا؟ هذا المتعب دحّو أيُّ شيطانٍ يسكنه ليقوم بكل هذا الخراب؟ لم يكتفِ بالعبث لوحده بل أراد إغراق الغرفة كلها في الفوضى. ماسي التعيس لا يزال نائما وذلك التيس الذي بجانبه لا يبالي أيضا. وحدي من يواجه الجميع الآن. لماذا جاؤوا به إلى هذه الغرفة؟ ولماذا أقع في هذه المكيدة البائسة التي لا تعنيني أبدا؟ ولكن القارورة داخل قفتي! أنا أنسى بسرعة، وهي الآن بين أغراضي، يا للحظ! إنْ فتشونا

ستكون الطامة الكبرى، ولكن لا يحق لهم تفتيشي، فهذه ممتلكات شخصية ولن أسمح لهم بذلك. بالله عليك يا دحّو ما الذي اقترفته يداك، وما أدراني يا صاحب هذه النظرة الصارمة؟ إنّه ينظـــر إليّ شزرا وكأنّي من تسَبَّبَ في بؤس البشرية كلها.. آه تعبت.. تعبت من المرض وتعبت من كل شيء. كل يوم يعيد نفســـه ومـــؤخرتي أصبحت متجمّدة من كثرة التّمدّد على هذا السرير. ثم هل أنا هنا لأخدمه ليلا ونهارا وأحرس السُرّاق والزُناة في المستشفى؟ كيف لا تنتشر الفوضى وقطيعه يرتع هنا وهناك ليَعيث فسادا بين جـــدران هذا المكان؟ كيف لا يتحوّل دحّو إلى شيطان وهو يرى ملائكتك يعاملون المرضى بأحقر الأوصاف؟ هم يُسبِّبون المرض أكثـــر ممّـــا تسببه الأوبئة. سحقا لهم جميعا".

- لماذا أنت صامت؟ لن ينفعـــك الكتمـــان في أي شـــيء، جميعكم معنيون بالأمر، ولن أتساهل مع الفاعـــل مهمـــا اقتضى الأمر إنْ اكتشفت...
- ماذا ستفعل؟ هل ستطردنا جميعا من المستشـــفى؟ أتـــتكلم دائما بهذه الطريقة مع المرضى؟

ارتعش جسد حميدة من الغضب وضغط على قبضته بقـــوة ثم صرّ تحت أسنانه:

- تخاطبني بهذه الطريقة الفجة؟! هل تعلم مـــع مـــن تـــتكلم يا سيدي؟

كان الحشد يتراكم عند مدخل الباب، حتى إنّ مجموعـــة مـــن المرضى انضموا إلى المتفرجين. اشْرَأبّت أعناقهم الشـــاحبة وأطلّـــت أعينهم المنهكة من المرض.

- أتكلم مع شخص لا يفهم معاناة المرضـــى ولا حاجتـــهم للمساعدة.

مطّ شفتيه إلى جانبيْ وجهه فارتفعت زاويتاهما مُفْصِــحة عـــن ابتسامة كرتونية:

- هل تريد أن تحوِّل هذا المكان إلى متنزه للاستجمام أم تظن نفسك في بيتك؟
- أظن نفسي في بيت أمك.

انتفض حميدة مرتعدا. تلاشت ضحكته الكرتونية وتغَضّن وجهه في ثانية.. وكأنه وجه لشخص آخر.

- هل تقول لنا من تسبب بهذه الفوضى هنا أم لا؟

أتاه الرد حاسما:

- لا أعلم.

كانت نبرة حسين واثقة وجافة تحمل الكـــثير مـــن الإصـــرار والتحدي. التفت حميدة العباسي نحو الحشد المتراكم عند العتبة وزعق بصوت حاد، حتى أنّ لسانه ارتجف في الهواء وهو يصرخ بفم فاغر:

- استدعوا رجال الأمن.

كانت يده معلّقة في الهواء، يشير بسبّابته نحـــو زاويـــة الغرفـــة المحاذية للباب:

- سنفتّش جميع من في الغرفة الآن وسنعرف الفاعل.

تقلّب دحّو في مكانه فانحسرت البطانية عن جسده، وانكشف بطنه وكانت يده اليسرى تزحف تحت سرواله لتمسك بنتوء بـــارز. انطلقت آهة من فم أحدهم وكان الموقف حرجا. مصْـــمص دحّـــو ودار لسانه على شفتيه، ثم حرّك يده على النتوء الذي أصبح كخيمة

البدو الرحل. تحوّلت الأنظار نحوه، ولكن الكلام وُجِّه لحسين وكأنه هو السبب في كل ما يحدث.

- تريد معرفة من تسبب بهذه الفوضى؟ هه.

صرت نوابض السرير تحت حسين وهو يمدّ يده بين أغراضه. تقاذف رذاذ لعابه وهو يتشدّق ساخطا ولاعنا:

- ها هي القارورة.. وهل أقول لك ما نوعها أيضا؟ هه؟ حسنا، كما تحب.

أدار زجاجة زيت الزيتون الفارغة وقرأ عليها "جرجرة"، سادت لحظة صمت رقصت خلالها ذبابة في الجو مُصْدرة أزيزا ساخرا وغير مبال بالوجوه المكفهرة. رفع حسين الزجاجة إلى الأعلى وأمام أعين المشاهدين. في تلك الضجة التي أحدثها صوته استيقظ ماسينيسا ولم يستوعب شيئا، بل ظل مدهوشا بمنظر الغرفة المملوءة أناسا ونفسا، حكّ عينيه الذابلتين علّه لا يزال يحلم، ولكن عندما فتحهما رأى نفس تلك الوجوه المحملقة والواجمة تنظر إليه شرزا.

فقد حسين أعصابه واهتاج معبرا عن ثورة تعتمل بداخله، رافعا يديه في الهواء وكأنّه نبي يريد تحذير قومه من سعير جهنم، ولكن الفرق الوحيد أنه في المستشفى ومحاط بوجوه بلهاء:

- أنا من عبث بالمكان، وها هي قارورة زيت الزيتون التي تسبّبت بمسقطها هناك، وها أنا هنا أمامكم أيضا، استدعوا رجالكم، استدعوا من تحبّون، فلستم سوى حَفنة من الحشرات التي تستحقّ السحق. استدعي كلابك الآن..

فتح يديه نحو السماء في مظهر مبجّل، وقد أضْفى عليه المحيطون به هالة من الوقار الذي لا يليق إلا بالأنبياء، ولكن النبّي لا يَخْطُبُ في

قومه حاملا بيده قارورة زيت زيتون. توقّف الزمن لبرهة وكأن كل من في الغرفة قد تجمّد، عدا حسين الذي رأى تصلّب جسم حميدة وهو لا يستطيع أن يتخذ أيّ قرار إزاء ما حصل، أو أنّ شيئا ما يمنعه عن ذلك؛ لأنّ الصراخ بهذا الشكل يجلب له المتاعب مع مدير المستشفى، فآثر الصمت مكتفيا بأقل الأضرار. ارتبك العمال وتحاشوا النظر إليه، ثم كانت هناك عاملة التنظيف بختة صاحبة المعزوفة المجنونة، وماسي قائد الأوركسترا الغائب عن العزف. هذه الجوقة المُعَوَّقة تُصْدِر لحنا محزنا. ظهر له فجأة وجه بختة من خلال الحشد الذي ملأ فتحة الباب. وما إن انتهت فترة التجميد حتى رأى الجمع ينْفض تحت أوامر حميدة، انصرف كل واحد إلى عمله بخنوع وخِشية. بقت فايزة واقفة هناك تشُدّ ظهرها وتمسك عربتها بيد واحدة. أحاط بها رجال الأمن الذين تدافعوا إلى داخل الغرفة يدقّون الأرضية الزنخة بأحذيتهم الغليظة. كان رئيس الأمن الذي يتقدّمهم نحيف العود، أسْوَد البشرة، مجَعّد الشَعْر، له وجه ممتلئ منتفخ الأوداج. تلك النظرة الرمادية تُعطي انطباعا باعتداده بنفسه، ودرجة مَيَلان شفتيه إلى أسفل اليمين تعبّر عن حقارة لا حدود لها، أضْفت عليه بدلته الرسمية صرامة لا نهائية. وقف حميدة عاقدا يديه أمامه رافعا أنفه إلى الأعلى حتى بان ثقبا منخريه المظلمين، وسقطت ظلال خافتة على عظام وجهه المكعّب، فبدا تعبير ملامحه غامضا في تلك اللحظة:

- أنتِ...

وجّه سبّابته نحو موضع الانزلاق دون أن يبعد نظره عن بختة، التي اشتدت قبضتا يديها عند سماعها لكلمة "أنتِ"، وعلقت غصّة في حلقها لم تبلعها إلا بصعوبة.

- نظّفي المكان من هذه الفوضى حالا.

عقدت بختة ما بين حاجبيها وقذفته بنظرة برّاقة ولكنها سريعة، خوفا من أن تتحوّل إلى شيء آخر. دارَتْ امتعاضها بحكّ كفيها على جانبي قميصها، وشدّت على حاشيته، ثم كزّت على أسنانها مشتعلة من الغيظ، ارتجفَ خدَّاها وهي تكبح كلماتها على حافة شفتيها. وقف حميدة صامتا، تهتز عيناه وكأنه يقرأ فصلا من كتاب عُلِّق في الهواء. لم يوجّه أيّ كلمة لرجل الأمن، والمتأهّب لأداء عمله البطولي عند أدنى حركة من رئيس القسم. استدار نحو حسين وصوّب نحوه سبّابته الغليظة قائلا:

- سنفصل معك في الأمر قريبا، وسيكون لي معك كلام آخر.

عادت بختة إلى الغرفة تجرّ معها أدواتها بعد أن غادر حميدة العباسي مع رجال الأمن الذين أنهكهم الضجر من حراسة البوابة. باشرت بختة عملها وانحنى جذعها فظهرت حدبة ظهرها، وأخذت تفرك أرضية الغرفة وهي ترمش بسرعة وتمسح أنفها بمعصمها. كان وجهها متصلّبا، وبريق عينيها خفت فجأة وحلّ مكانه قطرات انسكبت على الأرضية، ولكنها سرعان ما قامت بتجفيفها.

غلّف المكان صمت عميق، ولم يدم ذلك طويلا حتى تمزق غشاء الصمت بسؤال بختة المفاجئ:

- بالله عليكم، ما الذي يحدث في هذا المكان؟

بدت كأنّها تكلم نفسها لأنها لم تلتفت إلى أي أحد وهي تقول ذلك.

- بالأمس حدثت سرقة أخرى للأدوية وبلغ الأمر مدير الصحة للولاية، وقد تم اكتشاف الفاعل وهو الآن بيد

الشرطة لتحقق معه حول الأمر، ولكن لا أصدق كل هذا!

التفتت نحو حسين بحكم أنه كان الوحيد الذي يمكن أن تخاطبه في تلك الحالة:

- لا أعلم إن كان ما يحدث في هذا المستشفى حقيقيا.. حتى أنني لا أستطيع تصديق ما حصل فعلا.. كيف يمكن لرجل طيّب أن يقدم على هذه الأمور؟! ولكن الظروف علّمتنا أن لا أحد سينجو من مخالب هذا المجتمع الذي لا يرحم. المسكين.. البشير فُصِل عن عمله وسيُحاكم قريبا. لا أجرة شهرية ولا حرّية.. المسكين ما كان عليه...

صمتت برهة أطرقت خلالها إلى الأرض ثم تابعت:

- لذلك لم يُرِد ذلك اللعين أن يلفت الأنظار حوله بركْلِكُم خارج المستشفى.

كانت تكشط أرضية الغرفة بثبات وتتحدث وكأنها تخاطب مكعبات الغرانيت المبللة.

- كلنا بشر ومعرضون للخطأ، ولكن القوانين جُعِلت من أجل الفقراء فقط.. تخيّل معي أنّ الرجل رب أسرة كبيرة، زوجته مشلولة تماما ولا تغادر الفراش أبدا، المغبون لديه خمس بنات وولدان، وقد قيل لي أنّ ابنته الصغيرة أصيبت بورم دماغي وهو يحاول أخذها إلى تونس للعلاج.

عصّرت المنشفة بقوة حتى برزت عروق يديها، وكأنها تلوي رقبة أحدهم. ثم جثت على الأرض لتمسح البقعة تحت سرير ماسي:

- ذلك الحقير لا يلين قلبه لأحد.. بالله عليك، كيف يمكن لرجل مثل البشير أن يحصل على مبلغ العملية وتكلفة

الرحلة إلى تونس؟ ثم هناك أسرته التي تحتاج إلى المصاريف، الراتب الشهري لا يكفي حتى لشراء دراجة هوائيـــة.. ثم يأتي حقير مثل هذا ليصُبَّ علينا جام غضبه.

كانت حركاتها عنيفة وهي تمسح الأرضية بقـــوة، وتضـــغط بذراعيها القويتين على المنشفة لتعصرها في الدلو بطريقة مـــن يشـــد خصمه من رقبته ويريد خنقه.

– في هذه البلاد لا يجد ابن الآدمي إلا القاذورات في انتظاره. أووووووف شقاء في شقاء.

طوّحَت المنشفة بعيدا على الأرض بطريقة من يتخلص من ثقل طال حمله.

– الناس تبدأ نهارها بالابتسام والهدوء والسيّدة بختة تقبل على القاذورات.. لا شيء سوى القاذورات.. القـــاذورات ثم القاذورات ثم القاذورات.. وحين أتكلّم عن حقّي يقولون أني أبحث عن المتاعب وأثير الفوضى.. يا لهم من منافقين!

استدارت في وضعية جديدة لتنقل الدلو إلى جانبـــها، فلمـــح حسين كدمات على وجهها وكانت تداريها بطبقـــة سميكـــة مـــن المساحيق. بدت كئيبة وغاضبة، بل بدت هادئة ومتســـامحة تتظـــاهر بالغضب. الرائي لن يقف على حقيقتها كاملة لأنها كانـــت تواجـــه الأرضية المبلّلة.

ظل ماسي مستلقيا على ظهره يحدّق نحو السقف بعينين مبلّلتين، تتحرّك شفتاه عكس عضلات وجهه المتجمّـــدة، ينـــاجي ملائكـــة السماء لتنقذه أو يسب الدنيا التي جاءت به إلى هذا العالم. بدا أقرب إلى الألوهية بتلك الهيئة، ويكاد وقاره وتمتمة لسانه تشهد بأنّه لـــيس

من البشر. نعم.. في الحقيقة لم يكن ماسي من البشر في شيء، ارتقى بروحه إلى النور، وأخذ يذوب بكيانه ونظراته في ذلك النور الخفي الذي لم يكن ظاهرا لأحد غيره في تلك اللحظات. نور يشع من جسده المضمخ بالأدوية والعقاقير المهدّئة.

لاحظ حسين أن بختة تداري وجهها إلى الجانب الآخر. كانت تبكي بصمت وحاولت التحكم في مشاعرها وهي تواصل عملها الاعتيادي. تحرّكت بجسدها الرشيق والنحيف وقد أتمت عملها على أتم وجه، وأضْحَت الأرضية أنظف مما كانت عليه من قبل. حانت من بختة التفاتة نحو ماسينيسا، فانتبه حسين إلى تألّق عينيْها وإلى تلك الكدمات التي تحيط بعينها اليسرى، وأخرى تلطخ أسفل صدغها مباشرة وصفحة رقبتها اليسرى. أدارت وجهها في تعبير حزين وكأنها عادت إلى ما كانت تفكر فيه أثناء دخولها الغرفة، وظلّت صامتة، تحمل الدلو المتأرجح مع كل خطوة تخطوها إلى الأمام نحو الحائط المقابل لتلتقط الماسحة، وقبل أن تغادر الغرفة ألقت نظرة أخيرة إلى دحّو، ثم نقلت بصرها إلى ماسي، وأخيرا تخطّت حسين وانصرفت باكية.

-5-

مرّت الدقائق والثواني متخاذلة داخل الغرفة، وظن دحّـــو أنها تتواطأ مع الألم الذي استبد به حتى لم يعد يستطيع التفكير في شـــيء محدّد. أراد تحطيم كل ساعة في هذا العـــالم. أراد أن ينفصـــل عـــن جسده ويعيش طليقا في الفضاء، حيث لن يراقبه أحد ولن يُحْرجـــه العودة إلى طبيعته. كان فيما مضى طفلا صغيرا ولكنـــه الآن رجـــل دون عقل.. رجل ضاع جزء من حياته وهو ما يزال في معية أمـــه. رأى ما لا يليق بالأطفال أن يرَوْه وسمِع ما لا يجب على الكبار قوله. يصغي إلى دقات ساعة غرفته وهو طفل صغير، يتألم لِما يسمعه مـــن وراء الجدران. يصل صوت أمه إلى أذنيه واضحا، نقيا، خاليـــا مـــن التكلفة، يذكره جيدا.. ذلك الصوت المعدني يتناغم مع دقات ساعة الجدار. كانت وهي تمسك سماعة الهاتف -بيد مطلية أظافرها باللون الأسود- تحت أذنها، مستندة على ظهر الأريكة ورجلاها تتصالبان، فيظهر باطنا فخذيها اللدنين، شفافين. تفاصيل دقيقة ولكنها تلتصق بالمخيلة إلى الأبد، وخاصة إذا ما تبعتها دقات الساعة الـــتي تـــذكره دائما بالألم والمعاناة. الوقت هو الذي يحمل الذكريات من الماضي إلى الحاضر.. الوقت توأم للكون، كلاهما عاشا معا كل ما حدث طيلـــة خمسة عشر مليار سنة الأخيرة. الكون يتمدّد ويشيخ ولكن الوقـــت وحده لا يشيخ.. إنه سر الحياة. دقات الساعة تواصل عملها بانتظام ووالدته تلف سلك الهاتف اللولبـــي المطاطي حول أصبعها الرشيق،

تتكلّم همسا وهي تنظر نحو إطار النافذة المطلة على الشارع بـــزاويتيْ عينيها، وتتباطأ حركة شفتيها أثناء الحـــديث ثم تليهـــا بضـــحكتها الخافتة والمغناجة، مستجيبة بذلك للصوت وراء أسلاك الهـــاتف. ثم تليها بملامسة ناعسة وبطيئة من يدها على صدرها البض مبتهجة من تأثير حديث الهاتف.

"كيف لها أن تفعل هذا بـــي؟ كيف سمحت لعضو الرجل بأن يلجها من كل مكان وعلى فراش والدي؟ أذكر ذلك جيدا حينما أيقظني صراخها في منتصف الليل، أذكر حينما نهضت من فراشي لأمشي حافيا وعلى رؤوس أصابعي، نحو الباب الفاصل بين غرفتينا الوحيدتين في تلك الشقة البائسة، كان مقفـــلا بإحكـــام ولكـــني تمكنت من رؤيتها من خلال ثقب المفتاح.. آه كم هذا مـــؤلم! آه لحظّي ولقدري! آه إنها الأم التي ولدتني، أجدها هناك في مكانهـــا، متمدّدة فوق الفراش، عارية مستسلمة لمُريدها كليـــة.. مســـتلقية على ظهرها.. ولكن كيف لم أتمكن من رؤية كل شيء؟ آه لحظي السيء! آه لذلك القدر! آه لتلك اللحظة التي تأكل دماغي كـــل لحظة من حياتي دون أن تشبع! ذلك القذر نسيت من هو، نسيت من يكون، هل يمكن أن أعرفه لو نلتقي في الطريق؟ هل يمكـــن أن يعرفني لو التقينا في الطريق؟ هل يمكن أن يخبر أصدقاءه مـــا فعـــل بـــي في الليلة التي تلت خروج أمي إلى الشارع؟ هل سأتمكن من لقائه لأنتقم؟ سأخنقه بيدي هاتين وأمزقه إربا.. ولكن لن يعتـــرف القاضي بقصتي ولن يصدقني أحد.. ومن يشهد معي؟ لم يرنا أحد، كنت أنا وهو لوحدنا، ثم هجم عليّ وتركني أبكي لساعات دون أن تهتزّ شعرة من رأسه. الحقير عاد في اليوم التالي.. لا.. لا.. إنهـــا

ليست أمي أبدا.. وإلا كيف سمحت له بالعودة بعد كل ما جرى؟ "أفعل ذلك من أجلك يا عزيزي، ألا ترى ما أعانيه؟ ألا ترى ما أتكبّده من تعب وذل في سبيل إطعامك؟" هذا ما أعادته على سمعي لمئات المرات دون كلل ودون تعب. لتداري لذهّا، لتداري شغفها بالجنس.. ومع ذلك.. ومع ذلك لا يجوز لي أن أقول أنني اشتقت إليها.. لا.. لا يجب التعاطف مع امرأة مثلها، إنها عاهرة وهي من أحبّت ذلك.. والحمد لله أنني نجوت بنفسي.. ههه.. نجوت؟ من ماذا نجوت؟ أمِنَ المرض؟ أمن الجنون؟ أمن السخرية؟ أمن التشرد؟ أعيش مع جدي وزوجته التي تمقتني لحد الجنون لأنني مجنون.. ومن يحب مجنونا في هذه الحياة؟ لا أحد.. ومن يتعاطف مع المجانين؟ لا أحد.. لا أحظى بالحب لأن الحب دمار بالنسبة لي، ولا بالشفقة لأنها دائما ما تنتهي بالسخرية.. ولكن فيما أفكر؟ ولماذا أدُسُّ كل هذه الأمور التافهة داخل رأسي؟ أشياء كثيرة مازالت محشوة في هذا الدماغ.. صورها وهي عارية تتمدّد فوق السرير. رأيتها.. لقد رأيتها بعيني هاتين من خلال ثقب المفتاح، أقسم أنني رأيتها عارية وفوقها ذلك الرجل.. كان يشطرها إلى نصفين ورجلاها معلقتان في الهواء تهتزان بإيقاع يتناغم مع صرير السرير. أصابع يديها بأظافرها المطلية بالأسود تنغرز في ظهره وتمزق اللحم كلما أوغل الرجل داخلها.. ثم تقول "كل هذا من أجلك يا بني"؟ كان يجدر بها أن تقول "أنا شبِقة حد الجنون ولن يشبع مهبلي عضو واحد يا بني" كم كان مظهره بشعا، أخخخخ.. لماذا يحتفظ دماغي بهذه التفاصيل؟ أخخخخ.. ما كان يجب أن أتجسّس عليهما، ما كان عليّ أن أقوم بدور رقيب وعتيد. كان ظهره مليئا بالشعر وهي

كالزهرة تفتّقت بين يديه الخشنتين.. سحقا لهما.. الجحيم مأواها.. اختارت مكانها مُسْبقا، وحجزت مقعدها في ذلك الماخور القذر.. ولا مكان لي في قلبها بعد الآن، إنهـــا لم تعـــد أمـــي.. لا.. لا.. لاااااااااااا.. سأُجّن. هههه. وماذا أدعو حالتي هـــذه إن لم أكُـــنْ مجنونا بعد؟ "كل ذلك من أجلك يا ابني" هذا ما تقولينه لي؟ آه هل أنا أصرخ بأعلى صوتي الآن؟

ها هو حسين يحدّق إليّ مستغربا.. حسنا، أنا لست أغرب من الحياة نفسها.. كلنا أبناء تسعة أشهر ولكننا نختلف كلية.. يمكنـــه أن يعتبرني مجنونا إذا شاء، فأنا وحدي عِشْتُ ما لم يعِشْه أحـــد في الواقع.. عشت في هذا العالم ابنا صغيرا ثم ابنا بالغا قبل السن، ثم كامرأة لرجال استغلوا طفولتي. تعثّرتُ مراهقا وسقطت كرجـــل محطّم في نهاية المطاف. آه إنها لم تعد أمي.. لا. لا.. لاااااا سأصرخ بأعلى صوتي الآن، وليعتبروني مجنونـــا.. لا أســـتطيع أن أهـــدأ.. وكيف أهدأ؟ كيف أنسى؟ كيف أُخلِّص نفسي مما حدث؟ كيـــف أنسف هذا الرأس المليء بالصور؟ إنني أرى صورا لا يراها أحـــد غيري.. إنها صور مبهرة تسبب الألم والعـــذاب.. آه.. ســـأجن.. حتما أنا مجنون.. أنا.. لست ابن أمي.. ومـــن أكـــون؟ إن كـــان للجنون ميزة فهو أنه يقيني أذى البشر.. الأذى الذي لحق بـــــي وأنا أدعى بين أحضان أمي، "طفلي الصغير تعال لأقبّلك"، "حوحو الصغير تعال وعانقني" كل هذه الأشياء ذهبت مع موت أبـــــي.. لا.. لا.. لم تعد أمي.. زليخة ليست أمي.. زليخة مومس.. زليخة عاهرة. أمي عاهرة وأنا لست ابنها.. وجهها.. ذلك الوجه لا أزال أتذكّره جيدا.. وجهها الحامل للكدمات والصمت معا، "أمي مـــا

بك؟" أسألها لتجيبني بالصمت، ثم بعد لحظات تغمر الدموع عينيها لتعود إلى المطبخ وتغلق على نفسها الباب. أسألها مرة أخرى من وراء الباب "أمي، ما بك؟" ولكني أعلم الإجابة.. لم أكن في يوم بحاجة إلى إجابة، هي تعرفني جيدا لذلك لم تجب عن أسئلتي.. "أنت ابني وأعرفك جيدا"، "أنا من ولدتك وعجنتك" ألم تقل كل هذا؟ إنها تعرف كل شيء عني، رغم هذا لم تتمكن من مساعدتي؛ لأنها لم تساعد نفسها لتساعدني أنا.. كنت ضالا معها والآن زدت ضلالا بغيابها. أنا منطوٍ في حضرتها ومجنون في غيابها.. كنت أضِلّ بين أنين لذتها، وأنين رعشتها، وأنين ألمها... كل هذه الأصوات استطعت تمييزها عن بعض. "أفعل ذلك من أجلك فقط"، "أتحمّل العذاب في سبيل تعليمك وأنت لا تكترث لأمك ولا تحس بمشاعرها" أقول أنّ العذاب الذي تتحمله في سبيلي هو عذابي أنا في الحقيقة. كل تلك الكدمات التي ملأت وجهها البشع لم تعترف لي مرة واحدة أنها تستلذ الألم في سبيل إرضاء زبائنها.. آههه نعم.. تحمّلت الضربات لأنها بشعة ولن يرغب أحد في مجامعتها غير أولئك الساديين. "أحتمل الصعاب من أجلك" هذا هو تبريرها الوحيد، أمّا أنا فتحمّلت عذاب سماعها تتعذّب كل يوم.. تحمّلت أن أكون ذليلا في أعين الناس.. تحمّلت الكثير والكثير.. ولأنها لم تعرف ما السبيل تخلّت عني للأبد، في بيت جدّي لأبي.. أصْبحتْ أكثر ضلالا من قبل، أصْبحتُ أشد ضلالا بعد أن حوّلت بيتنا إلى ماخور.. طفولتي ماخور..".

أحسّ دحّو بحرقة في عينيه. أدار ظهره إلى الحائط متمدّدا على فراشه، ليترك الحرية لدموعه بالتساقط على وسادته المبقعة باللون

الأصفر. استطاع أن يتحكّم في انفعالاته قليلا وهو يتذكر كلمات أمه الماجنة عبر أسلاك التليفون. أحيانا يُطْبِق عينيه ليرى من خلال رموشه الطويلة أمّه مستلقية في وضعية مسترخية، وكأنّ ذلك الهاتف مصباح علاء الدين يخرج من خلاله عفريت يجعل من والدته مخلوقا مقزّزا بشكل مشمئز. يلين صوتها المعدنيّ ليُصْبح مطّاطيا وهادئا مع مرور الوقت. وينسدل شعرها الأسود الفاحم فوق وسادتها المزركشة بنقوش مغربية، ويبرُز من بين نهديها اللذين كحبتي بطيخ قلادة ذهبية تختفي نهايتها بينهما. الساعة على يمينها والهاتف في محاذاتها. تلك الساعة تدقّ لأيام فتراوده أحلام شهرزاد ومغامرات سندباد، ثم تختلط هذه الأحلام لتصبح غريبة كواقعه تماما. فلا هي تنقطع ولاهي تتّصل، ولكنها لا تفرح ولا تحزن.. إنها مجرد أحلام تمر لتنسى.. ليس لضعف ذاكرته وإنما عاش أحلاما أكثر صخبا وغرابة في يقظته، وغالبا ما يخلد إلى النوم حين يتعب من الأحلام. ينام من أجل النسيان، ينام ليُحارب الزمن الذي لا يُقهر. هذا الزمن الذي يجبرنا على أن نكبر ونشيخ ثم لنموت أخيرا، فيواصل هو رحلته بهدوء من دوننا، وكأننا لم نكن.. آه.. ماذا لو كان للزمن قلب؟ لكان العالم غير هذا العالم، ولكان أرحم وأجمل.

تعود به ذكرياته إلى ماضٍ طواه الزمن ولم تطوِه الذاكرة، فيسمع دحّو في المدرسة الابتدائية اسم زليخة يُتداول بين معلميه وأصدقائه وحتى زملائه في القسم، وسرعان ما تنتشر الشائعة كالنار في الهشيم لتبلغ الإهانة منتهاها. تبادل زملاؤه الغمزات السرية فيما بينهم لدى اقترابه منهم، وكانوا ينكتون على أمور لها علاقة بالجنس، وغالبا ما يحومون حول موضوع والدته. تدهور مستواه الدراسي من

السيئ إلى الأسوأ بعد أن بدأ نُطقه للكلمات يتعثّر، تلك التأتأة التي طبعت حديثه فاقمت من انطوائه، فتوالت نكساته الواحدة تلو الأخرى حتى طُرِد من المتوسطة قبل بلوغه سن الثانية عشر. رافقه سوء الحظ طوال حياته، فكم تمنى في حياته أن يختفي العالم وينمحي وكأنه لم يكن. وكم تمنى نسيان ذاته وكل شيء يربطه بهذا العالم الغريب. يصاحب أفكاره ويختلي بها وحيدا خائفا من أن يكتشف أحدهم ما يدور داخل رأسه. تعِب من أن يعيش هذا الواقع الغريب.. تعِب من أن يحمل معه هذا الرأس الزاخر بالذكريات، تعِب من هذا الدماغ الذي لا يهدأ ولا ينسى ولا يسامح أبدا.

تُذَكِّره عقارب الساعة بوالدته التي تقف دائما عند النافذة كعادتها، لتراقبه متشاغلا بترصيف أحجار الدومينو بين فخذيْه على الأرضية الغرانيتية المرقطة بالأسود. عقفت ذراعيها أمام صدرها مستندة على إطار الباب الخشبي، تُطِلّ عليه من خلال عينيها قاتمتيْ السواد. معتقدا أنها تنتظر منه تفسيرا مقنعا لاختفاء الحلوى المعدّة للضيوف من الثلاجة. تنظر إليه بصمت ووجه رمادي ذابل، مستغربة انطواءه وعدم ارتياحه للحديث.. ولكنها سرعان ما اعتادت على ملازمته للبيت وانطوائه –اللافت للانتباه– طالما أنه لا يسبب لها المشاكل. عبثت يداه بأحجار الدومينو محدثة صوت فرقعة أحب سماعه كثيرا، رفع عينيه نحوها فرآها تقف بزيّها الأسود الذي وشى بكل مفاتنها وانحناءات جسمها المتعرّجة. لم تدم وقفتها تلك طويلا حتى اقتربت منه بحذر، وجثت ببطء ووقار على ركبتيها، وأصبح وجهها بنفس مستوى وجهه، وتملت النظر في ملامحه قبل أن تسأل بعد تردد قصير:

- هل أنت بخير يا ابني؟

أمسكت بذقنه وأدارت وجهه نحوها برفق وكأنها تريد اكتشاف تعابير جديدة على وجهه. مرّرت أصابع يدها الطويلة فوق رأسه ومسّدت شعره ببطء وحنان:

- هل تحبّ جدك الحاج مختار؟ إنه رجل طيب ويريد احتضانك في بيته.

صمتتْ فترة تتأمل فيها ابنها ذا الثلاثة عشر ربيعا، والذي انهمك في ترتيب أحجار الدومينو من جديد:

- أرجو أن توافق.. دحّو، قل لي ما رأيك؟
- أريد البقاء هنا، لأن والدي سيغضب إن تركتك وحيدة.

اتسعت عيناها لردّه المفاجئ، ولم يمهلها وقتا لتستوعب كلامه ثم استطرد قائلا بجدية:

- ما الذي تريدين فعله بالبيت في غيابي؟ أنا لا أريد الذهاب إلى ذلك السجن..

سقط فكّها السفلي دهشة وسدّت ثغرة فمها بكفها:

- لا يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام عن والدتك.. جدّك رجل طيب وهو يحبك كثيرا. سيسرّ كثيرا عندما يراك في هذه الليلة، إنه قادم ليأخذك معه.

تمعنت في معاني وجهه الطفولي وصمتتْ برهة لتفكّر في ما ستقوله:

- كن عاقلا وتصرّف بشكل لائق، لا أريد لأحد أن يسخر من ابني. انتصبت واقفة ثم غادرت غرفته نحو الصالة لتعيد ترتيبها.

بعد الساعة التاسعة ليلا دقّ الباب الخارجي ثلاث دقّات، كـــان دحّو لا يزال مستيقظا يفكر في كلام أمه والحديث عن الرحيـــل. دار كل شيء سريعا في رأسه.. فمغادرته للمنزل تعني توديعـــه لأمـــه إلى الأبد، ويعني كذلك شيئا خطيرا سيصيب والدته؛ لأنها لم تعد تثـــق في نفسها لتعتني به، ومجيء جدّه الذي لا يحب والدته جعله يشـــكّ في أنّ هناك اتّفاقا عقد أثناء غيابه. عندما أتت زليخة إلى غرفته لتـــدعوه إلى مقابلة جدّه تظاهر بالنوم. قفلت راجعة من دونه، ولكن الصـــمت لم يدم طويلا، فعادت الخطوات باتّجاهه ولكنها كانت لأربعة أرجـــل. وسمع همامسهما ممزوجا بتساؤلات عصبية. "هل هو نائم؟"، "نعم يبدو كذلك"، "هل أستطيع إيقاظه؟ أريد أن آخذه الآن إن سمحت"، "لا.. لا داعي لذلك، أتركه ليسريح، إنه متعب"، "يبـــدو حزينـــا". سمـــع خطوات ثقيلة تقترب من سريره وأحس بعد ذلك بأنفاس ثقيلة تلامس وجهه."يظهر لي كأنك تعاني من الوحدة والخوف هنا صغيري"، "هيا لنخرج من الغرفة، اُتركه إنه متعب". "لا تقلقي نفســـك، أودّ فقـــط التأكد من أنه بخير، إنّ ثيابه جِدُّ متسخة" "نعم، هيا بنا لنَعُد" ابتعـــدتْ خطوات الرجل، ولما سمع الباب يوصد فتح عينيه وقفز على الأرض.. عاد إلى الجلوس على السجادة القبائلية، دهس الأحجار بقوّة وتناثرت أمام مرآة صوان الملابس بشكل عشوائي. نظر إلى نفســـه في المـــرآة مطوّلا، ولاحظ تغيّر شكل وجهه والزغب النابت حديثا فوق شـــفته العليا. اقترب من المرآة ولامس الوجه المقابل. سمع صوتا غريبا يصـــدر من غرفة والدته، كان سِجالا بين جدّه وأمه. تقهقر من أمام المـــرآة، وأطرق رأسه نحو الأرض يشاهد من خلال عينيـــه المبلّلـــتين دموعـــه تتساقط تِباعا على نقطة فوق السجاد. دقّات الساعة تأتي مـــن كـــل

مكان.. دقّات الساعة تزداد إيقاعا.. ومن غرفة أمه كانت تصر دقات الساعة. مرت الدقائق والثواني وهو يرتّب الحجارة في أماكنها بالترتيب على شكل حلزوني. دفع القطعة الأولى التي أسقطت رتل الحجــارة في حركة متتالية. قاد حصان الزمن عربــة الســنوات وراءه، وارتجّــت عجلات القدر على طريق الحياة المليئة بالحصى. إنها الحياة التي ركلتــه على مؤخرته لتقذفه في غياهب النسيان. كان اليوم التالي كئيبا، جــو رمادي وسُحُبٌ شبِقة، قذفت مطرا قويا غسل زجاج النوافذ. في ذلك المساء جلس أمام التلفاز يشاهد برنامج "من سيربح المليــون" مُعــادا، ويقوم المقدّم في بذلة السموكينغ الأنيقة بطرح السؤال لمرحلة عشــرة آلاف دولار: **"من قام باختراع الساعة؟ أ- أبقراط / ب- أديسون / ج- وينبرغ / د- كريستان هيوغينز."**. في تلك الأثناء سمع طرقــا على الباب، هذه المرة لم يعد يمكن أن يخلق عذرا آخر.. إنها آخر ساعة سيقضيها داخل هذا البيت، لذلك أغلق الباب وراءه واستنشق هــواء غرفته بملءْ رئتيه وهو يحدّق إلى الأشياء المحيطة به. في هذه الغرفة اعتاد على مشاهدة القنوات الإباحية أثناء انهماك أمه طوال الليــل، وهنــا مارس العادة السرية لأول مرة في حياته وعمره لم يتجاوز بعد الثالثــة عشر. في ذلك الصباح بكى طويلا، فقد بدأت والدته تنعته بالألقــاب الساخرة التي يناديه بها الناس في الشارع. كانت عصبية المزاج وأصبح صراخها يتزايد مع الوقت، فتصبّ جامّ غضبها عليه، وأحيانا من دون أن يعلم سبب صراخها. كانت يده ترتعش في تلك الأثناء وهو يحاول التملص من عالمه الواقعي. في تلك الفترة تعرض لأوّل نوبات الصــرع في حياته، وازداد انطواءً بين أقاربه الجدد، ليتحوّل إلى المســخ الــذي يشمئز منه الجميع.

ألقى نظرة ساهمة من خلال نافذة الغرفة، وأطلق لبصره العنـــان في السماء ذات اللون الرمادي. كان يأنس لتواجده في هذه الغرفـــة رفقة حسين وماسينيسا. تواطُؤٌ خفيّ يربط مصيرهم المجهول ويقوّي من الإحساس برابط الأخوّة. طفت ذكرياته إلى الســـطح، وازدادت رعشة يديه فضّمهما وحشرهما بين فخذيه، وازدادت حركة جذعـــه العلوي رتابة وسرعة. ذكريات لا يحق لهـــا العـــودة إلى الحاضـــر.. ذكريات أليمة، لا يحق لها أن تحيا من جديد.. كُتِب لها أن تُدْفن إلى الأبد في طيّ النسيان.

-6-

بخطواتها المتّزنة واهتزازة وِركها الخفيفة، شقّت سعاد طريقها عبر الممرّ الممتد إلى جناح أمراض الدم. زاغت الأبصار وثبتت الأنظار على صاحبة الشال الحريري، لفّته حول رقبتها، وكانت ترتدي معطفا مخمليا أسودَ مكلّلا بالريش الأبيض، هو آخر ما بقي لها من أَلْبِسَتِها الشتوية.

"آه ها قد اقتربت أخيرا من جناح أمراض الدم. أصحيح ما قاله الطبيب عن حالة أخي الحرجة؟ أنا لست مستعدة لتقبل فراقه.. أنا لا أملك أحدا غيره، إنْ ذهب هو فلن أبقى كما كنت.. أنا لم أعد سعاد نفسها التي كانت تطمح إلى الزواج والمستقبل، بعد أن نبذني المجتمع لم يعد لي مكان هنا، ماسي ينتظر أجله كل يوم دون أن يتذمّر مرة واحدة.. لماذا لا يكلمني؟ لماذا لا يقول لي كلاما أستطيع أن أردّده حتى ألحقه إلى القبر؟ لا يريد حتى أن يعلم أين سيكون قبره، أبجانب قبر أبي هنا أم في مقبرة تيزي وزو رفقة أخوالي؟ كلا.. لا يجوز لي أن أسأله مثل هاته الأسئلة الآن، يحتاج للسلام والهدوء، يستحق أن يحظى بميتةٍ تليق به. المسكين.. لا يريد حتى أن يعلم أين سيكون قبره. عليّ أن أتركه مرتاحا من مشاغل الدنيا. أنا لست أختا له، لا أستحق أن أكون أختك يا ماسينيسا المسكين.. أنا عار على العائلة، وما كان عليّ أن آتي إلى هنا من البداية. كيف سأقابل أخي بعد تلك الليلة؟

ليس عندي ما أقوله لأواسيه، فأنا يائسة بنفسي ومشـــمئزة مـــن أفعالي الشنيعة. أشمئز من الرائحة التي مازالت تلتصق بجسمي بعد تلك الليلة الطويلة.. لا أستحق أن أعيش، لا يحق لي أن أفكّـــر في الحياة، فهي لا تليق بأمثالنا. أخي في المستشفى يحتضر، وأمي عاملة نظافة في بيوت الناس، وأنا.. ولكن ما باليد حيلة، أنـــا.. كنـــت سأبيت في العراء لو لم أفعل ذلك، زليخة رأت أنّه من الأفضـــل لي أن أقبل فكرها، زليخة قالت أن فكرة المبيت في العـــراء قاســـية، وبيتها ذو الغرفتين سيوفّر عليّ عناء البرد والجوع. إنها سخية على الرغم من كل ما يقوله الناس عنها، ولكن ماذا سأقول لأمي؟ بعد أن أصبحت متسوّلة هي الأخرى ها هي ابنتها الآن تمتهن الـــ... لا.. لا يمكن التفكير في مثل هذا الآن..

ها هي غرفة أخي، أنا الآن أقترب من غرفة حسين وماســـي، وعليّ أن أنفض رأسي من هذه الأفكار.. لا.. لا.. لا يمكن التفكير في مثل هذا الأمر الآن. لماذا يقسو على نفسه بهذه الطريقـــة؟ إنهـــا قسوة لا تعادلها إلا رقّته، رقّة قلبه وتعاسة حظه معا ســـتحطمانه لا شك إن استمر الأمر على حاله. لا.. لا يمكن التفكير في مثل هـــذا الآن.. كنت سأبيت في العراء.. كنت سأبيت في العراء لو لم أفعـــل ذلك، كنت سأبيت في العراء.. زليخة احتضنتني وآوتني في بيتـــها، ليس كابنة طبعا وإنما كعاهرة، ومن يقدّم شيئا بدون مقابل؟ لا أحد سوى أنت يا سعاد، أنت فقط من تحبين دون مقابل وتـــأملين دون رجاء.. ها هو ماسي على وشك الموت وأنتِ تضحّين بكل شـــيء من أجله.. لا.. لا يمكن التفكير في هذا الآن.. ها هو ماسي متمدّد بهدوء وساكن كجثة هامدة تقريبا.".

ارتفع وَجيبُ قلبها وهي تتخطّى عتبة الغرفة. تساءلتْ عن سبب ارتباكها الطارئ، أيكون أخوها هو السبب؟ ولكنها أحسّت فجأة بسخونة وجنتيها وهي تتخطّى سرير حسين. تلاقت عيناها مع تلك العينين اللتين تجمعان الحزن والأمل معا.. ذلك التعبير الصافي، نداء بريء وخفي لكنه جريء. فقط تركت عينيها تنزلقان على جسده الهزيل وتوغّلت في ملامحه، وأحسّت بسخونة وجنتيْها تحت نظراته الملتهبة. اضطرّها الخجل إلى أن تلتفت نحو ماسينيسا. أحس حسين بالألم في صدره وهي تمرّ أمامه رشيقة هادئة تحيط بها هالة ربات الإغريق القدامى. كانت تحس بنفسها مفعمة بالأنوثة والسحر والشوق الآسر. وقفت بجانب ماسي تنظر إليه بنصف نظرة. ماسينيسا الذي يبدو مثل نبتة سرخس ذابلة، شاحب الوجه محفور الملامح، تختبئ داخلها ظلال لنتوء عظامه.

- هل أنت بخير ماسي؟

فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها ورقتين من فئة الألف دينار، ثم وضعتها تحت وسادته. كانت تكلّم شخصا غير أخيها، فماسينيسا بدا هادئا بعمق الكهوف، إن ناديته عاد إليك نداؤك كصدى الكهوف. عدلّت الغطاءِ المنحسر عن صدره شديد الضمور. غطست في نظرات حسين عندما التفتت فجأة وكأنّها تريد الاستنجاد بأحد ما. وجدته غارقا في الصمت ويغمرها بنظرات تحمل من المعاني ما لا تطيقه الكلمات كلها. تركت عينيها مصوبتين نحوه، وارتعشت شفتاها وكأنها تريد أن تبوح بسرها قبل البدء بالنحيب. تريد أن تحمي نفسها من قساوة ذلك المصير الذي ينتظرها عن قريب، تريد منقذا يأخذ بيدها إلى الحياة من جديد. تريد أن تحيا باطمئنان ولو بهذه النظرة التي تخترق روحها الآن.

- من أين أتيْتِ بالمال؟

سأل ماسينيسا بصوت واه أتى مُكمِّلا لصورة اليأس التي رسمها وجهه.

- تخلّصنا من الأثاث الذي لم نعد في حاجة إليه.

رفع عينيْه نحوها بتفحّص، ثم أطبق جفنيه وارتفع صدره ثم انخفض:

- أين أمي؟

- لا تقلق، أمي بخير.. ستأتي بعد قليل.

شيء جعلها تحسّ أن الجميع غارق في الكآبة، وأنّ هناك مؤامرة تُحاك حولها في هذه الغرفة، التفتت إلى حسين ثم إلى دحّو وأخيرا استقر نظرها على ماسينيسا.

- هل تحسّنت قليلا؟

"كيف طرحتُ عليه هذا السؤال؟ ألا أرى بعيني ما آلت إليه صحته؟ ألا يكفي أن أسمع حشرجة صدره لأعرف أنّ أخي يودع الحياة؟ آه ما أغباني! ما كان يجدر بي أن أفتح فمي أصلا. كم أنا غبية، إنه لم يستطع حتى أن يفتح فمه ليجيب عن سؤالي وأنا أقف هنا انتظر الجواب.. سامحني ماسي.. سامح أختك الغبية.. أختك التي استغلها الجميع، اختك كالنهر لا ينضب مَعِينها من العطاء.. الكل يشرب ولا أفنى.. الكل يا ماسي.. الكل...".

- هل أنت بخير؟

التفتت بكامل كيانها نحو حسين، وقد وقع كلامه من نفسها موقع الماء من ذي الغلة الصادي، فانفرجت انقباضات وجهها وارتخت أعصابها بشكل تلقائي.

- قليلا.. يبدو منهكا ها؟
- نعم، إنه مستسلم للقدر..

جالت بنظرها متفحّصة أركان الغرفة، وبسطت كفّيها أمامها في وضعية مومياء. كانت هي الشيء الوحيد الذي يشعّ حيوية في تلك الغرفة المنكوبة. كان ماسي خارج نطاق التفكير سارحا بفكره في عالم آخر. انكمش أنفها الصغير وبانت تجعّدات جبهتها فجأة، عضّت شفتها العليا واستدارت مغمضة عينيها الدامعتين لتفرّ من التعبير المؤلم على وجه أخيها.

"إنها فرصتي الوحيدة المتبقية من هذا العمر.. عليّ أن أكلّمها الآن وإلا ستفلت من بين يدي إلى الأبد.. الحياة فرص.. وهذه آخر فرصي فيها.. كم هي جميلة! وكم هي رائعة حين تترقرق عيناها بالدموع! حتى الحزن يخجل من أن يضع لمسة غير لائقة على وجهها الجميل.. آه هل أنا خائف مرة أخرى؟ هل أرتجف حقيقة أم أني أفقد السيطرة على أعصابي؟ مهما يكن لا يجب أن تفلت من بين يدي، إنها فرصتي الوحيدة وعليّ أن أقتنصها.. عليّ أن أكلمها لأن هذا لم يعد محتملا.. يجب أن أستوضح معها الأمور؛ لأنّ الأفكار داخل رأسي أصبحت سريعة ومربكة، وأنا أجلس هنا هادئا كالصخرة الصماء بينما صدري يكاد ينفجر من قوة الخفقان، من قال أنّ الرجُل لا يحمل إلا قلبا واحدا فقط؟ لي ثلاثة قلوب؛ قلب يضخ الدماء، وقلب يتأمّل الحياة ويتعاطف مع المخلوقات، وقلب آخر عنيد ومتقلّب يعشق الجمال في المرأة التي تملكه لوحدها. ماذا عساها أن تقول لي حين أسألها؟ وعن ماذا أسألها؟ وما الذي سأقوله أصلا لأفكّر في إجابة مسبقة منها؟ يا لي

من ثرثار عنيد محب للخيال! لو كنت في إحدى قصص ألف ليلة وليلة لكان الأمر سهلا، أمسح على المصباح ويخرج الجنّيّ وأطلب منه كل ما في قلبي، ولكن لي ثلاثة قلوب.. أيّها سأتبع؟ لو اطّلعت على ما يجري في مخيلتي الآن لما وقفتْ أمامي دقيقة، ولكنه يدعى الخيال، أيّ شيء لا يمكن أن نحاكمه بالمنطق ولا يمكن محاسبته، لهذا دائما يلجأ الإنسان في اليأس إلى الخيال.. الخيال هو الملاذ الوحيد للبشرية.. هو بوابة الأمل. وأنا الذي لا ينقصني الخيال دائما ما أنسى نفسي في تفاصيل خادشة للحياة.. هل هي تنظر نحوي الآن؟ نعم، لقد رأيتها تلتفت نحوي خلسة وكأنها تود قول شيء ما، ولكنها منهمكة مع ماسي المسكين، هل يمكن أنها فهمت ما يدور في رأسي من خلال النظرات فقط؟ يقول معظم الكتّاب أن العاشقيْن يفهمان بعضهما البعض من خلال تبادل الألحاظ، ولكني أشكّ أنها ستفهم ما يدور في رأسي، حتى الشيطان نفسه سيتيه بين أفكاري. هل هي تنظر نحوي الآن؟ لقد رأيتها تلتفت خلسة.. عليّ أن أكلّمها لأن هذا لم يعد محتملا.. ولكن ما عساي أقول لها؟ هل أفصح عن تخيلاتي؟ لا.. لا.. ستكون النهاية، كيف يمكن أن أقول لها كل ما يدور داخل رأسي؟ إنها لن تقبل هذا أبدا.. لن تقبل أن تسمع أنّي رأيتها ترتدي ملابس داخلية مثيرة من الدنتيلا وهي تميل إلى يسراها، واضعة يدها فوق خصرها والأخرى أمام شفتيها القرمزيتين تنظر إليّ بإشفاق، تُحَرِّك شفتيها الممتلئتين وتفتح يديها لتضمّني إليها، "تعال يا حسيييين" طبعت قبلة على فمي ثم سألتني، هل هذا كاف؟ فقلت أنا لا.. عندها انحنت عليّ أكثر.. لا.. عليّ أن أتوقّف الآن، فما حدث بعد ذلك

لا يمكن أن أُعِيد تخيّله لأنّ عضوي بدأ يرتفع مرة أخرى، الخيمة بدأت تنصب نفسها أمامي وعليّ أن أكف عن التفكير في المشهد الذي تلى ذلك.. يا إلهي! لماذا كل هذه الأفكار الآن؟ كل ما عليّ فعله هو أن أتّجه إلى الرواق وأنتظر فراغها مع ماسي. ما لي أكلّم نفسي بهذه السخافة عِوض أن أهزّ مؤخرتي المتيبّسة وأنهض من هذا الفراش؟ أخخخ صدري.. عليّ أن أحذر أكثر، كل عشرة ستأتي معها دفقة ألم قوية.. لقد مضى على تواجدها أكثر من ساعة وهي تحزم أغراض أخيها الآن، سأنتظرها هناك، أخخ صدري.. عليّ أن أنتبه لخطواتي أكثر. كل هذا بسبب الارتباك.. ها هي تخرج من الغرفة أخيرا.. عليّ أن أنزع تلك الأفكار من رأسي الآن.. ها هي قادمة نحوي، إنها ترتعش تحت تأثير دموعها، آه ما أجملها! قلبي لا يحتمل كل هذا دفعة واحدة.

حين خرجت سعاد من الغرفة مُغادِرة لمحت حسين يقف بصعوبة في الرواق، يستند بذراعه على إطار النافذة المطلّة على الحديقة. غمرته بنظرة متألّقة وكأنها كانت في انتظاره. للمرة الثانية عجز عن الكلام. أشاح ببصره نحو الأشجار في الخارج، وراقب في تلك اللحظة أغصانها تتهادى بين هبات الرياح وتأثير الجاذبية.

- هل تفضّلين الشتاء أم الصيف؟

"ماذا؟ شتاء أم صيف؟ يا لي من أحمق! ما هذا السؤال الطفولي؟ لابد أنها ستضحك.. نعم.. نعم.. ها هي تبتسم، إنها تسخر مني سرا ولا تستطيع كبح ابتسامتها القاتلة، إنها تبتسم فقط يا رجل، وما عليك إلا أن تمطّ شفتيك وتظهر أسنانك الأمامية.".

سؤال كهذا لم يكن ليخطر على بالها، ولكنها ابتسمت رغم دموعها التي رطّبت وجنتيها:

- أحب الربيع لأنه معتدل، لا حر ولا برد..
- قبل الآن كنت أفضّل الصيف، ولكني الآن صرت أحب الخريف.

صمت حسين وترك عينيه البنيتين تسرحان في وجهها المشع بالدموع. ثم أردف يقول:

- أتدرين لماذا أحببت الخريف؟

وضعت سعاد تعبيرا جميلا بحركة من رأسها، ومسحت أنفها الصغير والمحمرّ طرفه بمنديل ورقي:

- لماذا؟
- تبدين جميلة وأنت ترتدين هذا الشال والمعطف الأسود.. لن أرى منظرا كهذا في فصل آخر، كما أنّ الخريف هو فصل تجدد الحياة وبداية التغيير.

مسحت دموعها بطرف ردائها، وبدت من خلال النافذة والمنظر من خلفها كلوحة رسام أرهق روحه وعصر ريشته ليخرج هذه التحفة إلى عالم المحسوسات. كمْ تملّى النظر إليها وكم تمنى لو قال أكثر مما قال. ظهرت شبه الابتسامة مجدّدا وكأنها تتحدّى مزاجها العكر والسيئ لتفصح عن شيء آخر يعتمل بداخلها، ولكن بريق عينيها لم يترك مجالا للشك في طبيعة مشاعرها.

كانت تضع أصابعها داخل ياقتها، فجذبت الشال وأخذت تداعبه بأصابعها الرقيقة. ظهرت في تلك الأثناء امرأة رفقة رجل ملتحٍ كانا يقتربان من حسين، يسبقهما صدى خطواتهما في الأرجاء

وكأنهما يحملان أمرا مهما، وميّز حسين فيهما أحمد ونوال. توقّفت نوال أمامهما لحظة بنظراتها المستفسرة ثم حدّقت في سعاد مطـــوّلا. وارتبكت هذه الأخيرة بشدة تحت تأثير نظراتها المباشـــرة، احمـــرّت وجنتاها واختلجت شفتاها وكادت تفرّ من شدة الحياء.

- مساء الخير سيدتي.

نظر حسين إلى أحمد وقد لاحظ ارتباكه.

- مساء الخير.. آنسة كيف حالك؟

طغى الألم على فؤاد سعاد فلم تستطع أن تنظر إلى وجه أختـــه أكثر مما فعلت. داعبت شالها المصنوع من القطـــن النـــاعم بيـــدين متوتّرتين ومهدّت لانسحابها.

- بخير، شكرا لك.

وقفت ببدنها المشدود يسبقها صدرها الناهد ونظرتها الخجولـــة إلى نوال:

- اعذروني.. سأذهب الآن، أتمنى لكم يوما جميلا.

كان لتمنّيها يوما جميلا بالفرنسية وقعٌ جميلا على السمع، راقبها حسين بعينين قلقتين وفمه متحفّز لقول أشياء أراد البوح بها، ولكنـــه عوض ذلك لعن أخاه بصوت غير مسموع. راقبها مبتعدة في حضرة إخوته. سدّدت نوال نظرة شرسة على مؤخّرتهـــا ذات الانحنـــاءات المثالية وانسياب جسدها وتناسقه، ولم يطل بها ذلك الإحساس حتى تحوّل إلى غيرة طاغية؛ عندما مرّرت كفيها على جانبـــي خصريها ثم تحسست بطنها بطريقة خفية. توجّهت نحو حسين بنظرة متســـائلة ولكن حسين استغرق في النظر إلى خارج النافذة.

- هل ندخل أم نظل هنا واقفين أمام المارّة؟

رفع أحمد حاجبه الكثيف، وحاول أن يومئ لنوال برفع زاوية فمه الواسع كتعبير لها عن غرابة سلوك حسين، الذي كان شارد الذهن في تلك اللحظة. كانت الغرفة مكتظّة بالزائرين حين عاد حسين رفقة أخويه إلى الغرفة، فوجد نفس الأشخاص الذين رآهم قبل اليوم يحفّون حول سرير دحّو، الذي بدا مستغرقا في أحلام يقظته. يظهرون من خلال ملابسهم وطريقة كلامهم أنهم من البدو.

- تبدو بصحة جيدة هذا اليوم.

سأل أحمد بنبرة مفعمة بالثقة.

- نعم، هذا صحيح، فلون وجهك عاد إلى طبيعته الآن.. فقبل يومين بدوت شاحبا كالموتى.

"إنه لون الشبق يا ابنة الأم، إنه لون الرغبة الملحّة، إنه التنور يريد أن يفور. أما الصحة فقد خلفتها لك أيها البغل. لك بدن بغل كهذا وتقول لي أني بصحة جيدة؟ وأنت ماذا تكون إذا كنت أنا صحيح البدن يا بغل؟ عفريت؟ على الأقل احترم مشاعري كمريض وتوقّف عن عقد ذراعيك القويتين أمامي. أعلم أنّ أمي اختارتك أنت وغمرتك بكامل حبّها وأنا لم أمانع في ذلك، إذ ليس من حقي أن أطالب بشيء ليس في متناول اليد، أحبّتكما أكثر ممّا أحبّتني، ولكني كنت الأقرب إليها منكما.. كلاكما انصرف إلى مشاغل حياته الخاصة، وحدي من تكفّل بعنايتها، وحدي من سهر الليالي، ولكنها في الأخير فضّلتك أنت، أرادتك دائما بقربها، أمّا أنا فخطؤها الوحيد في حياتها.. لم أجلب للعائلة إلا المشاكل والمصائب".

- إذن من تلك الفتاة التي كانت معك هناك؟

انفرجت شفتا حسين قبل أن يطبخ رأسه إجابة ملائمة:

- من؟ آه تقصدين تلك.. تدعى سعاد، وهي أخت هذا الشخص المستلقي هناك.

هزّت رأسها بطريقة لولبية وكأنها تقول: (لقد عرفت سرك ولا طائل من تضليلي ببراءتك المزيفة). شغل أحمد نفسه بترتيب الأواني الفارغة وإعادتها إلى داخل القفّة بعد أن وضع الطعام على سطح المنضدة.

- يبدو مريضا جدا.

وضعت نوال يدا على خصرها والأخرى تحت ذقنها، وراحت تتحسّس بشرتها البيضاء بأناملها مستغرقة في تأمل الفتى وسط الغرفة. التفت حسين إلى ماسي ثم أجاب دون أن يسترد نظره:

- المسكين حالته حرجة وهو هنا قبل دخولي بفترة.
- أتمنى له الشفاء، والآخر؟
- حالته لا تدعو للقلق على ما أظن.

تحسست نوال رقبتها بأناملها الرقيقة ثم التفتت نحو أحمد، غضّت بصرها مطرقة إلى الأرض تراقب حركة قدمها التي تضرب الأرض بثبات وهدوء. تعمّد حسين أن ينقل دفّة الحديث إلى موضوع آخر.. ومضت الدقائق والثواني دون أن ينقضي وقت طويل أو يتغيّر شيء ما داخل الغرفة التي أصبحت هادئة فجأة. هدوء ثقيل يمهّد لشيء قادم لن تفصح عنه إلا الدقائق القليلة المقبلة. نظر أحمد إلى ساعة معصمه وعقد ما بين حاجبيه مركّزا على المؤشّر الدقيق للساعة:

- علينا أن نغادر الآن، وقت الزيارة انتهى وسيغضب البواب لأنه سمح لنا بالدخول في غير موعد الزيارة.

وافقت نوال بإيماءة من رأسها وهي تحدق إلى الفراغ:

- اِذهب وسألحق بك.. أمهلني دقيقتين لأرتّب الأواني.

عندما خلت الغرفة من الزائرين وقفت نوال بجانب حسين صامتة، تتظاهر بترتيب ما هو مرتب أصلا ولكن في هدوء غير اعتيادي، قامت بحركة متوتّرة لتعيد ضبط خمارها المنحسر عن شعر أصفر يميل إلى الأبيض:

- أريد أن أقول لك أمرا حسين.
- ما هو؟
- في الحقيقة.. أنا.. لن أرجع إلى كندا هذا الشهر، سأمكث هنا لمدة شهرين إضافيين.
- وزوجك وعملك؟ ألست حاضنة أطفال هناك؟ هل يسمحون لك بعطلة كهذه في كندا؟
- لا.. لم أعد أعيش معه هناك.. إنها أمور معقّدة يا حسين ولا أحد يستطيع أن يفهم شعوري كما تفعل أنت، لذلك أردت إخبارك بذلك من قبل وكنت متردّدة، لم أرد أن أشغل بالك بمشاكلي الخاصة وأنت في هذه الحالة، كنت أنتظر حتى تتعافى ولكن...

بدأت الدموع تتساقط من عينيها بهدوء، وحاولت التحكم في انفعالها بجهد جهيد، ازدرت ريقها ثم واصلت:

- أمي وحدها من تعلم بالأمر، أمّا أحمد فيعارض فكرة ذهابي وحيدة بدون محرم.. وأنت تعرف تفكيره المتشدّد، لذلك أردت أن أقول لك أنني تطلّقت منذ خمسة أشهر بعد نزاع دام معه لسنوات. في الحقيقة ارتكبت غلطة

حياتي بالذهاب معه، لم أنصت لكلامك حين نبّهتني.. لم أعرف ما عليّ فعله آنذاك، كنت أحلم بعالم مثالي، كم كنت غبية وأنانية...

تناولت من محفظتها منديلا ومسحت به أنفها المستقيم ووجنتيها البارزتين، لعقت شفتيها المحمرتين ثم نظرت نحو حسين الذي أصغى لحديثها بوقار:

- لقد ضاع عمري منّي وأنا أعيش وحيدة من دون عائلة تقريبا.. حسين كل هذا الكلام أقوله لك الآن ليس وقته، ولكنك أخي ولا أستطيع أن أفعل شيئا من دون أن آخذ برأيك، لذلك قررت أن أُسِرّ إليك بالأمر...

توقّفت لحظة تضع كفيها المتشابكين أمام خصرها وتنتظر مبادرة منه.

- لا بأس، يمكنك أن تقولي ما الذي يشغل بالك الآن؟
- أحدهم يريد خطبتي، وهو يعرف عائلتنا جيدا، إنه رجل طيب.
- من هو؟
- حمزة.
- حمزة صديقي؟.. تقصدين حمزة؟!

تفرّس في ملامحها بعينين جاحظتين، تحرّكت خلال ذلك رموشها الثقيلة لتُسْقِط ظلا خفيفا على وجنتيها الورديتين:

- طلب منّي ذلك قبل يومين وأردت معرفة رأيك أولا قبل أن أعطيه الجواب النهائي.
- وأمي؟ ما رأيها في الموضوع؟

عند سماعها لكلمة أمي اهتزّت جبهتها، وانكمش الجلد حول أنفها، ثم زمت شفتيها لتزدرد كلمة أرادت لها أن تظل حبيسة صدرها:

- أمي لن تعارض إن كنت موافقا.
- أنا؟ أكيد.. حمزة أعز أصدقائي ويسعدني ذلك، ولكن لماذا لم يقل لي هو ذلك بنفسه؟
- لا تلمه يا حسين، حتى أنا كابدت حرجا كبيرا من أجل إخبارك بالأمر، لابد أنه خجل بحكم الصداقة التي تجمعكما، وهو نفسه من طلب منّي أن أسألك أنت أولا.

علت على وجه حسين ابتسامة طفيفة، ولكن بريق عينيه ظلّ ثابتا وارتفع حاجباه سنتمرا إلى أعلى، ثم انتقلت تلك البسمة إلى نوال التي احمرّت خجلا.

- أنا موافق، وسألومه لأنه لم يأت إليّ مباشرة.

انشقّت ملامحها عن ابتسامة تليق بمراهقة، وفي تلك الأثناء أطلّ من باب الغرفة ممرض بوجه صارم.

- سيدتي، انتهى وقت الزيارة.
- آسفة، سأغادر الآن.

التفتت نحو حسين ورأت خيال ابتسامة على وجهه، ثم توارت وراء الباب واستنشقت نفسا عميقا أشعرها بالسرور والحرية لأول مرّة منذ سنوات.

-7-

مالت الشمس في الأفق وتراكمت سحبٌ ثِقال في سماء نوفمبر منذرة بيوم ماطر. وكتحية أخيرة من ذلك اليوم الكئيب تسلّل شعاعٌ من الشمس مخترقا السحب الداكنة لتصنع لنفسها ممرا سماويا، تعْرُجُ منه الملائكة بأجنحتها كما صوّرها اللاهوتيون في العصور الوسطى. لم يدم ذلك طويلا، فقد تعانقت السحب مع بعضها أكثر وانسدّت تلك البوابة السماوية، ثم طغى اللون الرمادي على المشهد بأكمله.

اكتنف الغرفة هدوء عميق أشبه بالخدر الذي يسبق حالة النوم. بصعوبة وبعد تفكير طويل قرّرتْ أخيرا أن تقوم بواجبها نحو ماسينيسا. تقدمت آمال خطوة إلى الأمام، ثم توقّفت لحظة لكي تتأكّد من أنها فعلا داخل الغرفة التي ينزل فيها ماسي، لمحته عن قرب راقدا بهدوء عجيب. تقدّمت نحوه بخطوات متعرّجة وهادئة خشية أن توقظ الآخرين. لمّا وقفت أخيرا أمام سريره حاولت أن تستجمع شجاعتها وتلملم أفكارها.

"**إنها فرصتي الأخيرة لأخلص نفسي، فالوضع لم يعد محتملا هكذا، ولا أستطيع الاستمرار على الصمت أكثر مما فعلت. هل سيسمع ما أودّ قوله أم أنه سيرفض تماما؟ لا.. فلابد أن يكون على علم بما حدث بيني وبين رضوان هناك، زميله هذا رأى كل شيء ولابد أن يكون على علم بما حدث بيني وبين رضوان. كيف سينظر إليّ بعد كل ذلك؟ على كل حال لن أخسر شيئا بقول ما**

أريد قوله الآن، لست هنا لأبرّر له موقفي أو لأكسب عطفه عليّ، وإنما للحفاظ على الاحترام بيننا. جمع بيننا حبّ طفولي وانتهى كل شيء الآن، كل شيء تغيّر فكيف لا أتغيّر أنا؟ لا أستطيع أن أكون نفسها آمال التي كنتها قبل عشر سنوات.. كثير من الأمور تغيّرت وحوّلها الزمن إلى ألوان مختلفة. حاولت تفادي كل هذا من البداية ولكنه لم يفهم معنى عزوفي عن ملاقاته. لقد تمسّك بأوهامه وحاك منها قصة لغرامه، وأنا لست مذنبة إن عشت بقية حياتي كما أردتها لنفسي. كيف يمكن لنا أن نجتمع كزوجين ولم يفكّر في الفوارق التي بيننا؟ هو دخل السجن وأنا نجحت في دراستي، هو عاطل عن العمل وأنا ممرّضة، ثم أنا بكامل صحتي وهو الآن ممدّد على الفراش لا يقوى على تحريك يديه. أحتاج لرجل كامل وهذا من حقي، ولست امرأة حقيرة كما يعتقد البعض، كما لست أنانية.. أنا منطقية وموضوعية، أتلمّس الحقيقة المرّة وأحوّلها إلى صالحي. أنا لا أغذّي الأوهام مثلما فعل هو وليسامحني الرب إذ لم أكن مثله تماما، وهذا ما ليس بيدي. إذا لن يضيره بعد الآن اختفائي من حياته. حقيقة أنه رجل طيب، صحيح أنه أحبني بإخلاص يوم كنا نعيش حياة غير مسؤولة، كل شيء تغيّر منذ ذلك الوقت.. وكيف لا يريد لآمال أن تتغير؟ كنا كعشيقين مزيّفين ولكنه لم يستطِع إسعادي، وبدوري أنا فاقدة للسعادة لا أستطيع أن أقدم له شيئا. إذن من الخير لكلينا أن يبتعد عن الآخر، ولكن بشرط أن يبقى الاحترام هو من يجمعنا. إنه جزء من ماضيّ السعيد ولا أستطيع أن أبعده من رأسي بالكامل، هل أنا مخطئة في شعوري؟ هل يمكن أن أكون شقية بدونه؟ ولكن.. ها أنا أنظر إليه

عن قرب ولا.. ولكن ماذا سأقول له بالضبط عنـدما يسـتيقظ؟ كيف سينظر إليّ بعد كل ما حدث؟ ها هو أمامي ينام بعمق ويحلم بامرأة أخرى ولا يعلم أنني أقف على بعد شبر منه.. لا أسـتطيع الصمت أكثر من هذا وعليّ أن أخبره بالحقيقة.. ولكن مـا هـي الحقيقة يا ترى؟ وما هذا الشعور الطارئ الذي ينتابني الآن؟ إنـه يختلف تماما عما أحسسته من قبل؟ قوّتي تخور وأنا أقـف أمامـه الآن.. هل هي أحاسيس قديمة بدأت في الظهور مجددا وبعد كـل تلك السنوات؟ هل يمكن أن يخفق قلبـي في هذه اللحظة بـدون سبب؟ لا.. لا.. هناك سبب لكل هذا. لم أعد أحتمل أكثـر ممّـا احتملت.. لم أعد أحتمل الشعور بالذنب، ولست أنا من عليها أن تتحمّل المسؤولية إنْ أصابه مكروه.. ولكني كنت أكـذب علـى نفسي دائما.. أكذب على نفسي وهو يعرف أني كذلك. ولكن ما به لا يتنفس؟ عليّ أن أقترب منه أكثر لأتأكد.. شـفتاه تشـقّقتا بفعل الجفاف وفقدتا لونها الأصلي، ولون محجريْه قاتم كدُبٍّ باندا، وأنفه.. أنفه يبدو أنه انكمش قليلا عن حجمه الطبيعي.. يا إلهـي يبدو ميتا! هل هذا ممكن؟ عليّ أن أتأكد.. عليّ أن أوقظه بنفسـي لأنّ قلبـي لا يرتاح لهذا الموقف.. لا.. لا يجب أن يكون ميتـا.. عليه أن يسامحني أولا.. ما به لا يريد أن يسـتيقظ مـن نومـه؟! سأحرّك كتفه بقوّة لأوقظه من النوم وليسامحني بعـدها، ماسـي.. اِستيقظ.. رباه؟ أيمكن؟ لا.. لا.. أنا ممرّضة ويمكن أن أعـرف إن كان ميتا أو حيا.. آه.. عروقه خامدة ولا نـبض.. لا نـبض في عروقه.. لقد جفّ جسمه من الروح، لقد غادر دون أن يسـمع كلمة مني.. آه.. لقد غادر دون أن أقول أني كنت أحبّـه فعـلا،

دون أن يرى دموع التوبة على وجنتي، لقد غادر دون أن يسامحني.. لا.. لا.. يبدو أنني أهذي، عليّ أن أوقظه من النوم حالا.. لم يمت بعد، لم يفت الأوان، إنه يتظاهر بالنوم وعليّ أن أعنّفه عندما يستيقظ، سألومه على هذه الخدعة التي خطفت قلبي.. ماسي.. ماسي.. اِنهض ماسي، أعلم أنك.. لا...".

ألقت نظرة متمعّنة على زميليْه النائمين في شبه صمم تام بعد صراخها الحاد الذي اخترق المكان، تلى ذلك وقع أقدام سريعة تضرب الأرض بعنف متّجهة نحو مصدر الصراخ. في أقلّ من دقيقة كان يقف داخل الغرفة ممرّضان والطبيب المناوب. سألها أحدهم عن السبب ولكن بقيت مشدوهة، تمتلئ عيناها رعبا وهي تحدّق إلى ماسينيسا. امتلأت عيناها بالدموع و لم تستطع أن تنطق بحرف، انعقد لسانها، وشُلّت حركتها، وظلّت ثابتة تراقب انحناءة الطبيب على ماسينيسا الذي أعلن وفاته في تلك اللحظة، وأمر الممرضين بإخراجه من الغرفة. ملأت عينيها سحابة من الدموع، وعندما أطرفت الجفنين انسابت دمعتان حارتان وسقطت إحداهما على أصبع رجليها.

استيقظ حسين فزعا. شيء ما أيقظه من النوم لم يكن يدري ما هو. أكان حلما عابرا أم صوتًا حقيقيًّا انبثق من الواقع. أوّل ما رأى كانت آمال وهي تحاول أن تسدّ فمها بكفّها، ثم لمح وراء كتفها دحّو جالسا في وضعية غريبة، يحدّق إلى الحائط ويتأرجح نصفه العلوي بحركة منتظمة، يغطي أذنيه بكلتا يديه، كمن يحاول أن يمنع صوتا حادا من اختراق طبلة أذنيه.. كان يتمتم بكلمات مبهمة وغامضة، وبدا مرتعبا من صورة لا يراها إلا هو. حدّق حسين مبهوتا في الفتاة المرتعبة التي تسمرت عيناها الجاحظتان على جثة

ماسينيسا. ارتفع وجيب قلبه بسرعة قصوى مع غرابة ما كان يحدث حوله. نزع الغطاء الثّقيل عن جسمه وأحسّ بقفصه الصدري يضيق بقلبه الهائج. حرّك القضيب المعدني معه نحو سرير ماسينيسا وحـــاول إيجاد سبب مقنع لما يحدث، ولكن تفكيره انقطع حين سمـــع وقـــع خطوات ثقيلة تجتاح الغرفة وتجلجل المكان بقوة، وكـــأنهم يشـــنّون غارة عسكرية على المكان. لسبب غير مفهوم ارتعدت ركبتاه فجأة، وتجمّد الدم في عروقه محاولا إيهام نفسه بـــأنّ ماســـي يعـــاني مـــن اضطراب ما، وفي أسوأ الأحوال أغمي عليه من أثر المرض. ولكـــن هل كان يصدق ما أراد هو تصديقه؟ تمنى هذه المرة أن يكون مخطئـــا في ظنونه. فرّ الدم من وجهه، وشحب لون وجهه عندما اقترب أكثر من السرير وأطلّ بعينيه اللتين تدلّتا لدى رؤية صديقه يرقـــد براحـــة أبدية لا مثيل لها. لم تعد رجلاه قادرتين على حمله أكثر من ذلـــك. رأى جسما ممدّدا على السرير بطريقة هادئة، أطراف رخوة تتّصـــل بجسم هزيل، وتتقاطع رجلاه كأنّهما ترسمان حبلا ملفوفا، ويســـبح الجسم في كومة الأغطية التي تداخلت فيما بينها. خذلته قواه وانهـــار تماما على القضيب المعدني، تجمّدت ملامحه المرتعبة غير مصـــدق أن ذلك يمكن أن يحدث: "هل فعلها المجنون إذا؟ هل مات دون ســـابق إنذار؟ دون أن يقول كلمته الأخيرة؟ مات و لم يودعنا، مات صـــامتا وسيظلّ كذلك إلى الأبد. ولماذا؟ لماذا؟". كان يشدّ بيـــده الأخـــرى على منضدة ماسينيسا فابتعد عنها ورأسه يدور لشدة الانفعـــالات. طلب منه الممرّضون عدة مرات الرجوع إلى مكانه دون أن يســـتطيع سماع شيء. عندما نقلوه إلى سرير متحرّك ابتعدت آمال، ورافقهـــا أحدهم وهي تضع وجهها بين أحضان تلك الممرّضة البدينة. بعد أن

مضى كل ذلك سريعا جلس حسين على سرير ماسي، ورأى لأول مرة العمود الفضّي يتدلّى فوق كيس المصل الفارغ تقريبا، أمّا الإبرة في نهاية الأنبوب فلا تزال بها آثار دمائه. طفرت الدموع من مُقلتيْه و لم تكن بَعْدُ نتيجة للحزن لأنه مازال تحت تأثير الصدمة. "**هل من العدل أن يُجرّدَ فتى كهذا من كل سبل الحياة؟ الحقيقة أن كل معنى يزول مع انتهاء الحياة.. كل شيء في هذه الحياة اللعينة يتداعى أمامي.. هل الموت مباغت لهذه الدرجة؟ ألا يكفي ما يسبّبه من أحزان، ألا يكفي أن يخطف ضحاياه أثناء النوم؟ إنّ الموت فعلا لجبان، نعم إنه جبان لأنه يصطاد الضعفاء والفقراء. إنه يصيد طرائده التي هي سهلة المنال، الضحية التي لم يُسْعِفها الحظ. كذلك الحظ لعين.. تبًّا.. كل ما في هذه الحياة لعين.. لماذا كل من يحيطون بي يغادرون الحياة دون وداع؟ إلى أين تفرّ هذه الأرواح المعذّبة؟ إلى الجنة أم إلى النار؟ أم أنها تتحوّل إلى تراب لعين؟ تراب ندوسه بلا مبالاة ونبزق عليه بحنق.. آه ما أسخف هذه الحياة! إنها قاسية بخداعها وصرامتها، عابثة بسخريتها وطيشها. ماذا سيقول لله إنْ وجده هناك؟ يا رب، أردت أن أعيش حياة صالحة وأفعل الخير مثل الأغنياء وكل الأقوياء، ولكن قوانينك الفيزيائية وشروطك البيولوجية التي وضعتها للكون كانت صارمة معي، ولم تدع لي حرية الاختيار.. يا رب، أنت راقبتني من عرشك الذي تحفّ به الملائكة وتركتني أتحلّل إلى جثة.. يا رب، قوانينك هي من أوْدت بحياتي وجعلت من موتي قرارا لا مناص عنه.**".

دار رأس حسين وهو يضع يدا على سرير ماسي الذي كان لا يزال دافئا كما تركه. جالت عيناه المبلّلتان بالدموع بين أغراض

ماسينيسا، باحثا عن معنى ما لكل ما يحدث، مفتّشا عن سبب خفيّ من المستحيل اكتشافه في هذا العالم القاسي.. ربما كان يبحث عـــن ذكرى أخيرة يتشبّث بها.. ذكرى تذكّره وتعزّيه فيما تبقّى له من أيام ينهيها على هذه الأرض. نهض نحو سريره مُوَزع النفس كاسِف البال قد وطأ الهمّ صدره. استلقى على سريره يائسا مستسلما لألمه الرابِض فوق صدره، ودهشته التي لم تفارقه، مع إحساس بهشاشـــة روحـــه. ترك الدموع تسري فوق وجهه الأصفر بصمت تتخلّلـــه شــــهقات وتنهدات عميقة وحادة. هبّت ريح باردة قويّة جعلت من الزجـــاج يتحرّك داخل إطاره الخشبـــي ويهتزّ بقوة. تكوّر على نفسه بوضعية الجنين، وكان كل ما يفكر فيه تلك اللحظة هو شـــخص واحـــد.. سعاد.. هي الشخص الوحيد الذي ملأ تفكيره وأبعد عنـــه فكـــرة الموت، لم تكن موجودة هناك، ولكن عقله استطاع أن يستحضـــر صورها البهيّة ويعْرِضَها في مخيلته، ظهرت كوردة مشرقة بين ركـــام حياته وفوضى أيّامه، وحدها مثّلت شعاع ضـــوء داخـــل جحيمـــه المظلم. بحثت عيناه في المكان بدون هدف معين، وبدأ كـــل شـــيء يتّخذ شكلا هيوليا وضبابيا. في تلك اللحظة تعالى صراخ حاد ونواح خارق يصم الآذان أتى من خارج الغرفة ناحية أسفل المبنى.

في البهو الرئيسي للمستشـــفى ارتفعـــت أصـــوات المرضـــى والزائرين، واختلطت مع الممرّضين والأطباء الذين شغلوا ذلك الحيز من المكان، أو مرّوا من هناك إلى مكان آخر. ووسط ذلك الضجيج تعالى نداء قويّ سرعان ما تلاشى بين جدران المستشـــفى. التفـــت الجميع نحو مخرج الطوارئ أين اتّجهت عربة تقلّ جثـــة مغطـــاة إلى غرفة في أقصى ركن من الرواق. كانت الشـــرطة حاضـــرة رفقـــة

الطبيب، تبادلوا بعض الكلمات، ثم أمر بأخذ الجثة إلى مصلحة حفظ الجثث ريثما يأتي الأهل. في تلك الأثناء أقبلت سعاد بجبهة متغضنة وأنف منكمش، ترتجف شفتاها باضطراب وتبحث بعينيها القلقتين عن تفسير لما تراه أمامها. رفعت بصرها المغشّى بالدموع نحو الممرّض، وقد انهمرت مدرارا على وجهها المتجمّد لتحسّ بملوحة بين شفتيها المنفرجتين. الذي رأته سعاد لم تكن دهشة لرؤية إنسان يستهلك العالم روحه وذاته ويجرّده من كل مكارمها، بل هي دهشة لفعلة غير متوقّعة وغير معتادة بالنسبة لها، فالموت في هذا المكان أصبح شيئا عاديا حتى على حساب أخطاء البشر. كانت دهشة من أناس يخشون على مناصبهم. الموت يبدأ بالدهشة ثم يأتي الحزن بعد ذلك، الحزن دائما ما يأتي متأخّرا وبعد فوات الأوان، أمّا الموت في مكان كهذا فهو شيء عادي. المرضى وحدهم من يحقّ تعزيتهم في هذه المقبرة المؤقتة. اقتربت ببطء وكأنها تخشى أنّ ما تراه حقيقة، رفعت الغطاء عن ذلك الوجه الذي لم يعد يوحي بشيء سوى الصمت والعدم. كتمت شهقة وكأنها بركانٌ تفجّر في أعماقها. حاولت ضمّ ماسينيسا إلى ذراعيها ولكنّ الممرّض قام بإبعادها بلطف. سقطت على ركبتيها تشاهد العربة التي تحمل أخاها. انحنى جذعها واستسلمت لبكائها وخيبتها، فلامس شعرها الأرض وسط أنظار الزوار وعمال المستشفى. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.. دفنت وجهها بين يديها واهتزّ جذعها بعنف. نادت باسم ماسينيسا واختنق صوتها داخل حنجرتها مستنفدا كل جهدٍ بذلته في ذلك. لامست جبهتها العاجية الأرض وأصبحت بوضعية السجود. أحسّت بيد تلامس كتفها برفق وتسحبها من مرفقها لتساعدها على

النهوض. كانت الزهرة تقف أمامها وكل عضلة من جسدها ارتعشت تحت تأثير مشاعرها القوية، ارتخت يداها وترهّلتا كعِلكة ممطوطة، قاومت شعورها بالتعب وألقت بخطواتها المثقلة بالتعب نحو ابنها، ولم تكد تصل حتى ارتمت على الجثة وانهمرت بالبكاء، وقد قاومت ذراعيْ الممرّض القويتين لإبعادها. احمرّ وجهها ونضح بالدم واختلط مخاطها بالدموع:

- ماسسيي.. ماسيييي ولدي.. اُتركوني مع ابني.. اُتركوني ولدي مات.. مات ولم يودّعني.. ماسيي.. لماذا؟ لماذا؟
- رجاءً سيدتي.. سنسلّمكم الجثة بعد...
- اُتركوني مع ابني.. مات ولم يودّعني.. مات ولم يقل شيئا.. أخذه الموت مني.. ابني.. ماسييي...

بعد أن ربّتت الممرّضة على كتف سعاد ساعدتها على الوقوف مرّة أخرى، ثم قادتها نحو كرسي شاغر داخل البهو الواسع الذي يتفرّع على أربعة دهاليز، يقود كل واحد منها إلى جزء من المبنى. لم يتغيّر شيء في الداخل، حتى حركة العمال كانت كسولة وهادئة كعادتها. لم تقوَ الزهرة على الاحتمال، ولم تعد ركبتاها الدنيويتان قادرتين على حمل سنوات من الحزن والقهر. سرت في جسمها رعشة سحبت معها كل قوة اختزنتها لهذه اللحظة. وقفت كهيكل مشمّع يهتز لأدنى حركة. عادت نحوها تلك الممرّضة مسرعة لتتداركها قبل الأوان، ولكنها وصلت متأخرة، فقد رأتها تنهار كجبل ثلجي لتسقط على الأرض مباشرة. انزلق الخمار فوق رأسها، فبانت خطوط فضية تخلّلت شعرها الحريري. نزعت الخمار عن رأسها بحركة يائسة فبان وجهها مكدرا بوجنتيه الذابلتين، وأذنيها

المثقوبتين والخاليتين من أيّ قرط. تلألأت عيناها بالدموع وسخن رأسها:

- أنتم من تسبب في هلاكه.. ابني.. ماسي ابني.. اليوم سأقلب الدنيا على رأسكم يا أولاد الحرام.

كان لوقع صوتها دوي كالرعد شق الجدران وجمّد الدم في العروق.

- حياة ولدي لن تذهب هباءً.. أيّها القتلة أين أنتم؟ اظهروا أنفسكم أيها الجبناء.. يا أولاد الحركى، أولاد الحرام، هل تخافون من امرأة ضعيفة أيها الجبناء؟ هاه.. هل تخشون أرملة فقدت زوجها وابنها أمام عينيها؟ أين أنتم أيها المجرمون؟ أين أنتم؟

اجتمع الحشد ولكن بعيدا عنها. أمام الأبواب ومن الدهاليز اتجهت نحوها أزواج من الأعين المتلألئة ترقب كل تفصيلة لإعادة سردها "الحاضر يبلغ الغائب"، هكذا هم البشر، يشعرون بالإثارة والاهتمام وهم يعيدون سرد مآسي الآخرين وأحزانهم بحماس خفيّ. حين أنهت الزهرة انتفاضتها قوّمت نفسها لكي تحفظ شرفها، امتدت قدماها أمامها وشعرها منفوش من شدة الهيجان، احتقن وجهها بالدماء، وجرى المخاط من أنفها فاختلط بالدموع، ولم تحاول هي مسحها وإنما أسلمت جسدها لذكرى ولدها.

-8-

انصرف الجميع، وخلا المكان، ومضى الـزمن كتيـار متـدفق يستهلك الحياة بوقود الدقائق والثواني، وتناوبت على حسـين أحـلام اليقظة الغريبة وكان لا يزال تحت تأثير الصدمة. حين انتصـف الليـل داعب الكرى أجفانه المتعبة، فأثقلتها الكآبة بأوزارها لتنطبق ويدخل في سبات عميق. راودته أحلام غريبة.. شاهد شخصا ما ينظر إليـه مـن خلال شقوق الجدران، تظهر عيناه من الشقوق وخطوط حمراء تتخلـل بياضها. يدقّق النظر إلى الوجه المتواري في الظلال الداكنـة، ينـادي.. ماسي هذا أنت؟ يجيب الوجه أن "لا"، ويبقى محدّقا كالغراب في جثـة متعفّنة، يزداد خوفه من الصمت والظلال. ماسي هل هذا أنت؟ يكشّـر الوجه عن ابتسامة ماكرة، فتظهر أسنان بيضاء حادة وطويلـة. تـزداد الجدران تصدُّعا والشقوق اتّساعا، ويبرز الوجه أمام عينيه فجأة. اِستيقظ فزعا وهو يتعرّق بشدة والأضواء تنير الغرفة. كان الصمت يهيمن علـى المكان بهدوئه العجيب. التفت حوله متفقّدا الغرفة، ولأول مرّة أحـسّ بفراغ رهيب منذ دخوله إلى هذه المستشفى. لمح شيخا طاعنا في السن، رآه قبل يومين في نفس الغرفة برفقة عجوز في نفس السن تقريبا، وهمـا يحاولان إقناع دحّو بشيء ما عن طريق النظرات الصامتة والخدمة الـتي قدّماها له من خلال ترتيب أغراضه ومساعدته على الجلوس.

"أكيد لم يكن ذلك حلما.. لم أكن أحلم بالتأكيـد، وإلا فأنـا مجنون فعلا، متى حدث كل هذا.. البارحة؟ اليوم؟ كـم مـرّ مـن

الوقت؟ وكم هي الساعة الآن؟ لقد نمت كثيرا حتى أنني لم أنتبه لحضور هؤلاء. هل أنا في كابوس سيئ؟ لا.. لم يكن ذلك حلما قط.. ذلك سرير ماسي فارغ الآن ولا أثر لأغراضه هناك. هل مات حقيقة؟ كيف؟ وأين الجميع؟ وسعاد ووالدته.. هل تعلمان بالأمر؟ وكيف تصرّفتا؟ أكيد سيخبرهما أحد ما عن طريق مكالمة هاتفية، إيصال الخبر أمر سهل في هذه الأيام. كبسة زر وسيعلم العالم كم أنت لا شيء، ثانية وسيسمع كل من تعرفهم أنك أصبحت من الماضي، وثانية أخرى وراءها وسينسى الجميع مع من تكلموا للتّو، آه ما أقسى الحياة! أين ذهب الجميع؟ ولماذا هذا الهدوء يكتنف المكان؟ ألم يمت شخص البارحة فقط وعلى بعد خطوة مني؟ أبهذا البرود يستقبل الناس الموت؟ أهكذا يودع الأحياء الأموات؟ أبهذا البرود والهدوء سأغادر هذا العالم؟! أين ذهب الجميع؟ لقد نمت كثيرا حتى أنني لم انتبه لحضور هؤلاء، إنهم يوضّبون أغراضه وكأنّه طفل يستعد للدخول المدرسي، لابد أنهما جداه، هل سأبقى وحيدا في هذه الغرفة؟ هل سيغادر دحّو دون وداع أيضا؟ أين ذهب الجميع؟ ولماذا كل هذا يحدث فجأة؟ الصمت يكتنف المكان ولم أعد أطيقه الآن.. ليتني أحلم.. ليتني أحلم.. ليتني أنام.. ولا أستيقظ أبدا.".

كان الجميع صامتا ومتعبا وكأنّ دهرا مرّ على تواجدهم في هذا المكان. أحسّ بخيال ما جعله يلتفت إلى جانبه، فرأى في مظهر سريالي وغير متوقّع دحّو يقف أمامه، ويسقط ظلّ وجهه المصفرّ على صدر حسين. حدّق فيه مباشرة وكأنّه يريد اختراقه وقول شيء عن طريق النظرات. ولكن شيئا ما منعه من ذلك، فرأى ذلك البريق في عينيه يخبو تدريجيا ويضعف.

- وداعا.

قال ذلك ببطء، ثم تقهقر عائدا بهدوء إلى جدّيْه، يجرّ خطواته المتخالجة وراءه كمن رجع من معركة خاسرة. انتاب حسين إحساس غامض، لم يستطع تمييزه إلا من خلال موجة الألم التي اجتاحت صدره في تلك اللحظات. شيّع حسين صديقه بنظراته وهو يغادر الغرفة دون كلمة منه. عاد هاجس القلق ينهشه نهشا ويخرجه من طوره عندما خلا له الجو. لماذا يقبع وحيدا في هذه الغرفة وكأنّها قبر أُعِّدَ له خصيصا؟ لماذا كل من حوله يغادرونه صامتين إما بالموت أو الاختفاء دون أقل كلمة وداع؟ لماذا وحده يبقى صامدا في هذه الفوضى؟ هل هو القدر أم عبثية الحياة؟ كل هذه الأسئلة تناهشت دماغه الطري وسكنت بين تلافيفه كحيّة رقطاء. تساءل كم من الوقت مضى.. يوم أو يومان.. ربما نصف يوم. لم يعد يحسّ بالوقت، لم يعد يشعر بنفسه كإحداثية في معالم هذا الكون، إنه نقطة ضائعة تاهت بين مكوناته ولم تجد لها مستقرا بعد. نظر حوله وكانت المنضدة مرتّبة، وقد استبدلت الأواني والأغطية في غيابه عن الوعي. أتت نوال في ذلك اليوم رفقة أحمد ولم يرغبا في إثارته، وحاولا التكلم عن أمور سطحية ثم غادرا بهدوء أيضا. اعتاد على الهدوء، إنه كهذه الغرفة تماما، يدخلها أناس كغرباء ثم لا يلبثون فيها حتى يصبحوا من سكانها، ولكن في وقت معين تصبح الغرفة فارغة وبدون أهل. هكذا هي الغرفة التي تحيط بحسين. تحرّك من مكانه ليقوِّمَ جلسته فوق السرير، فلاحظ أنّ قارورة المصل قد تمّ تغييرها أثناء نومه. ربما فعلت المسكّنات داخل المصل فعْلتها فنام كل هذه المدة الطويلة. مدّ يده نحو الساعة في الدرج وكانت تشير إلى الثانية بعد

الظهر. أحسّ بضعفٍ في جسده وجفافٍ في حلقه، حيث تيّبستْ شفتاه وثَقُل لسانه داخل فمه. انحنى فوق المنضدة وتناول قارورة الماء، ثم أفرغ في جوفه كأسين من الماء جرعة واحدة.

في ذلك المساء أتى حمزة متأخّرا على الساعة الرابعة ولم يدم حضوره هناك طويلا، حتى لحقت به نوال ثم أحمد على التوالي. رأى حسين أنّ نوال تقترب من حمزة أكثر من اللازم. بل بدا أنّ لهما نفس التعبير الحزين. حين تكلّم حمزة غرقت هي في الصمت، وأطرقت برأسها إلى الأرض محاولة السيطرة بمشقة على ملامحها. لاحظ حسين أن حمزة يودّ قول شيء ما.

– هذا ليس وقت الزيارة، ما الأمر؟

نقل بصره بين الثلاثة في استفهام يشوبه قلق.

– سمح لنا الحارس بالدخول لأمر طارئ يا حسين.

لمس في نبرة صوت نوال رجاءً غريبا نقله إلى حالة شكّ لا تقبل أجوبة غامضة. وقد بدأ البرود يُخدّر أطرافه وينتشر في كامل جسده.

"تلك النّظرة أعرفها جيدا ولا يمكن أن أكون مخطئا، قلبي يقول أن شيئا ما يحدث، شيء سيكون صادما وقاتلا، لا أدري لماذا أرتعش هكذا، نعم أنا أرتعد بوضوح، ولكن أيًّا منهما لم يلاحظ هذا.. لحظة.. إنهما أيضا.. ماذا؟ هل ما أفكر فيه صحيح؟ هل حان وقتها أيضا؟ هل العالم بكل هذه القسوة؟ كيف؟ كيف؟ كيف لي أن أطيق الحياة؟ كيف لي أن أصبر على شيء لا قِبَل للصبر به؟ كيف عليّ أن أقوى أمام الموت وأنا مشرف عليه؟ كيف للموت أن يأتي كل مرة ولا يأخذني معه وكأنه يسخر مني؟ لست خائفا منه، فليأت، أنا متعب.. متعب ولا أطيق الانتظار.

صرت أتمنّاه، صرت أتمنى الموت الآن ولم تعد الحياة إلا عبثا من أجل بلوغ الموت، بل إنني أنتظره بسرور. سأموت مبتسما وسأستقبله بذراعين مفتوحين، ألا يكفي يا موت ما أنا فيه من يأس؟ ألا يكفي أن أكون في الأخير لك وحدك؟ كيف لي أن أطيق الحياة وأنت تحرث في أرضها كل أخضر.".

- ما الأمر أحمد؟ لماذا تقول هذا الكلام لي الآن؟ هل حدث مكروه ما، هل أصاب أمي شيء ما؟ هيا تكلم لماذا أنت صامت؟

توارت نوال خلف أحمد وأطرقت رأسها إلى الأرض في بكاء صامت ومتقطع، سرعان ما أصبح متصلا وحادا. التفت حمزة نحوها وغمرها بنظراته المتعاطفة، اهتزّ جذعها بقوة وهي تدفن وجهها بين يديها، ولم تتمالك نفسها فتهالك جسمها المرتعش على الحائط، مولية ظهرها لحسين الذي بدأت ترتعش شفتاه وصعد الماء الساخن لعينيه فجأة:

- هل هي أمي؟

انكماش أحمد وتحدّب ظهره مع إطراقة رأسه الطفيفة وقد بدت عيناه محمرّتين، أومأ بالإيجاب، ثم فتح فمه ليتكلم ولكنه فشل في المحاولة، ازدرد ريقه بصعوبة، وضبط ارتعاشة حنجرته محاولا ألا يخونه صوته مرة أخرى:

- توفِّيت البارحة رحمها الله، والدفن سيتم اليوم بعد صلاة العصر.

بالكاد سمع حسين صوت حمزة وهو ينعى له وفاة والدته. توتّرت أعصابه وشدّت بقوة، وللحظة تشنّجت عضلات وجهه

لإبداء الدهشة من خلال الفكّ الساقط والعينين البارزتين، نقل يـــده إلى صدره تلقائيا، وشدّ بقوة وكأنه يخشى أنْ ينتقل إلى مكان آخر.

"هل حقيقة ما أعيشه؟ هل حقيقة ما تراه عينـــايْ؟ أم أنـــني أعيش كابوسا لا يريد أن ينتهي؟ هل سيقفون أمامي بنفس الطريقة عندما أستقبل الموت وأكون جثة هامدة؟ يا له من موقف شاعري! يا لها من لوحة مزيّفة نرسمها لأنفسنا ونحن على مشارف الهـــلاك؟ هل هذه هي تعابيرهم أمام جثّتي وأنا ميت؟ هل أمّي تستحق فقط هذه الوقفة؟ هل يكفيك يا أمي أن أناديك بأعلى صوت وأبكـــي كالرضيع لأجلك؟ أمّي التي منحتني كل شيء، أمّي التي ســـارت على هامش الحياة دون أن تدع لنفسها فرصة؟ هي الـــتي كنـــت أعتبرها جاهلة لأنها لم تعرف في الحياة إلا كيف تحب أبناءها، هـــي التي اعتبرتها قاسية لأنها لم تكن متساهلة معي عكس إخـــوتي؛ لأني الأقرب إلى قلبها وخافَتْ أن أعيش تعيسا مثلها، كانت تـــرى في إخوتي النجاح والقوة، وكانت ترى فِيَّ ضـــعفها واستســـلامها، لذلك قست عليّ لأكون أقوى. أمّي التي كانت في ما مضى والتي لن تكون في المستقبل. أمّي التي ضحّت بسعادتها من أجلي لن تجد هذه السعادة التي منحتني إياها اليوم، لأنني لن أكافئها بـــدموعي أمام قبرها، كيف؟ كيف وأنا في طريقي إليهـــا؟ كيـــف والمـــوت سيلاقيني بها عما قريب؟".

- هل تألمتْ قبل أن...
- لا...

نطقت نوال هذه الكلمة وكأنها خرجت من فم أحد آخر غيرها، وانهارت تماما بعد تلك الكلمة وكأنها آخر ما ادّخرت من قوة.

- سألتْ عنك مرارا حتى لفظت آخر أنفاسها...

كان أحمد هو من تكلم الآن، وقد التمعت عيناه المحمرتان لتمسحا وجه حسين ثم ترتدان عائدتين إلى الأرض. لم يتدخل حمزة أبدا وبقي مجمدا وكأنه جزء من أثاث الغرفة. انصرف أحمد أولا ثم بقي حمزة رفقة نوال ليطمَئِنّا على حالته. في نهاية المطاف انهارت نوال مرة أخرى، وانهمكت في نشيج حار لم يقطعه إلا صوت الممرّض وهو يحاول السيطرة على الموقف. كان التعب والتأثر باديين على حسين الذي دفن رأسه داخل الوسادة، وغطى عينيه المبلّلتين بذراعه اليمنى ضاغطا على قبضته بشدة. تحرّك سريره مع انهمار دموعه وهو يشد على الغطاء بقوة، وكأنه يشد على طرف ثوب أمه ويرجوها ألا تغادره وحيدا. يرجوها ألا تبتعد وهو الطفل الذي لم يشبع من حليب ثدييها. الرجل الذي لم يرتوِ من حنان أمه وها هي تتخلى عنه وأين؟ في المستشفى ومع من؟ موعد مع الموت. دام صمت طويل تخلّلته حشرجة نوال أثناء بكائها الصامت واليائس. طلب منهما الممرّض أن ينصرفا بلطف، وقبل أن ينسحبا وعداه بزيارته في أقرب وقت. ولم يطل به الأمر حتى رأى مريضا جديدا ينقل إلى داخل الغرفة وأخذ مكانه في سرير ماسينيسا. لم تكن به رغبة للنظر أو التكلم مع أحد لكي لا ينسى وجه أمه الذي بدأ في استرجاع تفاصيله، ولا يفقد صوتها الذي بدأ يناديه لأول مرة في حياته. حسين.. عدم تذكّر الموتى بصفاتهم الحقيقية في الحياة يُعَدّ خيانة لا تغتفر. نسيانه السريع يعدّ خيانة كبرى لأمه وجريمة لا تمحى لذكرى ماسينيسا.

كانت زيارة الطبيب في اليوم التالي روتينية كسائر الأيام. أبدى الطبيب نفس الملاحظات السابقة، وقبل أن ينصرف نصحه بشرب

المزيد من الماء، ثم غادر كالآخرين مخلفا وراءه سحابة من القلق وعدم الارتياح. أتت بختة بعد ذلك تجرّ خطواتها في تعب ظاهر وقد تقوس كتفاها إلى الأمام، حاملة الدلو والمنشفة معا. دخلت إلى الغرفة مغرورقة العينين تحاول تعزية نفسها من خلال مقاسمة الآخرين أحزانها. بحثت بعينها عن دحّو وما بقي من آثار ماسينيسا، ولكنها لم تجد سوى حسين الذي غرق في سريره وانزوى في ركنه صامتا، لابدًا في قمقم منيع من الحزن. ظلت هناك لأكثر من نصف ساعة دون أن تنظف أيّ شيء، مشغولة بتبادل أطراف الحديث مع المريض الجديد، وأثناء ذلك قطعت حديثها عندما أحسّت بشخص يدخل إلى الغرفة، التفتت إلى القادم وإذا بها سعاد تقف أمام العتبة، عيناها مصوّبتان على المريض الجديد الذي شغل سرير ماسينيسا. تحكّمت في أعصابها بقوة وألقت خطوة إلى الأمام قاهرة رغبتها في الهروب، تقدّمت نحو حسين الذي تسمّر في مكانه من أثر الدهشة. التفتت سعاد نحو بختة وتبادلتا نظرة قصيرة، قرّرت خلالها بختة مغادرة الغرفة تاركة هناك أغراضها لتعود إليها.

- هل عدت؟
- حسين...
- ظننتك نسيتني بمجرد...
- لا..
- حزنت كثيرا لفقدانه.. أنا آسف، فكل ذلك حدث بسببي، إنه ذنبي، لم أكن أدري.. لا أعلم ما أفعل.. أنا...
- إنه ذنب جميل. لا داعي لتعتذر حسين.

اتّسعت عيناه وانكمشت قبضتا يديه حتى ابيضّت مفاصل أصابعه.

- لولا ذلك الذنب لما التقينا. أنا هنا بسبب كل ما حدث، لذلك أنا سعيدة بكل ما حصل.. إنه أجمل ذنب يمكن للمرء أن يقترفه.

سادت فترة صمت قصيرة أطرق خلالها حسين رأسه ألما.

- اُنظر إليّ حسين.. اِرفع رأسك، فأنت شهم وليس لأيّ كان الحقّ في أن يتّهمك بشيء.. هكذا نحن.. الحياة مجموعة من الأسباب ترتبط ببعضها البعض بطريقة عشوائية ولا يمكننا التحكم فيها.

رفع بصره نحوها وقد رأى لأول مرة منذ دخولها ظرفا صغيرا محشوًّا بورقة داخله.

- هل فهمت حسين؟ أنت لست مسؤولا عما حدث لنا، إنّ الدنيا لها أحكامها وهي ليست عادلة في هذا الخصوص، وهي التي وضعت كلا منا في هذا الوضع، وما علينا نحن إلا أن نقبل به، أو...
- أو ماذا؟ ماذا ستفعلين لتصحيح الخطأ؟ لقد قلت منذ قليل أنها أسباب مرتبطة ببعضها البعض بطريقة عشوائية، فكيف لك أن تنظميها لتتحكمي في مصيرك ومصير الآخرين؟ وهل كان ممكنا لي من البداية أن أصحّح الأمور قبل عشر سنوات لكي لا تنفلت من بين يدي وأتجنّب كل ما يحصل معي الآن؟ إنها فوضى حقيقية، وهي ما يجعلنا نعيش بقدر ضئيل من الأمل، لأننا نفكر ببساطة و لم نقبل بالوهم، لأننا

عشنا الحقيقة كاملة، عشنا الألم والحزن، وتذوّقنا السعادة للحظات.. هذه هي الحياة.

- ولكنني لا أعيش سوى الألم، ولم أرَ السعادة إلا...
- تكلمي سعاد.. فأنا لم أعد أطيق صمتك.. استهلكنا العالم وأنتِ لازلت تقفين صامتة.

اهتزّ جذع حسين وهو يقذف بهذه الكلمات من فمه على وجه سعاد التي بدأت شفتاها تستسلمان لتأثير مشاعرها. بكت بصمت وكأنّ روحها تذوب داخل جسدها، كانت تقف على بعد خطوتين من السرير، وقد حمل الهواء بينهما مزيجا من الغضب الثائر والتّوق إلى الآخر. لم ينتبه كلاهما إلى حركة المريض الذي تقلّب في فراشه وكأنه ليس إلا غرضًا من أغراض الغرفة.

- لماذا أتيتِ؟ هاه.. ألتذكّريني بذنبي؟ ألِتريحي ضميرك من صداقتنا؟ هيا تكلمي الآن.. لماذا أنت صامتة هكذا؟

احمرّت وجنتاه وصعد الدم عبر عروق رقبته إلى صدغيه، ورأى يديه تحرّكان الهواء أمامه وكأنه يريد الكشف عن الغشاء الذي يفصل بينهما. في غمرة غضبه تقدّمت نحوه بخطوات سريعة عانقته بقوة، فأحسّ بارتعاشة جسدها ونشيجها الصامت يزعزع أركانه، ارتخت يداه وتدلّتا إلى جانبه في ما يشبه عدم التّصديق. رفعت رأسها لتقابل وجهه تماما ودون أن تنبس بكلمة طبعت قبلة على جبهته، ظنّ أنه في حلم وأنّ كل ما يحدث الآن إنْ هو إلا خيال من صُنْعِه. داخ وهو يحسّ بحرارة شفتيها السخيتين على جبهته المتجعّدة. اقشعرّ بدنه ووقف شعر رأسه قبل أن يحسّ بدفئها يلفه من كل ناحية. إنها هي، إنها سعاد تغمره بدنياها.. هذه الدنيا التي طالما انتظرها بفارغ الصبر.

انتظر عُمْرا كاملا وها هي اللحظات تمر مسرعة وكأنها حلم جميل. انسكب شعرها الجميل كشلال من الحرير يتدفق على كتفيها ويغطي المشهد وراءه، كان كل شيء مثاليا، تدفّقت حزمة ضوء من خلال شعرها الكثيف وملأته سرورا. رفع يديه المخدّرتين لتطوّقاها ولكنها كانت تنسحب ببطء، تاركة أثرا لا ينمحي أبد الدهر. حين استعادت هيئتها الأولى ووقفت أمامه كانت الدموع تبلّل كامل وجهه، وقد أحس بشيء في يده اليسرى.. رفعها لينظر إليها فوجد أنها الرسالة التي رآها تحملها عند دخولها للغرفة.

- هذه الرسالة لك.

صمتت مرة أخرى مستسلمة لموجة البكاء التي اجتاحت كليهما.

- ما الذي تحتويه؟ هل ستعودين غدا؟
- لا أدري؟
- سعاد.. عديني بأن تعودي.
- سنلتقي في يوم ما حسين.

نطقت هذه العبارة بصوت واه ثم أطرقت.

- سنلتقي غدا.. هل هذا واضح؟ سأغضب منك إن لم تأتي..
- لا تفتح الرسالة حتى المساء.
- لماذا؟ ما الذي في هذه الرسالة اللعينة؟ لا مؤاخذة.. ولكن لماذا تظهرين هكذا وكأن شيئا مزعجا سيحدث؟

ابتسمت سعاد بعصبية:

- إذا أردت أن نلتقي فلا تفتح الرسالة حتى المساء.. هل هذا وعد؟

- وعد ولكن...
- أعرف.. ولكن عليك أن تتعوّد على العبث، أليس كذلك؟
- لا أفهم ماذا تقصدين؟
- لا شيء.. الآن سأنصرف.. وداعا..
- سعاد...

اِستنجدها بيأس وألم، وقبل أن يلفظ اسمها كانت قد غادرت الغرفة بسرعة لكي لا تسمح لنفسها بالعودة. اختنق صوته فجأة، وعاد ليغوص مرة أخرى في بحر من الهواجس والرسالة تحرق يده حرقا. أخذ يفكر في محتواها. قلّبَ الظرف في يده وقاوم رغبته الشديدة ليفتحه. وبحركة غريبة فتح الدرج بجانبه وألقى الرسالة في جوفه، ثم أغلق الدرج بقوّة حتى أنّ المنضدة والسرير اهتزّا من عنف الضربة.

عادت بختة إلى الغرفة لتستأنف عملها، قامت بتنظيف الغرفة بنصف الجهد، وأثناء ذلك لاحظت الفارق الذي طرأ على حسين حين رجعت من نزهتها. تجنّبت أيّ كلام قد يزيد من غضبه، وقبل أن تنصرف إلى شغل آخر توقّفت عند عتبة الغرفة فجأة، واستدارت نحوه لتخبره أنّ الفتاة التي سألت عنه تقف في الخارج رفقة سيدة أخرى.

دخلت شابّة في ريعان الشباب، تضمّ شعرها الفاحم إلى الخلف كذيل الحصان. كانت ملامحها بارزة وبشرتها بيضاء، كما أنّ لون عينيها بلون زيت الزيتون، ذكّرته هذه الفتاة بشخص مألوف. اقتربت منه في حذر وكأنها غير متيقّنة من أنه الشخص المطلوب. دنت بهدوء وكأنها تكتشف البقعة المحيطة بها قبل أن تبلغها. كانت تبدو مرتبكة ومتردّدة كمن يخشى السقوط في شرك أعدّه آكلو لحوم

البشر. أحسّ حسين حيالها بشيء ما.. شيء هام يقترب ويوقظ فيه إحساسا دفينا، إحساس غريب محمّل بذكريات بعيدة. ربما يتوهم ذلك رغم كل شيء، ولكن مع اقتراب الفتاة سقطت الغشاوة من عينيه وصار الإحساس وكأنه حقيقة. لحظة عابرة من ماضيه التّليد تعود لتظهر مجدّدا في أفق حياته من جديد، لو أنّ ذاكرته تَرَيَّثَتْ قليلا، لعلّها تترك الوقت الكافي للفتاة لتقدّم نفسها. ولكن الأوان كان قد فات.. فات وصار الوقت متأخّرا.

- فلة! ابنتي...

وقفت متصلّبة الجسم، ذراعاها مشدودان في كلا الجانبين، واتّساع عينيها وشى بأنها إمّا مندهشة أو متوتّرة. بعد كلّ تلك السنوات لم تكن لتظنّ أنّ هذا الرجل صاحب البدن المفكّك والنظرة المتعبة هو والدها. كانت تحمل كيسا مليئا بفاكهة الموز والبرتقال، ولشدة انهماكها في التفكير نسيت أن تضعه بجانب المنضدة، حتى انتبهت إلى نظرات حسين المتفحّصة وتداركت الوضع أخيرا. وضعته فوق المنضدة دون أن تتفوّه بكلمة واحدة. ألقت نظرة أخرى على الجسد المتآكل والوجه الضامر، تحرّك ذراعاها بعشوائية في الهواء تعبثان تارة بشعرها وطورا بذقنها أو رقبتها. ودّت لو تتملّص من ذلك الموقف الغريب. وبعد مرور بضع ثوان ارتخت ملامحها وهي تشاهد الهدوء الذي يكتنف الغرفة، وصمت حسين وهو يتملّى النظر في مظهرها بإعجاب وقلق، وكأنّه يخاف من أن تغادر للأبد فلا يقدر على تذكّر شكلها. كان شعورها بالخجل يظهر في تورُّد خدّيْها وتشابك أصابع يديْها أمام نظراته الملحّة. تناقض غريب ظهر في عينيها المشرقتين يتعارض بشدّة مع تورّد وجنتيها. من المفترض أنّ

هذا الرجل الذي تقف أمامه الآن هو من أتى بها إلى هذا العـــالم. لم تعرف كيف تتصرّف، لم تعرف كيف يســـتقبل الأبنـــاء آبـــاءهم. أحسّت نفسها غريبة في ذلك الموقف. كان حسين يتفرّس في ذلـــك الوجه الجميل، ويحفر في ذاكرته عميقا أين تكمن مشاعره القديمة. في أجزاء من الثانية توهّجتْ ملامحه وشَعَّ في عينيه بريق خفت بســـرعة البرق.

"لماذا كل هذا يحدث لي؟ لماذا وحدي؟ لماذا وحدي من يقف وسط الخراب؟ لماذا يتداعى كل شيء حولي؟ لماذا أنا من عليه أن يحتمل كل هذا؟ ألسْتُ إنسانا كجميع البشر؟ أين هو حقي مـــن السعادة؟ أين هو حقي من الراحة؟ إلى متى سأظل أسيرا لضميري؟ إلى متى أظل حبيسا لهذا الماضي التّليد؟ لا أفْتأ أحاول النهوض حتى تنهال المطرقة على رأسي بالمشاكل. أهو القضاء اللعـــين أم هـــي الحتمية القاسية؟ كلاهما خراء.. كلاهما نتيجـــة كـــلام عقـــيم.. سفسطائية لا فائدة منها. الحياة قذرة ولا تستحق منّي كل هـــذا التفكير. عِشْها فقط يا حسين.. عشْها وحسب.. ها هي ابنتـــك أمامك وعليك أن تواجه الحقيقة.. عشها فقط يا حسين.. الكـــل كبر وتغيّر إلا أنت.. يبدو أنها ورثت عينيها وأنفها الصـــغير مـــن أمها، سعدية التي غادرت هذه الحياة باكرا منذ عشر سنوات، كم كان عمركِ أنذاك؟ هل يُعْقَل أنْ تكوني كبرتِ بهـــذه الســـرعة؟ خصرها وانحناء أنوثتها البارزة، لابّد أنّ شبانا كثر يتوقون للظفـــر بها. ماء عينيها يشعّ حيوية، وبشرتها الفاتحة النابضة بالحياة، إنهـــا امرأة مكتملة الأنوثة. كل ذلك حدث بسرعة ومن دون رعـــايتي. والدك مظلوم يا ابنتي، والدك تعيس الحظ. كم من مـــرّة ســـألتِ

نفسك عن والدك؟ هل أنت حقا فلة؟ ابنتي.. لا أصدق.. كيف لا وتلك العينان لا تكونان إلا لسعدية وحدها. ابنتي.. فلة.. أتت أخيرا لتعانق أباها.".

- فلة...

صَمَتَ قليلا يبتلع ريقه لكي ينظّم كلماته المزدحمة على عتبة شفتيه:

- سعيد بزيارتك ورؤيتك مجددا.

أتى صوته رقيقا ومحتشما، ولاحظ توتّرها وهي تتلاعب بأناملها في خجل.

- هل تحسّنتَ قليلا؟

"أنا؟! إنها تسأل عنّي.. هذا حقيقي، إنها تسأل عن والدها إنْ تحسّن، وكيف لا أتحسّن وأنا أرى ابنتي أمامي بعد كل هذه السنوات؟!".

- بخير، بخير.. وأنتِ كيف حالك فلة؟

رأى اختلاج جفنيها وهو ينطق باسمها مرة أخرى، فتحاشت النظر إليه مباشرة. وضعت يديها الرقيقتين داخل جيبي سروال الجينز الضيق الذي ارْتَسَّ داخله هاتفها النقال. كان قوامها رشيقا وتلك سمة ورثتها عن والدها، فلم تكد تمضي دقائق معدودة حتى عرف أوجه الشبه بينهما. كان لهما نفس الجبهة المستوية، وتلك الخطوط المتعرّجة على الجبين، كما أنّها ورثت كتفيه العريضين، وتلك الوقفة الواثقة، والحركة المتوتّرة الدالة على اضطراب كبير. ذلك الهدوء الذي اكتنف حسين أحسّ به ينتقل إليها عن طريق عدوى غريبة، لتتحول في ثوانٍ إلى طِبْق الأصل من حسين.

- سَمِعْتُ خالتي تتكلم عنك قبل أيام، وقالت بأنك مريض.. وعندما سألت جدّي أخبرني أنك في المستشفى وحالتك خطرة، كما أنّ لي صديقة والدتها تعمل هنا كطبيبة عظام، هي من أرشدتني إلى هذه الغرفة.

ابتسم حسين حين سمع نبرة صوتها الواثقة، ولم يرد أن يسألها عن سبب ظهورها في المستشفى قبل اليوم دون زيارته. ولكنه كان يحدس السبب مسبقا من خلال حركة أجفانها المختلجة. أراد الوقوف أمامها، أراد أن يعانق ابنته الوحيدة، أراد أن يقبّلها بشدة ويضمها إلى صدره الجريح. كان مُثْخنا بالجراح والعالم كله يقف ضده طوال فترات حياته. والآن لم تظهر فلة بهذه اللطافة إلا لتذكره كم أحَبَّ الحياة قبل ذلك الحادث، وكم أحبّ رؤية ابنته تكبر تحت رعايته وعطفه. ولكنه لم يحتمل ما طال حياته.. أتْراحٌ جعلته يركن إلى الانزواء والشُّرْب. كان وقتا عصيبا يصعب تلخيصه أو توضيحه لفتاة حُرِمت من حنان الأم وعطف الأبوة معا.

- تبدين جميلة مثل أمك!

التوت ساقاها وتعَرَجَّتْ قامتها أمام كلماته الأخيرة. كانت أشبه بورقة سرخس على ارتفاع شاهق هزّتها ريح قوية.

- شكرا لك.
- إنّ أباكِ عانى في هذه الحياة ونال كفايته منها، ولا تظنيني تخلّيْتُ عنك يوما.. كنتِ دائما في ذاكرتي، كنتِ آخر ما بقي لي ولكن...
- ولكن ماذا؟

تَشَنَّجَ أنفها الصغير كشبل سهول إفريقيا، ووقف شعْرُ رقبتـــها جرّاء رعشة مباغتة سرت في كامل جسدها الرشيق. فتحت فمهـــا لتقول شيئا حادا ولكنها أطبقت شفتيها بصـــعوبة تامـــة. امـــتلأت حنجرها بالحنق وانتفخ فمها بالكلمـــات، ومـــا عـــادت شـــفتاها تقْويان على تحمّل سيل الكلمات المتراكمة. ثم انفجرت في وجهــه بحدّة:

– خالتي فافا أخبرتني كل شيء عنك.. تخلّيت عنّي عنـــدما كنت في الثانية من عمري و لم يتحرك قلبك لضياع ابنتك. لماذا لم تسأل عني في كل هذه السنوات؟ أين كنت كـــل هذه الفترة؟ هل خانتك ذاكرتك الآن؟ قُلْ.. هيا تكلم..

توقّفتْ لحظة تلتقط أنفاسها المبهورة وهـــي تقـــاوم اختناقهـــا بالدموع:

– هل كان موت أمي هو موتا لي؟ تنَصّلْتَ مـــن المســـؤولية بكل هذه البساطة لأنك لم تستطع السيطرة على انفعالاتك ثم تقول الآن أنك مسرور بـــرؤيتي؟ أرى أنـــك لم تكـــن مسرورا بـــي في يومٍ من الأيام، بل أجزم أنـــك تشـــعر بالأسف لأنك أتيت بـــي إلى هذه الحياة..

انهمرت العبرات على وجنتيْها المتـــورّدتين وبـــدت في كامـــل جمالها. أنثى بهذه الدموع ستهزم أيّ رجل في العالم. هكـــذا خمّـــن حسين وهو يشهد بأم عينيه ثورة ابنته الوحيدة وكامل جسدها تحت انفعال الأدرينالين الذي اجتاحها بعنف. كان كلّ من يمرّ بـــالرّواق أمام الغرفة يلقي نظرة استطلاعية ليرى ما يجري داخل هذه الغرفـــة المشؤومة، والتي باتت أحداثها تجري على كل الألسن.

"آه جسدي يتفتّت، كم من ضربة يجب أن أتلقاها؟ رأسي لا يحتمل كل هذا العبء. متى تهدأ عني هذه الأقـــدار اللعينـــة؟ آه جسدي يتفتّت، ابنتي تقف ضدي، تتآمر مع العالم لتُشْعِرني كم أنا بائس ولا أستحق أن أعيش. لا.. لا.. ليتني كنت ميتـــا، ليـــتني لم آت إلى هذه الحياة، ليتني أغمض عيني فأجد نفسي في حلم لا نهاية له. كم من طعنة سأحتملها لتَكُفَّ هـــذه الحيـــاة اللعينـــة عـــن تعذيبـــي؟ أه أنا لست حسين.. أنا فُتات هذا العالم، عشبة ضـــارّة عليها أن تُجْتَثّ من الأعماق.".

- كلما أتذكّر ذلك اليوم الذي أتى فيه جدّي.. ذلك اليـــوم الذي أتى فيه جدّي كنتَ تصرخ بأعلى صوتك وتشـــتم كل من حولك. حتى أنك أهنت ابنته التي هي أمي وأهنتني معها. ألم تكن أنانيا بتخلّيك عنا؟ لقد دخلـــت قوقعتـــك لتحتمي فيها وحدك، تكوّرت حـــول نفســـك ونســـيت واجبك. ألم تفكر بابنتك على الأقل أو بأمي التي عاشـــت معك لسنوات؟ أم أنك مازلت مسرورا رغم كـــل ذلـــك لرؤيتي؟ هل تعلم شعور فتاة تكبر دون رعايـــة والـــديها والكل يحدثها عن تاريخها غير المشرف؟ والـــد مثلـــك لا يرغب فيه أحد.. أتعلم هذا؟ عندما تجرّأت في تلك المـــدة وأتيت إلى وهران لتأخذني من بين أحضان جدي، ألم تفكر حينها بأني لم أرغب في رؤيتك؟ لولا أنك...

صمتتْ قليلا وهي تعيد النظر نحـــو الأرض، رفعـــت رأســـها مثقلةً، ثم أشاحت بنظرها نحو المنضدة وكأنها تبحـــث عـــن معـــنى لمشاعرها:

- لو أنني كنت قاسية مثلك لما رأيت وجهي هـذا يومـا في حياتك. أنا لا أشبهك أبدا، لا أستطيع أن أتركك وحيدا.. أنتَ والـ...

غلب عليها الانفعال، وكانت تمسح أنفها بانتظام والدموع تغسل وجهها البدْري. كان الأسى يُقطِّع حسين إلى أشلاء، وشعَر بـوخزٍ في قلبه جرّاء كلامها و لم يستطع التفوه بأيّ كلمة، فكلّ حرف قالته كـان بمثابة خنجر ينغرز في قلبه. طفرت الدموع من عينيها وكأنها احتبسـتها كل تلك السنوات لتذرفها دفعة واحدة في هذه اللحظة:

- جدّي كان رجلا حقيقيا، وأعتبره والدي الذي لم أحظَ به يوما، أما أنت فلا تستحق مني سوى الشفقة والرثاء، لذلك لا تنتظر مني كلاما آخر.

صمت كلاهما، وبدا حسين شاردا متخشّب الجسم، ولسـانه بوزن فيل إفواري، شاحب الوجه، خطُّ شفتيه متعـرّج، وتشـنّج طفيف شوّه ذقنه وخدّيْه. ذراعاه مرتخيتان كقطعة عِلـك ممضـوغة وممدّدة، وعيناه برّاقتان كغلاّيَتيْ ماء على النار توشكان على الفوران. منع رموشه المرتعشة من الانطباق لكي لا تدفع ما تجمّع من غشـاوة في المقلتيْن. كانت تلك آخر قطرات ماء الحياة ولا يريد أن يهْرِقهـا أمام ابنته، لا يريد أن يستسلم أمامها، على الأب أن يكون قويا أمام ابنته مهما كانت الظروف... كان الهدوء هو ما يجمعهـا في تلـك اللحظة.. الهدوء ولا شيء.

- أنا إنسان ظلمتني الحياة ولن يُفْهِمَك هذا أيّ أحـد. إنـه شعور خاص بك وحدك تختبرينه في الحيـاة. لا يمكـن أن يُلَقَّنَ في المنازل أو يُعَلَّمَ في المدارس. أن تكـوني مرهفـة

الإحساس يعني أن تأخذي فقدان السعادة على محمل الجد.. أن تسمحي لنفسك بالحزن من أجل سعادة الآخرين. أنا مسؤول عن كل ما حدث لي ولكِ، أنا مسؤول عن عدّة أشياء حدثت في هذا العالم يا فلة. بعض هذه الأشياء رائعة، والباقي وهو الأغلب.. أنا مسؤول عن تعاسة كل من حولي. إنها الأشياء المرعبة التي حدثت بسببي. الأشياء الرائعة لم تكن سوى سرابا بين كثبان ذنوبي. والآن قد صِرْتُ ضعيفا وبدون فائدة. صرت لا شيء. هل تعرفين معنى لا شيء؟ أن تفقدي الأمل في الحياة وتتمنّي الموت من أعماق قلبك. الموت هو بداية اللاشيء الذي أتوق إليه. وأنا أنتمي لذلك العالم حيث لا شيء يعكّر صفو الإنسان وهدوءه. بعد كل ما حدث لن أستطيع أن أرد إليك ما سلبته منّي الحياة أصلا. أنا فاقد للسعادة، أنا ظل شخص عاش مختفيا بين أحزانه، يحاول عبثا التكفير عن خطاياه التي ستتبعني إلى القبر. هل فهمت ماذا تعني لي الحياة؟ إنها خراء.. نعم ابنتي.. حياتي خراء.. ولا أريد لك أن تشقيْ بهذا الألم الذي أحمله معي. لم أكن قادرا على أن أمنحك السعادة، لم أكن قادرا على إعطائك هذا اللاشيء. عرفتُ مصيري وأردتُ الهلاك فيه لوحدي.. من أجل أني أساوي "لا شيء" فلن أستحق رثاءك وشفقتك بعد الآن.

ودون أن تنبس بكلمة رمقته بنظرة عتاب وخيبة أمل لوّنت بشرتها الصافية بلون قرمزي. طار شعرها الحريري في الهواء، واهتزّ

خصرها وثدياها وهي تدور حول نفسها بسرعة لتداري الطفلة التي استيقظت للتو في داخلها. غادرت المكان في خُطىً واسعة وهـــي لا تقوى على شيء، تاركة وراءها حزنا وألما رهيبا تمّثـــل في تنهداتـــه العميقة. شدّ بقبضتيه على الغطاء وصرّ على أسنانه بقوة. فكّـــر في نهايته الوشيكة التي رآها ترتسم أمامه. لو أنه ذهب إليها مختارا لكان أفضل، ولكن ها هي نهايته تقترب بعد كل شيء. لم يشأ للأقدار أن تباغته، أراد أن يسبقها ويقرّر مصيره بنفسه. حتى هذه لم تمنحها لـــه الحياة. كان صدره يصعد وينخفض، يحدث حشرجة في رئتيـــه. لم يطق المكوث على تلك الوضعية. زفر زفرة ثقيلة وكأنه يودّ أن يطرح معها كل أحزانه وكآبته.

-9-

"أنا لا أصلح لشيء في هذه الحياة، أنا مجرّد رقم ضائع بين أعداد لا تحصى من البشر. متشردة، ضائعة، منهكة ولا أحد يكترث. البارحة فقط دفنت أخي وها أنا الآن أخرج من الماخور. ألقيت نفسي في الجحيم من أجل لا شيء، من أجل ما توهّمت أنه الخلاص، من أجل سعادة الآخرين التي لم تتحقّق. أيّ فائدة جنيْتُها الآن؟ أيّ وَطَر قضيْته وأنا أرمي بنفسي في حفرة لا مخرج منها؟ وها هي حياتي تتداعى أمامي الآن ولا أستطيع أن أتحرّك قيد أنملة، أمي متسولة وأخي واراه التراب، وأنا؟ أين لك أن تستقري يا سعاد؟ أين ستكون توبتك النهائية؟ أفي القبر بجانب ماسي؟ لا.. لا.. هذا ما لن يحدث أبدا.. لن أفسد هدوءه الأبدي باللحاق به إلى هناك أيضا.. عليه أن يرقد مرتاحا، فجسدي مضمخ بالخطايا، جسدي مذنب ولن يطهّره التراب ولا الدود. عليّ أنْ أُحْرَق كالوثنيين، عليّ أن أموت بطريقة تليق بي. لن أترك لهم فرصة النيل مني.. لن أقبل لأيّ شخص لم يعرف معنى الذل ولا الألم أن يقف أمام جثتي، ويرفع يده إلى السماء طالبا المغفرة لهذه الزانية التي أذنبت فوق كل ذلك بالانتحار. لن أقبل أن يمنّ عليّ أحد بكرمه بعد حرماني.. لأنهم لم يفعلوا ذلك وأنا أتعذب بينهم. من أجل ذلك أرغب في الموت كما أحب، كما لم يخطط لي القدر. لن أترك لهم الفرصة للتكفير عن ذنوبهم بالوقوف أمام جثتي. دعواتهم

الإلهية لن تغنيني شيئا كما لم تكن تغنيني سخرياتهم في الحياة. يستغلوننا أحياء لنتسول، لنذلّ أنفسنا، يتبرّؤون من أفعالنا ثم يأتون لطلب المغفرة فوق جثثنا. أكره نفسي حتى وأنا أفكّر فيهم. رغم ذلك لن أدع لهم الفرصة للتّكفير عن ذنوبهم بي، أنا ملطخة والكل يعلم ذلك. لذا عليّ أن أموت بطريقتي. ولكن إن مت فسيتخلّصون مني ولن يعود لي وجود أبدا. سيفرحون لأنني غادرت دون أن أزعجهم ودون أن أكون عبئا عليهم. لن أقدّم لهم هذه الخِدمة مجانا، عليك أن تقاومي يا سعاد، مازال هناك أمل، مازال هناك نور، مازال هناك.. إنه في المستشفى ورأيته بعينيك اللتين لم تقدما لك سوى الدموع، ثم إنك ودّعته وهو ينتظرك بفارغ الصبر، لو تعودين إليه لن يكون العالم قاسيا كما تعتقدين يا سعاد.. عليك أن تجرّبي، عليك أن تدعي الحياة تأخذ بيدك، عليك يا سعاد أن تسمعي لصوتك الداخلي.. ولكني لا أرغب في المزيد من الأحزان، لن أقدر على فراقه إن هو غادر، كيف سأواجه العالم وحدي؟ كيف سأبرّر لنفسي خطئي بعدم الموت في هذا اليوم بالذات؟ هيا.. إنه اليوم الأخير من حياتك كما قرّرتِ أليس كذلك؟ ستكون موتة مشهودة ولن ينساك الجميع بسهولة. لأنك قوية اخترت هذه الطريق، لأنك جريئة ستقدّمين نفسك كشهيدة لهذا المجتمع. ولكن لو أخَّرْتِ ذلك يوما فهل سيتغيّر شيء؟ هل يمكن لرجل أن يغيّر مصيرك وينقذك من الموت؟ ولكن كيف لي أن أعرف وأنا التي لم أقف أمام الموت مرة؟ ها هو الطريق ينبسط أمامي، مفروش بالبلاط، والنخيل مصفوفة على جانبيه برؤوسها الشامخة، وأعمدة الكهرباء تنحني لها إجلالا. لم يعد

يفصلني عن مصيري سوى هذا الرصيف الممتد على طول الحديقة، ثم أصل إلى البريد المركزي، وأخيرا أعبر الطريق إلى المنتصف أيـــن أجد فتحة النفق من الأعلى. الأمطار بدأت تهطل بغزارة ولا أملك مظلّة.. ههههه.. مظلة؟ ولكن ماذا تعني لك المظلة يا سعاد؟ أهـــذا هو وقت التفكير بالمظلة؟ أتخافين البلل وأنت المقبلة على معركة مع القدر؟ اِهزميه إذن وكفانا كلاما تافها عن المظلة اللعينة.. انظـــري كيف يتجاهلك الناس، هذا الشاب يلاحق مؤخّرة تلـــك المـــرأة، وهذا الكهل ينظر إلى ساعته في معطفه الرمـــادي كلـــون هـــذه السماء... هؤلاء من يدهشهم الموت في كل مرة، ولكنهم رغـــم ذلك لا ينتبهون له إلا متأخرين وقد نشر براثنه وانقـــضّ علـــى فريسته. ها هم يمرّون من حولي ولا أحد ينتبه لمصيري.. كم هـــذا غريب! أسير نحو الهلاك والسماء تمطر بهـــدوء وكـــأن لا شـــيء يحدث. بعد قليل سأكون في عداد الموتى.. كم هذا مثير وأنا أعلم ما سيحصل لي بعد دقيقة من الآن! إنه شعور عظـــيم أن يعـــرف الإنسان قدره.. أرى نفسي ميتة بعد دقيقـــة مـــن الآن ولا أزال أملك القدرة على التغيير. كم هذا عظيم! يمكنني أن أغيّر موقفي، يمكن أن أعود إلى المستشفى حالا، ولكن هل سينجو؟ وإن كنـــت سأموت كيف سأعلم ما الذي يحصل؟ هل عليّ أن أستمر أم أعود إلى المستشفى؟ يا إلهي بدأت أتعب، قدماي ترتعدان وكأن الـــدم غادرهما. أحِسُّ نفسي ضعيفة وكأني ورقة في مهب الريح تنتظر إلى أيّ مستقر سينتهي بها المآل. أقتل نفسي أو أحييهـــا؟ مـــن أنـــت لتقرّري يا سعاد؟! أنتِ لستِ آلهة لتقرّري من يموت ومن يحيـــا.. الآلهة وحدها تفعل ذلك.. هي تُحيي وأنا أُمِيتُ إن أردتُ ولكن..

عِشت وحيدة كل حياتي والآن عليّ أن أكون مخلصة لهذه الوحدة، وعليّ أن أموت في صمت.. لن يضيرني أن أفنى وسط الأحياء، لا يهمني أن أتلاشى كذكرى أو أتحلّل إلى تراب. المهم أني اتّخـــذت قراري الذي لا مناص منه. حتى هذه المرأة أبعدت أطفالها عني وأنا أمرّ بجانبها، وكأني بتّ داخل المجارير، هل أصبحت بهذه القذارة؟ أرتدي نفس الملابس منذ ثلاثة أيام ولم أغتسل منذ أسبوع.. هـــل أصبحت بشعة لهذه الدرجة؟ آه يا سعاد! مـــا كـــان عليـــك أن تذهبـــي إلى ذلك المستشفى هذا الصباح. مـــا كـــان عليـــك أن تعانقيه وتغمريه بكل حنانك ورائحتك.. لقد ضَعُفْتِ وأنتِ تقفين أمامه وكْدت تتنازلين عن فكرتك، كِدتِ وأنتِ تعانقيه أن تقـــولي له أنك تهيمين به، وأن لا شيء يشعرك بالسعادة غـــيره. كـــدت وأنت تلامسيه أن تخوني صمتك لتقولي أشياء كـــثيرة كتمتِهـــا في قلبك، كدت وأنت تطوّقينه بكل طاقتك ورغبتك أن تعترفي بحبك له، أن تستسلمي كأنثى. آه يا سعاد! لا رجعـــة بعـــد الآن عـــن قرارك. ولكن شيء بداخلي لا يزال ينبض بقوة. أكاد أعرفـــه ولا أراه، أكاد أسمعه ولا أسمعه، إني أحس به حياً بداخلي ولا يمكن أن أرتكب جريمتين مرة واحدة، لا يمكن أن أقتل أملي وأمله معـــا.. هل مازلت تحبّين يا سعاد؟ قد يكون كل شـــيء وَهْمًـــا تعيشـــينَهُ يدعوه الناس بالحب، وهل تستحقين أنت ذلك الحب بعد كل مـــا حصل؟ هل أعود إلى هناك أم.. عليّ أن أقطع هذه الطريق؟ الأمر سهل يا سعاد، ما عليك إلا أن تنتظري الشارة الحمراء وتنطلقـــي نحو الطريق لتستقبلي أول سيارة مسرعة. ولكن لا.. مازال أمامي بضع أمتار ويمكن أن أفكّر في شيء قبل أن أغادر إلى الأبـــد. ألا

أستحق هذه الدقائق القليلة لأفكر قليلا؟ أضعت حياتي كلـــها في التفاهة ولا ضيْر من تضييع بضع دقائق أخرى.. الضوء الأخضـــر يشتعل أخيرا، ولم يعد يفصلك عن قدرك إلا خطوات معدودة. آه يا سعاد كم سكبت من ألمك في تلك الرسالة! كم بكيت بحرقـــة أمام تلك الورقة وأنت تخطينها بيدك المرتجفة! آه يا ســعاد كـــم ترددتِ قبل أن تقرري الذهاب إليه.. ثم عانقتِه؟ بتلك البســـاطة؟ نعم. عانقتُه ولامستُ روحه. عانقتِه وأحْسَسْت بنفسك داخلـــه. عانقتِه ولم تعودي نفسك، تُهْت بين ثناياه. كنتِ شيئا آخـــر بـــين ذراعيه، لم تكوني أنت. ألم تدري ما النتيجة التي ستجنينها بعد كل هذا؟ ألم تتلظّيْ بنار الشوق لتَقْبَلي بألم الفراق؟ هل ستقبلين بكـــل هذا وتغادرين وكأنّ شيئا لم يحدث؟ هل تستسلمين وتدعين اليأس يسيطر عليك؟ أنتِ التي ظللت أسيرة الصمت والكتمان. أنـــتِ التي ضحيّت بكل شيء من أجل إسعاد الآخرين. لم يعد لي بيـــت يأويني، ولا أمٌ تضُمُني، ولا أخٌ يحميني، ولا زوجٌ يغمرني بحنانه. لم أعد أملك شيئا ولا أحد ينظر إليّ باحترام إلا هو، وحده من رأى كل شيء، وحده من تألّم لفراقي. حسنا، عليّ أن أقرّر، إن مـــتّ اليوم فعليّ أن أقول وداعا لحسين ووداعا للأطفال. كم علـــيّ أن أحتمل هذا الهوان والذل؟ كم سأصمد في وجه هذا التشرد؟ أنـــا لست مُخَيّرة في هذه الحياة.. أبدا.. تقول زليخة أنها تخلّـــت عـــن ابنها الوحيد لجدّه من أجل سعادتها، أمّا أنا فتخلّيت عن نفسي من أجل سعادة الجميع.. ولكن إلى متى؟ وإلى أين سيؤدي كل ذلك؟ متى أنظر إلى نفسي، متى يضحّي الآخرون من أجلي؟ لولا ماسي لما تجرّأت على التفكير في الأمر، لولا أمي المتسولة لمـــا.."انظري إلى

نفسك وابْنِي مستقبلكِ بنفسك كما فعلت أنا" هذا مـــا رددتـــه عندما علمت زليخة بأمري. أنا أنظر إلى نفســـي وأتقـــدّم نحـــو مستقبلي بخُطىً متردّدة ثم.. ها آنذا أقف أخيرا عند حافة النفق.. من أنا لأحلم؟ من أكون لأحظى بفارس أحلام؟ من أنا حتى أجرؤ على التفكير في الحب بعد كل ما حدث؟ حسين؟ حسين.. إنه أهم شيء وضعه القدر أمامي.. الشرطي يمضغ صفارته عبثا لأني لـــن ألتفت إليه، ليس أمامي الوقت لأنتبه لهم، أزياؤهم مختلفة ولكنهّم سواء. كلهم سواء.. السيارات تمرّ بسرعة وها هي الشاحنة تدخل النفق، كل ما أراه الآن ضباب، دموع وألم، لمـــاذا يحـــوم النـــاس حولي، هل أنا على الآرض؟ ولكن كيف سقطت؟ آه إنها الأمطار، زلّت قدمي ولم أسقط داخل النفق.. حسين...".

-10-

انسحبتْ أشعة الشمس ببطء، وتدحرج قرصها البرتقالي كصرّة في بطن رجل سمين نحو العالم السفلي، مُخلِفا وراءه غسقا رماديا زاد من كآبة الغرفة ووحشتها. راقب حسين من مكانه السماء البنفسجية من خلال النافذة وقد تدهورت حالته الصحية عن السابق. رغب في الحديث ليبث أحزانه المتراكمة ولكن لا شيء يُسْعِفه في هذا المكان. فقد غرقت الغرفة في صمت أشبة بصمت القبور، و لم يعد له القدرة على مخالطة أحد.. انسكبت آخر أشعة للشمس على جزء صغير من الجدار، وكان الشعاع يُظْهِر ظل إطار النافذة. كانت تلك النافـــذة تنعكس في بريق عينيه مثل نافذة سماء تنفتح في هذه الغرفة الغارقة في العدم، إنها المنقذ الوحيد، نافذة الروح على يمينه ونافذة الجسد علــى يساره.. كلتاهما تؤدّيان إلى الفناء. فتح حســين الــدّرج وتنــاول الرسالة، قوّم جلسته بصعوبة واستقام ظهره وهو يمسك بالرسالة بين يديه. جاست أصابعه على حوافها وقلب الظــرف تحــت عينيــه المحمرّتين. مزّق الظرف وفظّ الرسالة ببطء متحسّسا ملمس الــورق بين أصابعه الطويلة. كانت مكتوبة بخط اليد. أغلق عينيــه وهــو لا يزال يُمْسِك بالرسالة بين يديه، وبعد لحظات أعاد فتحهمــا وبــدأ بقراءة محتواها بأصابع مرتجفة.

"حسين.. أخاطبك الآن لأنّك أول شخص فكرت فيه وأنــا أكتب هذه الكلمات. لا أدري لِمَ اخترتك أنت من بين الجميــع.

لنقل أنك رأيت شيئا بداخلي لم يلحظه أحد غيرك، وهذا الشـــيء اشتعل لأول مرة بين يديك ولن ينطفئ إلا بفنائي. أنا آســـفة إن كنت قاسية في طريقتي في قول الأشياء، ولكن ما من طريقة أخرى أخبرك بها دون التسبب بكثير من الألم لكلينا. لذلك قـــررت أن أكتب لك هذه الرسالة وأنا أفكر كيف أبدو في نظرك بعد كل ما حدث.. إن كنت تقرأ هذه الرسالة الآن فـــاعلم أنـــني لم أعـــد موجودة في هذه الحياة. أنا متيقّنة من أنك ستفهم قراري بالرحيل، قراري الذي لم أجد له بديلا آخر. لا أريدك أن تحزن من أجلـــي، فأنا على يقين من أنني أكتب للرجل المناسب، أكتب للرجل الذي باغتني في منعطف الطريق وكاد يغيّر مصيري لولا قسوة الأقـــدار. نعم.. لقد تغيّرت حياتي بعد لقائك، وأنت الشيء الوحيد الـــذي فكّرتُ فيه قبل تنفيذ قراري النهائي. شيء رائع أن يجد الإنســـان إنسانا آخر يفهمه ويتكلّم معه دون أن يتحدّث بكلمة. أنا متيقّنـــة من أنك في هذه اللحظة قد فهمت كل ما أريد قوله. أريـــدك أن تحتفظ بذكرايْ، أريدك أن تحتفظ بكل التفاصيل التي عشناها معـــا في تلك المدة القصيرة. لأنّها تمثل لي كل شيء. لن أستطيع تبريـــر فعلتي مهما أسَلْتُ من الحبر على هذه الورقة، ولكن على الأقـــل سأنال احترامك لي، سأنال حبك وعطفـــك الـــذي وددت لـــو امتلكتهما وأنا حية. كل ما رغبت فيه هو أن أصون ما تبقى لي من كرامة. التعاطف لا يليق بامرأة مثلي. إن هذا القرار ليس انتقامـــا ممن أحبوني، بل بالعكس.. لم أقبل لهم بالمعاناة وأنا المحكومة بالشقاء والبؤس حتى ألقى الله. أعلم أنك ستتساءل: ما سبب فعلتي هذه؟ كل ما فعلته هو أني اخترت أهون الشريّن، اختـــرت أن أمـــوت

وأُنْقِصَ من معاناة أهلي والناس من حولي. اخترت أن أموت بكرامة غير مثقلة بأعباء الامتنان لكل شخص ينظر إليّ بعين الاحتقار أو الشفقة. فالضعف بداية الشفقة والشفقة بداية الاحتقار.. وأنا لن أرضى بهذا المصير لنفسي. ضحيّتُ بنفسي كما يضحي الصدّيقون والشهداء بأنفسهم، ألا ترى أنني محقّة فيما أقول؟ هم ضحّوا بإراقة دمائهم ودماء غيرهم من البشر، أمّا أنا فقد أرقْتُ دمي من أجل الجميع، أليست هذه تضحية عظيمة؟ ألستُ أفضل من الشهداء والصدّيقين؟ لقد ضحيّت لأكبح هذا الظلم الذي ورثناه دون أن نطلبه من الحياة. أخيرا فهمت العالم من حولي، فهمت معنى أن تكون إنسانا وأكثر من ذلك، فهمت أنّ البشر في هذا الكون لا شيء، وأفضل شيء يمكن أن تقدّمه الإنسانية هو أن نترك العالم يستريح من همومنا وشرورنا. عرفت أشياء كثيرة.. عرفت أنه مهما عَظُمَت اللذة زادت معها القسوة، عرفت اللذة واصْطَلَيْتُ بنار العذاب، عرفت أنّ البشر لا يساوون شيئا في هذا العالم، وعلمت أنّ الهمّ في هذه الحياة لن ينتهي إلا بمواجهة الموت. نعم اخترت الموت لأنّه الملاذ الأخير وأقصر الطرق لإنهاء مآسينا. لذلك رجاءً لا تدع الحزن يتغلّب عليك وكافح من أجلي ومن أجل أن تعيش بسعادة. تذكّر عنّي الأشياء الجيدة فقط، فهي وحدها ما يفيد في الحياة. الحزن لا ينفع، فدعه.. تذكّر قَدْر محبتي لك وإخلاصي لمشاعرك. قلت لي ذات يوم أنك وجدت في تلك الغرفة أملك في الحياة.. أؤكد لك أنه لن يفارقك أبدا مهما حييت. تذكّر أنّ الذي في السماوات لا يرفض دعاء إنسان مُشْرف على الهلاك. إنسان ضعيف مثلي لا يسعه إلا ليذعن

لمشيئته. إنسان يدعو ربه سرا ولآخر مرة أن يكون غفورا رحيما. الوداع...".

نهض حسين من مكانه نافضا عنه دثاره الذي سقط على الأرض فجأة. نزع إبرة الخيط من ذراعه بمزيج من الأنين، ثم تركها لتتدلى من القضيب المعدني كبندول ساعة عتيقة توشك على إصدار صوت منتصف الليل. وقف على رجليه ومدّ قامته وكأنها غصن ذابل. رمى قدما إلى الأمام وخطا الخطوة الأولى. تلك النافذة على الجدار بدأت ترتفع وتتلاشى لتلامس السقف. تحرك نحو الأمام مادًّا ذراعه نحو الجدار. اقترب من عتبة الباب والتفت لينظر إلى الأفق من تلك الزاوية. كان بدنه يرتعش بأكمله و لم تعد ركبتاه تتحملان وزنه على خفته.

"هل يعقل أن تقف حياتك هنا وللأبد؟ حَسِبْتُ أني نِلتُ نصيبا من السعادة.. ولكن ما هي إلا خدعة مارسَتها الحياة عليك يا حسين. في هذه الغرفة بعد كل تلك السنوات تجد شيئا يعني الكثير. شيئا لم تتوقع أن ينفلت من بين يديك وأنت في أمَسِّ الحاجة إليه.. لماذا؟ لماذا كل هذا يحدث لي؟ لماذا؟ كم من أمنية تمنّيت، وكم من طريق سلكت، وكم من سؤال سألت.. ولكن الحياة تنتهي دائما بأن تردّك لا شيئا.. أنت لا شيء وعليك أن تظل لا شيء.. قواي تخونني ولم أعد أرى شيئا...".

سرت دفقة ألم في بدنه، فوضع يدا على بطنه وانكمش لحظة مكشّرا واللعاب والمخاط يختلجان أمام ناظريه على الأرض أمام قدميه. رفع نفسه للمرّة الأخيرة ليقف وقفة رجل، وقفة الصمود الأخير في وجه الحياة. امتلأت عيناه بالتّشوش وانحجبت عنه الرؤية.

مادَتْ الأرض تحت قدميه وظلّ صامدا متحدّيا نفسه والعالم. تحـــرّك الجدار الذي أمامه فجأة ليَحُلّ محلّه السقف المتشقق. كـــان حســـين ساقطا على الأرض والظلام يبتلع أحلامه وذكرياته كثقب أســـود. عتمة وسكون، ولا شيء. طفى جسده في الهواء مجدفا بيدين رخوتين في الفضاء سابحا في اللاشيء، تمرّ أمامه أحداث الكـــون مســـرعة، وبحركة عكسية تعود الأرض إلى شكلها الأول منذ ملايين الســـنين قبل ظهور الحياة وتطور المخلوقات، وتتلاشى الســـماء، ثم تنفجـــر الأرض إلى فتات، ثم إلى غبار يدور حول كـــرة ملتهبـــة آخـــذة في الاشتعال. يعود الزمن إلى الوراء أكثر وأكثر بملايين السنين؛ حيـــث تختفي النجوم لتتحول إلى سُدم هائلة، متجمّعة في كثافة ثم تتفـــرق وتتوزع في أنحاء الكون، وتصْغُر هذه الأجزاء متقلصة لتصبح علـــى شكل حساء من الجزيئات المجهرية، ويمتدّ الزمن إلى الـــوراء بضـــع مليارات سنوات ضوئية ليقترب من لحظة الحسم، حيث يتركز كـــل ما في الكون في نقطة واحدة أصغر من أيّ جزء في هذا العالم. هـــذه النقطة هي كلّ ما يتيه فيه الإنسان.. يتيه في اللاشيء.

يفتح حسين عينيه ببطء، ويرى ومضات متقطّعة لم يدرِ هل أنه في الجنة أم أنه حلّ في كون آخر بقوانين أرحم من قـــوانين كوننـــا العظيم. كانت الأصوات تصله غريبة والضباب يلُفّ عينيه. رأى من خلالهما ظِل شبح يطل من الأعلى. كائن جميل وملـــيح، متناســـق الملامح وذو مظهر جليل. سقطت خصلات من شعر ذلك الكـــائن على وجهه، وداعبت أصابعه الرقيقة وجنتيه. ظنّ أنه دخـــل الجنـــة أخيرا، وشعر بنوع من القلق ينتابه من شيء لا يعرفه وســـيظل فيـــه خالدا لن يموت. وصل سمعه صوت رقيق وكانت الومضات تتقطـــع

بفاصل داكن. هدوء ثم يعود الصوت على شكل موجات متقطعة. "حسين.. حسين.. أنا بجانبك حسين.." بعد ذلك بدأت رؤيته تستقبل الشعاع بغرابته وسطوعه، وكان صاحب الصوت رقيقا يداعب أوتار عصبه كما يداعب الموسيقي أوتار جيتاره. لحن جميل على شكل صوت أنثوي ناعم. بدا أنّ كل ما يحيط به رائعًا، خصلات شعرها وشفتاها الحمراوتان. يتجلّى شيء من حُسْنها ويضيء المكان من حوله. "أيمكن؟". حسين.. حسين.. أنا هنا معك، هل تسمعني؟ حسين.. تلك العينان العسليتان والبشرة اللامعة.. واتّضحت الرؤية وزال الغشاء الحاجب عن عينيه، ورأى كما رأى آدم أوّل امرأة فوق الأرض. حوااء.. الحياة.. كانت أجمل ما رآه يوما. حوااء هي الأمل.. حوااء هي الحياة. نظر للمرّة الأولى في حياته إلى عين الحقيقة. أن تحيا من جديد، أن تُطْرَد من الحياة ثم تعود من لاشيء، أن تختبر الدنيا، أن تموت فيها ثم تحيا هو عَيْن الحقيقة، أنْ تحيا بكلّ السعادة التي فيها وكل الألم.

بعد أن عاد إلى الحياة من جديد لم تكن له رغبة إلا في مواصلة التحديق إلى ذلك الوجه الجميل، وسط النور الساطع ظهرت مجددا بكامل هيبتها، متجلّية أمامه كما تجلّت لآدم بعد هبوطه من السماء. فتح حسين عينيه ورأى... إنها حوااؤه.

- سعاد...

- النهاية -

للتواصل

عبداللطيف ولدعبدالله: Goodreads

Email: abdelatif029@gmail.com





من تكون هذه الفتاة يا ترى؟ وهل يمكن للجمال والصحة أن تزور رجلا أقعده المرض ويئس من الحياة؟ هل يمكن أن تكون هي؟ لا.. لا يجب أن أفكر في مثل هذه الأمور.. أنا لست بخير ولا يجب التفكير في مثل هذه الأمور.. فهذا غير وارد أبدا وخاصة منها هي.. أعرفها جيدا.. أعرف عنادها الذي ورثته عنّي.. لقد سقطتُ من حساباتها ولم أعد أعني لها شيئا غير أنها تحمل جيناتي.. أنا لوثة سوداء في حياتها.. كيف لي أن أطمع في رؤيتها وهي التي نبذتني خلال حياتها.. كيف أطمع في احتضانها بعد أن أضعت فرصة الاحتفاظ بها وهي صغيرة.. تركتها بدون أمّ وهي ما تزال صغيرة.. بالتأكيد ستكون غاضبة، ولكن ألا يذهب الغضب مع الوقت؟ ألا يلين قلبها من أجل والدها؟ كم من مرة حاولتُ رؤيتها في بيت جدها، كم من مرة حاولت الاتصال بها ولكن جدها علّمها الحقد وملأ رأسها بالأكاذيب.. ولكنها غلطتي.. كل ما يحدث بسببي وحدي.. فعلتها بيديّ هاتين وها أنا ألقي اللوم على الجميع.. أنا من عاقر الخمر.. أنا ابن الكلب الذي خرّب بيته بيديه.. أنا الحثالة والقمامة التي استلذّت الألم وانغمست في الحزن كل تلك السنوات.. جدّها الحقير هو من زاد الطين بلة ونقل إليها حقده علي، وجعلها ترفض رؤيتي كل مرة.. معه حق.. له كل الحق.. وهل يسمح لها برؤية حثالة مثلي؟ كلب متشرّد يرقد في الشوارع ويلهث وراء شربة خمر.. كل تلك السنوات الضائعة التي لم أرها فيها.. كل يوم يمر سيكون ضدي ولن أستطيع تعويضها أبدا.. هذا مستحيل.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن تكون هي أبدا.. أعرف ذلك.. وأعرفه جيدا.. ترى من تكون هذه الفتاة؟

عبد اللطيف ولد عبد الله

• روائي من الجزائر.

• صدر له أيضاً عن الدار:



تصميم الغلاف: يوسف القوش



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

